نيكولاي غوغول

الأمسيات في قرية قرب ديكانكا

‘لم أرفع رأسي عنه حتى النهاية.’
بوشكين



ترجمة
هَڤال يوسف

دار الساقي

نيكولاي غوغول

الأمسيات في قرية قرب ديكانكا

ترجمة

هَڤال يوسف

دار الساقي

الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-846-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033.
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

الجزء الأول

مقدمة

"ما هذه الأعجوبة: 'الأمسيات في قرية قرب ديكانكا'؟ ما عساها تكون هذه 'الأمسيات' التي طوّح بها إلى النور[1] نحّالٌ ما؟ سبحان الله! كأنما لا يكفي كم نُتِف من ريش الإوزّ وكم حُوِّل من خِرَق إلى ورق حتى الآن! أو كأنما لا يكفي كم من الناس، من شتّى المراتب ومن أسقاط البشر، قد لطّخوا أصابعهم بالحبر! الحقّ أنه قد طُبع من الورق الكثير بحيث لن يدري المرء قريباً ماذا قد يُلفُّ فيه."

لقد تناهت إليّ، وخطرت لي، هذه الأقاويل حتى منذ أكثر من شهر! أقصد أن يدسّ "أخونا" القروي أنفه في عالم عليّة القوم من قريته النائية المنسية – يا للهول! هذا كأن يدخل أحدهم دار ملاّك نبيلٍ عظيم الشأن، فيلتفّ الجميع حوله ويبدأون في السخرية به. لهان الأمر لو أنه اقتصر على كبار الخدم، لا بل إنّ أيّ ولدٍ رثّ الثياب، ينقّب في القمامة في الفناء الخلفي، ما إن يراك حتى يتحرّش بك، ويأخذ الخدم بركللك بأقدامهم من كل حدبٍ وصوب. "إلى أين، إلى أين؟ ماذا تريد

[1] لا يقول غوغول: "أخرجها إلى النور"، أي أصدرها، وإنما "طوّح بها"، بمعنى "خرج بها علينا"، "رماها في وجوهنا"، من باب السخرية. (م)

يا فلاّح؟ هيا انقلع من هنا!..." أقول لكم... ولكن ما جدوى الكلام! فأنا أهون عليّ أن أسافر مرتين في السنة إلى ميرغورود، حيث لم يرَ وجهي لا معاون قاضي الناحية ولا القسّ الموقّر منذ خمس سنوات، من أن أختلف إلى أوساط عليّة القوم هؤلاء، إذ ستدفع الثمن شئت أم أبيت.

عندنا، يا قرّائي الأعزاء، ولا أقصد الإساءة (فقد يغضبكم أن يكلّمكم نحّال بهذه الأريحية كما لو أنه يكلّم نسيبه أو إشبينه)، في القرى، جرت العادة منذ زمنٍ بعيد أنّ الفلاحين في الدساكر ما إن يفرغوا من العمل في الحقول حتى يتسلّقوا مصاطب المواقد يهجعون إليها طول الشتاء، ويضع "أخوكم" نحلاته في قبو مظلم، وفقط عندما تختفي طيور الكراكي من السماء، ولا تعود ثمار الكمثرى على الأشجار مرئية لكم، يكون المساء قد حلّ، وحينئذٍ ربما يتلألأ نورٌ من مكانٍ ما في آخر الشارع، ويتناهى الضحكً والغناء من بعيد، وتصدح "البلالايكا"[1]، وأحياناً يتعالى صوت الكمنجة واللغط والصخب... هذه هي "الأمسيات" عندنا! أرجو أن تلاحظوا أنها تشبه حفلات الرقص عندكم، لكن ينبغي القول أنها لا تشبهها تماماً. وذلك أنكم إذا كنتم تذهبون إلى حفلة رقص، ففقط لكي تفتلوا بأرجلكم وتتثاءبوا واضعين أيديكم على أفواهكم. أما عندنا، ففي كوخ واحد يتجمّع حشدٌ من الفتيات، لكن ليس لأجل الرقص على الإطلاق، وإنما ليشتغلنَ بمغازلهنّ ومنادفهنّ، وفي البداية يبدون كأنهنّ يقمنَ بعملهنّ: المغازل تطنّ والأغنيات تنساب ولا ترفع أيٌّ منهنّ رأسها

[1] آلة موسيقية وترية روسية صندوقها مثلث الشكل. (م)

لتنظر جانباً. لكن ما إن يقتحم الفتيان ومعهم عازف الكمنجة الكوخ حتى يتعالى الصياح ويسود الهرج والمرج ويبدأ الرقص ويقومون بألاعيب يخجلني مجرّد ذكرها.

لكن أفضل ما يحدث هو عندما يتكوّمون ويبدأون في تحزير الأحجيات، أو ببساطة ينخرطون في الثرثرة واللغو. يا إلهي! يا للقصص التي يقصّونها! ويا للنوادر القديمة التي ينبشونها! ويا للحكايات المخيفة التي يحكونها! لكن لعل أغرب الحكايات هي تلك التي تُروى في كوخ النحّال بانكو الأصهب في الأمسيات. أما لماذا لقّبني القرويون ببانكو الأصهب، فوالله لا أعلم. حتى إن شعري يبدو أشيب أكثر منه أصهب. لكن عندنا، وأرجو عفوكم، من المعتاد أنه إذا أسبغوا على المرء لقباً فإنه يلتصق به إلى أبد الآبدين. يحدث أن يحلّ بعض الناس الطيبين مساء العيد ضيوفاً على كوخ النحّال، فيجلسون حول المائدة، وعندها ما عليك إلاّ أن تستمع إلى ما يقولون. ولا بدّ من القول إن الضيوف لم يكونوا بحال من الفلاحين الفقراء أو من القرويين البسطاء، بل إن زيارتهم تشرّف حتى من هو أعلى مكانةً من مربّي النحل. هاكم مثلاً، هل تعرفون قندلفت كنيسة ديكانكا فوما غريغوريفيتش؟ آخ، رأس حقاً! يا للقصص التي كان يجيد سردها! تجدون اثنتين منها في هذا الكتاب. ولم يكن يلبس أبداً رداءً من الكتّان المغزول في البيوت كتلك الأردية التي تصادفونها على كثيرين من قندلفتية الريف، بل حتى لو ذهبتم إليه وهو على رأس عمله فإنه يلقاكم مرتدياً عباءة من الجوخ الناعم بلون عصيدة البطاطا الباردة، اشترى الذراع منه بحوالي ستة روبلات من بلطافا. ولن يزعم أحد في قريتنا كلها أنّ جزمته تنبعث منها رائحة

القطران، فمعروف للجميع أنه يجلوها بأفضل أنواع الشحم، الذي أعتقد أنّ أي فلاح يسرّه أن يضعه في حسائه. ولن يزعم أحد كذلك أنه رآه يوماً يمسح أنفه بذيل عباءته، كما يفعل الكثير ممّن في منصبه، وإنما كان يخرج من عبّه منديلاً أبيض مطوياً بعناية، طُرّزت أهدابه كلها بخيطٍ أحمر اللون، وبعد أن يستعمله كما ينبغي يطويه ثانيةً اثنتي عشرة طيّة، على جري عادته، ويخفيه في عبّه. وأحد الضيوف... أما هذا فكان من الظرف والتهذيب بحيث يمكنك تعيينه للتو واللحظة محلّفاً أو ملاحظَ أراضٍ. كان يرفع إصبعه أمام وجهه ويُنعم النظر في أنملته ثم يأخذ في القصّ فيغالي في التزويق ويتفنّن في التعبير كما في الكتب المطبوعة! وأنت تروح تصغي وتصغي، لكن عقلك يتبلبل ولا تعرف لما يقول رأساً من ذنب، ومهما حاولت لن تفهم شيئاً مما يقول. الله أعلم من أين كان يأتي بتلك الكلمات! وقد سخر به فوما غريغوريفيتش ذات يوم فروى له الحكاية المشوقة التالية: قصّ عليه حكاية تلميذ كان يتلقّى دروساً في اللغة اللاتينية على يد شمّاسٍ، وقد بلغ به الأمر حدَّ أنه نسي لغتنا السلافية، فكانت كل الكلماتٍ عنده تنتهي باللاحقة "وس" – المجرفة تصير عنده "مجرفوس"، والمِدَكّ "مدَكّوس"... وذات يوم، بينما كان الفتى ذاهباً مع والده إلى الحَقل، رأى مجرفةً وسأل أباه: "ما اسم هذا الشيء بلغتكم يا أبي؟" وداس على أسنان المجرفة فاغر الفم، وهنا، وقبل أن يأتيه الجواب، ارتفع ذراع المجرفة و"طاخ" أصابته في جبينه، فصرخ الفتى ممسكاً بجبينه قافزاً بمقدار ذراع في الهواء من الألم: "ألا فليطوّح الشيطان بأبيها من فوق الجسر هذه المجرفة اللعينة، كم توجع ضربتها!" وهكذا تذكّر الفتى الغندور اسمها!

لم ترقْ هذه القصة للحكواتي المتفاصح، فنهض من مكانه دون أن ينبس بكلمة، ووقف في وسط الغرفة مباعداً بين قدميه، ومطّ رأسه إلى الأمام قليلاً، ودسّ يده في الجيب الخلفي لقفطانه ذي اللون الأصفر المائل إلى الخضرة. وأخرج علبة سعوطه المطلية بالورنيش، ونقر بإصبعه على وجه الجنرال الكافر[1] المنقوش نقشاً رديئاً على غطاء العلبة، ثم تناول قدراً لا بأس به من السعوط المخلوط بالرماد وأوراق نبات الكاشم ورفعه إلى أنفه بجلبة ونشق الكمية كلها دفعةً واحدة "على الطاير"، حتى من دون الاستعانة بإبهامه، وقد فعل ذلك كله دون أن ينبس بكلمة، وفقط عندما أدخل يده في الجيب الآخر وأخرج منديلاً ورقياً أزرق اللون ذا مربّعات، فقط حينها تمتم بينه وبين نفسه شيئاً من قبيل: "لا ترموا درركم تحت أرجل الخنازير"... "لا شك أنّ مشاحنةً ستنشب الآن"، قلت في سرّي حين لاحظت أن فوما غريغوريفيتش ضمّ قبضته كمن يهمّ أن يكيل له اللازم. ولحسن الحظ أن زوجتي العجوز قد تخيّرت تلك اللحظة بالذات لوضع الفطائر مع الزبدة على المائدة، فأقبل الجميع عليها، ويد فوما غريغوريفيتش، بدلاً من أن تُبدي إيماءةً نابية، امتدت إلى الفطائر الساخنة، وعلى جري العادة أخذ الجميع يطرون براعة زوجتي في الطهو.

كذلك كان لدينا حكواتي آخر، لكن ذاك (ويستحسن بنا عدم إتيان ذكره في الليل) كان في جعبته من القصص المرعبة ما يقف لهولها شعر الرأس. وقد تعمّدتُ عدم إيرادها هنا، إذ قد يتملّك الفزع الناس الطيبين بحيث يخافون من مربّي النحل خوفهم من الشيطان والعياذ بالله! فإذا

---

[1] أي "الضابط التركي"، ففي الحروب السلافية – العثمانية كان كلا الطرفين يعتبر الآخر كافراً. (م)

مدّ الله في عمري إلى العام القادم ونشرت كتاباً جديداً، حينها لعلّي أثير هلع القرّاء بقصص الجن والعفاريت القادمة من العالم الآخر مما جرى في غابر الأيام في بلدنا المسيحي هذا. وقد يكون بينها بعض أقاصيص النحّال نفسه، التي كان يرويها لأحفاده. فقط في حال لديكم الرغبة في الاستماع والقراءة، ولولا أني أتكاسل عن نبشها، فإنّ في جعبتي على الأرجح ما يكفي عشرة كتب كهذا الكتاب.

لكن هأنذا قد سهوت عن الأهم: حين تأتون، أيها السادة، لزيارتي اسلكوا الطريق العام رأساً إلى ديكانكا. وقد تعمّدت وضع الاسم على صفحة الغلاف حتى يسهل عليكم بلوغ قريتنا. وأعتقد أنكم سمعتم الكثير عن ديكانكا. أما داري[١] هناك فيمكن القول إنها أنظف من أي مَنْحَلة قد تخطر على بالكم. هذا ناهيكم عن الحديقة، فإنكم لن تجدوا مثيلاً لها حتى في بطرسبورغِكُم. وعندما تبلغون ديكانكا، ما عليكم إلا أن تسألوا أول ولد، يرتدي قميصاً متسخاً ويرعى الإوزّ، تصادفونه: "أين يقيم النحّال بانكو الأصهب؟"، وسيدلّكم مشيراً بإصبعه: "هناك!"، بل وسيقودكم إلى باب البيت إن شئتم. بيد أنني أرجوكم ألاّ تبالغوا في وضع أيديكم خلف ظهوركم أثناء سيركم، أو أن "تتخطّروا" مختالين كما يُقال، ذلك أنّ الدروب في القرى ليست ممهّدة وملساء كما هي حال الطرق أمام قصوركم. فقد كان فوما غريغوريفيتش قادماً من ديكانكا للسنة الثالثة عندما سقط في حفرة، هو وعربته الخفيفة الجديدة ذات العجلتين وحصانه الكميت، رغم أنه كان يقود العربة بنفسه وأنه، فوق ذلك، كان يضع على عينيه نظارته

١ الكلمة الروسية تعني "كوخ"، "بيت خشبي"، كما كانت بيوت الفلاحين آنذاك، وكذلك تعني "دار"، "بيت". وقد استخدمنا الكلمة المناسبة حسب السياق. (م)

من حين لآخر.

بيد أننا، ما إن تتكرّموا وتحلّوا ضيوفاً علينا، سنقدّم لكم من البطيخ الأصفر ما لعلّكم لم تتناولوا أطيب منه في حياتكم. أما العسل فأقسم أنكم لن تجدوا أفضل منه في أي قرية أخرى. تصوّروا! ما إن يُحمَل قرص العسل إلى الغرفة حتى ينتشر عبيره في الغرفة كلها، ويستحيل تخيّل عسلٍ كهذا: صاف كدمعة أو كبللورة ثمينة كالتي في الأقراط! هذا ناهيكمٌ عن الفطائر التي ستُتحفكم بها عجوزي! آه لو عرفتم كم هي شهية تلك الفطائر: كالسكّر، بل هي السكّر بعينه! وما أن تبدأوا بتناولها حتى تسيل الزبدة على شفاهكم. والحق أنّ المرء ليفكّر: ما الذي تعجز عنه هاته النسوة! وهل شربتم يوماً، يا سادة، شراب "كفاس"[1] الكمثرى مع الخوخ الشوكي أو تناولتم مربّى الزبيب مع البرقوق؟ يا إلهي كم توجد أطايب في الدنيا! ما أن تشرعوا في أكلها حتى تعجزوا عن التوقّف حتى التخمة. لا يمكن وصف كم هي لذيذة! في السنة الفائتة... لكن ما بالي استرسلت في الحديث هكذا؟... حسبكم أن تأتوا، زورونا بأسرع ما يمكنكم، وسنقدّم لكم من الأطايب بحيث تحكون عنها للقاصي والداني.

النحّال بانكو الأصهب

١ شراب حامض مخمّر، خالٍ من الكحول. (م)

سوق[1] سوروتشينتسي

- ١ -

لقد سئمت العيش في كوخ
آه، هيا خذني من هنا
إلى حيث الكثير الكثير من الصخب
إلى حيث الفتيات يرقصنَ
والفتيان يمرحون!

(من حكاية شعبية قديمة)

يا لأيام الصيف في "مالاروسيا"[2] كم هي رائعة وكم تبعث السرور في النفس! وكم هي قائظة ثقيلة تلك الساعات. عندما تتألق الظهيرة في غمرة السكون والقيظ، وحيث السماء المترامية الأطراف، المحدّبة كقبّة بديعة على الأرض، تبدو غافيةً، غارقةً كلها في نعيم

١ سوق دورية، معرض، مهرجان تسوّق. تُقام في منطقة معينة، وفي أوقات محددة، أشبه بالبازار الكبير في الهواء الطلق. (م)

٢ روسيا الصغرى: الاسم القديم لأوكرانيا. (م)

الكسل، وهي تعانق وتحتضن الأرض الجميلة في أحضانها، ما من سحابة تغشاها، وما من نأمة تُسمَع في الحقول، كأنما كل شيء قد فارق الحياة، فقط في الأعلى، في عمق السماء، ترفرف قبّرة بجناحيها، وتطير أغنيات فضيّة عبر سهوب السماء على الأرض العاشقة، ومن حينٍ إلى آخر يتعالى صياح نورس أو يتردد صوت طائر السمانى الرنّان في السهب. وتنتصب أشجار البلوط الشامخة بكسلٍ ولا مبالاة، كأنها تتنزّه في السهب بلا هدف، وتُلهب أشعة الشمس المبهرة حشوداً كاملة من أوراق الشجر البهيّة، فيما تلقي على أخريات ظلاً داكناً كالليل، يتوشّى بالذهب فقط عندما تهبّ ريحٌ قوية. كانت زمرّدات ويواقيت حشرات الجو، الصفراء منها والحمراء، تتساقط فوق حواكير الخضار وعلى زهور عبّاد الشمس الهيفاء الظليلة. أكداس الدريس الرمادية وحُزم القمح الذهبية مصطفة ومتناثرة في السهل المترامي الأطراف. الأغصان العريضة لشجر الكرز والبرقوق والكمثرى التي تنوء تحت ثقل الثمار، السماء، ومرآتها الصقيلة، النهر المؤطّر بإطارٍ من الخضرة السامقة... يا لصيف "مالاروسيا" المتخم بالرفاهية والنعيم!

وقد تألّق هذا النعيم في يومٍ قائظ من أيام شهر أغسطس عام ألف وثمانمئة... ثمانمئة... أجل، قبل ثلاثين سنة، عندما كانت الطريق على مسافة قرابة عشرة فراسخ عن بلدة سوروتشينتسي تغلي بالناس وهم يحثّون الخطى من القرى والعزبات كلها إلى السوق. فمنذ الصباح الباكر امتدّ رتل لانهاية له من العربات المحمّلة بالملح والسمك. وكانت تلال من القدور المحزومة بالقش تسير ببطء كأنما سئمت حبسها في الظلام، تلوح بينها في زهوّ من حينٍ لآخر جفنة

أو جرّة عليها نقوش ورسوم بديعة أعلى الكوم المحمّل في العربة حتى حافتها تجتذب أنظار عشّاق الترف. وكان الكثير من المارّة يرمقون بحسد الخزّاف الطويل القامة، صاحب هذه الكنوز، الذي يسير خلف بضاعته بخطىً وئيدة وهو يدسّ بعناية طرائفه العزيزة على قلبه في القشّ الذي لا تطيقه.

في معزلٍ عن بقية العربات كانت تسير بتثاقل، يجرّها زوجان من الثيران المنهكة، عربةٌ تكدّست فيها الأكياس والقنّب والكتّان وأغراض شتّى من العفش المنزلي، يتبعها صاحبها وئيد الخطى في قميصٍ نظيف من الكتّان وسروالٍ قطنيٍّ ملطّخ ببقع. كان يمسح بيده في كسلٍ العرق الذي يتصبّب بغزارة من وجهه الأسمر وكذلك المتقاطر من شاربه الطويل "المبودَر" من قِبل ذاك الحلاّق العديم الشفقة على الوسيم والقبيح على السواء، والذي، من دون دعوة، "يُبَوْدِرُ" عنوةً الجنسَ البشري برمّته منذ آلاف السنين. وكانت تسير إلى جانبه فرسٌ مربوطة إلى العربة، تدلّ وداعتها على تقدّمها في السنّ. كان كثيرٌ من العابرين، خاصةً الشباب، يخلعون قبّعاتهم حين يحاذون فلاحنا. غير أنْ ليس شاربه الأشيب ولا مشيته الوقورة ما كانا يدفعانهم إلى ذلك، إذ كان يكفي أن يرفع المرء عينيه قليلاً حتى يرى سبب هذا الاحترام. فقد كانت تجلس في العربة ابنته المليحة بوجهها المستدير وحاجبيها الأسودين، المقوّسين باستواء أعلى عينيها العسليتين الصافيتين، وشفتيها الورديتين المبتسمتين بعفوية، مع شرائط حمر وزرق تتوّج، إلى جانب ضفائرها الطويلة وباقة من الأزهار البرية، رأسَها الفاتن. بدا أن كل شيء يثير اهتمامها، فقد كان كل شيء جديداً وعجيباً بالنسبة إليها... وكانت عيناها الجميلتان تقفزان بلا انقطاع من غرضٍ إلى

آخر. وكيف لها ألاّ تشعر بالمتعة وهي المرة الأولى لها في السوق!... لكن لا أحد، لا من الماشين ولا من الراكبين، كان يدري ما بذلته لإقناع أبيها باصطحابها معه، والذي كان ليفعل ذلك من قبل بكل سرور لولا زوجة أبيها الحقود التي تعلّمت أن تسوس قياده بالمهارة التي يقود هو بها فرسه العجوز الآن إلى السوق لبيعها لقاء خدمتها المديدة. أما زوجته الصخّابة المزعجة... لكننا نسينا أنها هي أيضاً كانت تجلس فوق الحمل، وكانت ترتدي قفطاناً أخضر أنيقاً من الصوف مطرّزاً بذيول بدت كأنها من فراء القاقُم الثمين، لكن حمراء اللون، ومئزراً مزركشاً ذا مربّعات كرقعة الشطرنج، وقبعة ملونة من الشيت تضفي أهمية خاصة على وجهها الأحمر الممتلئ الذي ينمّ عن طبيعة مزعجة بالغة الشراسة بحيث كان الجميع سرعان ما ينصرفون بأنظارهم عنها إلى وجه الفتاة المرح.

بدأ نهر بسيول يلوح لأعين مسافرينا، وأخذت تهبّ عليهم من بعيد نسمة باردة أنعشتهم بعد أن أنهكهم القيظ، ومن بين ثنايا أوراق أشجار الحور، الخضر الداكنة والفاتحة، المترامية على غير هدى في أرجاء السهل كان الماء يتألق ببريقٍ مشوبٍ بالبرودة، وكشف النهر الجميل بألقٍ عن صدره الفضي وقد انحنت عليه أغصان الأشجار الكثيفة بغزارة. كان النهر الجامح المتقلّب المزاج - كفتاةٍ حسناء في ساعات الانشراح والحبور، حيث تعكس مرآتها الأمينة اعتزازَها التام بنفسها وجبينَها الوضّاء المبهر وكتفَيْها الزنبقيين وجيدَها المرمري الذي تغشاه موجات من شعرها الأسود المسترسل، عندما تطرح بازدراء بعض الحليّ وتستبدل بها أخرى، ولا حدّ لنزواتها - يغيّر مجراه كل عام تقريباً، ويختار مجرىً جديداً محيطاً نفسه بمناظر

طبيعية جديدة. كانت صفوف من طواحين الماء ترفع بنواعيرها الثقيلة أمواجاً كبيرة من الماء ثم تطرحها على الأرض بقوة ناثرةً الرذاذ والغبار ومحدثةً هديراً عظيماً في المكان. في هذه الأثناء بلغت العربة مع ركّابها الذين بتنا نعرفهم الجسر، وانبسط النهر أمامهم بكل جماله وجلاله كأنه صفيحة من الزجاج. السماء، الغابة الخضراء الزرقاء، الناس، العربات مع الجِرار، الطواحين – بدت كلها تسير منقلبةً رأساً على عقب، دون أن تغوص إلى الأعماق الزرقاء الجميلة. استغرقت فتاتنا الحسناء في تأمل هذا المنظر الخلاّب، وقد سهت عن قضقضة بذور عبّاد الشمس التي كانت منهمكة في قضقضتها طول الطريق، عندما سمعت أحدهم فجأةً يقول: "يا لها من فتاة!". تلفتت الفتاة حولها فرأت حشداً من الشبّان واقفين على الجسر، كان من بينهم واحدٌ متأنّقٌ أكثر من الآخرين، وكان يرتدي سترةً بيضاء ويعتمر قبعةً رمادية من فراء أستراخان، وراح يرمق المارة بجسارة وقد غرز يديه في خاصرتيه. لم يسع الفتاة إلاّ أن تلحظ وجهه الذي لفحته الشمس، لكن الطافح باللطف والعذوبة، وعينيه المتّقدتين اللتين بدتا كأنهما تحاولان النفاذ إلى أعماقها. وإذ خطر لها أنه قد يكون من تلفّظ بتلك الكلمات، غضّت بصرها.

"يا لها من فتاة رائعة!" واصل الشاب ذو السترة البيضاء كلامه وهو لا يحول عينيه عنها. "إنني مستعد لبذل كل ما أملك في سبيل قبلةٍ منها. ولكن ها هو الشيطان يجلس في المقدّمة!".

تعالى الضحك من كل الجهات، لكن زوجة الفلاح المتمهِّل في سيره، ذات الملابس الفاخرة، لم تعجبها هذه التحية، فقد اضطرم خدّاها الأحمران وانهالت على رأس الشاب العربيد بوابلٍ من

الشتائم المنتقاة بعناية:

- ألا فلتُزهق روحك أيها المراكبي السافل! ولتُحطِّم رأس أبيك قِدْرٌ من الفخّار! ألا ليت قدما عدو المسيح الملعون هذا تزلاّن على الجليد، ويحرق الشيطان لحيته في الآخرة!

حملق فيها الشاب، وقد أذهله سيل الشتائم غير المتوقّعة، وقال:

- انظروا كيف تشتم هذه الحيزبون! لقد بلغت المئة من العمر ومع ذلك لا يتورّع لسانها عن التلفّظ بكلمات كهذه.

ردّت العجوز الشمطاء:

- مئة! أيها الكافر النجس، اذهب واستحمّ أولاً أيها الوغد الحقير! أنا لم أرَ أمّك لكنني أعرف أنها قذرة! وأبوك أيضاً قذر! وعمّتك قذرة! مئة! لم يفقس من البيضة بعد ومع ذلك...

وهنا بدأت العربة تنزل عن الجسر وتعذّر سماع الكلمات الأخيرة. لكن يبدو أنّ الشاب لم يكن يريد أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ، ومن دون تروٍّ التقط كتلةً من الروث عن الأرض ورماها في إثرها. كانت الرمية موفَّقة أكثر مما يرتجى لها، فقد لطّخ الروث القبّعة الجديدة المصنوعة من الشيت، فتعالت قهقهة الشبّان الطائشين المعربدين بقوة مضاعفة. غلتْ العجوز البدينة المتأنّقة من الغيظ، لكن العربة كانت قد ابتعدت كثيراً في هذه الأثناء، فصبّتْ جام غضبها على رأس ابنة زوجها البريئة وعلى زوجها البطيء الحركة الذي، وقد ألف ظواهر كهذه منذ زمنٍ بعيد، لزم الصمت بعناد وقابل شقشقة لسان زوجته الغاضبة ببرود وبلاًمبالاة. ورغم ذلك ظلّ لسانها الذي لا يكلّ ولا يملّ يترجرج ويتقلقل في فمها إلى أن بلغت العربة بيت صديقهم وعرّاب ابنتهما، القوزاقي تسيبولا، في ضواحي البلدة. لقاء الأقارب هذا، الذي جرى

بعد فراقٍ طويل، جعلهم ينسون هذا الحادثَ المؤسف إلى حين، لينخرطوا في الحديث عن السوق وليأخذوا قسطاً من الراحة بعد طريقهم الطويلة.

- ٢ -

ما هذا، يا إلهي!
أي شيء لا تجده في تلك السوق!
عجلات، ألواح زجاج، قطران، تبغ،
أحزمة جلدية، بصل، وشتى أنواع البضائع!...
ولو كان في جيبك ثلاثون روبلاً حتى،
فإنك لن تستطيع شراء كل ما في السوق.
(من ملهاة أوكرانية)[١]

لعله حدث وأن تناهى إليكم هديرُ شلالٍ يأتيكم من مكانٍ بعيد، حيث يصطخب في الجوار المضطرب الهديرُ ودوّيُّ أصواتٍ غريبةٍ مبهمة تجتاحكم كإعصار. ألا تتملّككم حقاً تلك المشاعر نفسها في جلبة مهرجان التسوّق في الريف، حين يلتحم الناس جميعاً في كتلةٍ واحدة أشبه بكائنٍ خرافي هائل الحجم يترجرج جيئةً وذهاباً بكاملِ جذعه في الساحة وفي الطرق الضيقة، فيصرخ ويقهقه ويهدر؟ الضجيج، السباب، الخوار، الثغاء، العجيج – هذا كله يختلط في هديرٍ واحد

١ هي مسرحية غوغول الكوميدية "الغشبيم". (م)

غير متناسق. الثيران، الأكياس، الدريس، الغجر، الجِرار، الفلاحات، الكعك، القبعات – كلها بألوان برّاقة زاهية متنافرة، تتأرجح في كومات وتمرّ أمام ناظريك. تطغى الأصوات المختلفة على بعضها بعضاً، فلا يستطيع المرء أن يفهم كلمةً واحدة قد تنجو من هذا الطوفان، وما من صيحة تُفهم بوضوح. تصفيق أيدي الباعة فقط يُسمَع من كل أنحاء السوقٍ. تتحطّم عربة، ويقعقع الحديد، وتدوّي ألواح الخشب الملقاة على الأرض، فيفتل رأس المرء لا يدري إلى أين يلتفت.

كان صاحبنا الفلاح مع ابنته ذات الحاجبين الأسودين يشقّان طريقهما وسط الزحام منذ وقتٍ طويل. دنا الفلاح من إحدى العربات وتحسّس بيده حمل أخرى، وسأل عن الأثمان، لكن أفكاره ظلت تحوم بلا توقف حول أكياس القمح العشرة والفرس العجوز التي جاء بها إلى السوق لبيعها. كان واضحاً على وجه ابنته أنها لا يسعدها كثيراً التجوّل حول العربات المحمّلة بالطحين والقمح. فقد كانت تودّ الذهاب إلى حيث الشرائط الحمر والأقراط المصنوعة من القصدير والصلبان النحاسية والليرات الذهبية المعلّقة بأناقة تحت المظلّات الكتّانية. لكنها هنا أيضاً وجدت الكثير من الأشياء الجديرة بالانتباه، فقد أضحكها إلى أقصى حدّ منظرُ غجريٍّ وفلاّح يضرب واحدهما يد الآخر وهما يصرخان من الألم، وكيف رفس يهوديٌّ ثمل إحدى الفلاحات بركبته، وكيف تشاجرت بائعتا سمك وهما تتبادلان الشتائم وتتقاذفان بسرطانات البحر، وكيف أنّ أحد الروس[1]، بينما

[1] الكلمة هي "موسكال"، وتعني "موسكوفي أو روسي"، وكذلك "سمسار" و"لص"، وكان الأوكرانيون يطلقونها على الروس عموماً من باب السخرية. وكان الروس، بالمقابل، يسمّون الأوكرانيين "خوخلي"، مفردها "خوخول" أي "التيس" =

كان يمسّد بإحدى يديه لحيته المدبّبة، كان باليد الأخرى... ولكنها شعرت في هذه اللحظة أن أحدهم يجذبها من كمّ صدارتها المطرّزة، فالتفتت فإذا بالشاب ذي السترة البيضاء والعينين المشرقتين يقف أمامها، فارتعشت أوصالها وخفق قلبها كما لم يخفق من قبل قط، لا لأي فرحٍ استخفّه ولا لأي حزنٍ ألمّ به، فقد أحسّت بشعورٍ غريبٍ لذيذ، وهي نفسها لم تستطع معرفة ما جرى لها.

قال لها الشاب بصوتٍ خفيض وهو يمسك بيدها:

– لا تخافي يا قلبي، لا تخافي! فلن أقول ما يسوءكِ.

قالت الفتاة في سرّها: "لعلّك حقاً لن تقول ما يسوءني، لكن ثمة شيء غريب يحدث لي... لعله من عمل الشيطان! فأنا أعرف أنّ هذا غير لائق... لكن لا طاقة لي على سحب يدي من يده".

استدار الفلاّح يريد قول شيء لابنته، لكن تناهت إليه عَرَضاً كلمة "قمح"، وعلى الفور جعلته هذه الكلمة السحرية ينضمّ إلى تاجري قمح كانا يتحدثان بصوتٍ عالٍ. وإذ راح يصيخ السمع إلى كلامهما، لم يعد هناك ما يستطيع أنّ يشغله عن ذلك.

هاكم ما كان يقوله التاجران عن القمح.

= بسبب لحاهم الشبيهة بلحية التيس. (م)

– ٣ –

أترى أي فتى هو؟
قلّما تجد مثيلاً له في الدنيا.
فهو يعبّ الفودكا كأنها الجعة!
(كوتليارفسكي، **الإنياذة**)

– فأنت تظن إذن، يا "بلدياتي"[١]، أننا لن نوفَّق في بيع قمحنا؟ قال أحد الرجلين وكان يبدو من مظهره أنه تاجر صغير من أهل الحضر من سكان بلدةٍ ما، وكان يرتدي سروالاً مبرقشاً ملطّخاً بالدهن والقطران، للآخر الذي كان يرتدي سترةً زرقاء تناثرت فيها الرقع ويعلو جبهته ورمٌ كبير.

– لا داعي للظن، وإني على استعداد أن أضع أنشوطةً حول رقبتي وأتدلّى من تلك الشجرة، كما تتدلّى المقانق في الكوخ ليلة عيد الميلاد، إن بعنا مكيالاً واحداً.

اعترض صاحب السروال المبرقش قائلاً:

– من تخادع يا "بلدياتي"؟ إذ ما جاء بالقمح سوانا.

---

١ أي "ابن بلدي" أو "ابن مدينتي، أو قريتي"... (م)

"قل لنفسك ما شئت، فأنا أدّخر عشرة أكياس" قال والد غادتنا الحسناء بينه وبين نفسه دون أن يُفوّت كلمة واحدة من حديث التاجرين.

قال الرجل الذي في جبينه ورم بنبرة ذات دلالة:

– وهذا هو بيت القصيد، وهو أنه حيث تحلّ اللعنة فتوقّع أن تحصل على ما قد تحصله من روسي جائع.

– أي لعنة هذه؟ سأل الرجل ذو السروال المبرقش.

– ألم تسمع ما يتناقله الناس؟ تابع الرجل ذو الورم كلامه وهو يرمقه مواربةً بعينيه الكئيبتين.

– ماذا يقولون؟

– فحوى الأمر أن رئيس البلدية، الذي أسأل الله ألاّ يلحق أن يمسح شفتيه بعد أن يحتسي خمرة النبلاء، قد خصّص لأجلِ السوق موقعاً ملعوناً لا يستطيع فيه المرء بيع حبة قمح واحدة ولو بشقّ النفس. أترى ذاك العنبر القديم المتهالك، القائم هناك في سفح الجبل؟ (هنا اقترب منهما والد غادتنا الحسناء الفضولي أكثر وصار كلّه أذناً مصغية). إن الألاعيب الشيطانية كلها إنما تجري في ذلك العنبر، وما من سوق قامت في هذه البقعة مرّت على خير. وقد مرّ بها كاتب الناحية في ساعة متأخرة من الليلة الماضية، وكان حرياً بك فقط أن تشهد ما جرى. فقد برز له من كوّة النافذة خطم خنزير، وقبع الخنزير بصوتٍ مخيف جعل الدم يتجمّد في عروقه. لذا علينا توقّع ظهور **السترة الحمراء** مرة أخرى!

– وما تكون هذه السترة الحمراء!

هنا وقف شعر رأس مستمعنا النبيه، وتلفّت حوله فزعاً فرأى ابنته

والشاب واقفين بطمأنينة وقد احتضن أحدهما الآخر، وهما يتهامسان بحكايات الغرام، متجاهلين كل ما في الدنيا من سترات. بدّد هذا المشهد هلعه وأعاده إلى سكينته السابقة.

– إيه هيه هيه يا "بلدياتي"، أرى أنك بارع في العِناق! أما أنا فلم أتعلّم كيف أعانق زوجتي المرحومة خفيسكا إلاّ بعد مرور أربعة أيام على زواجنا، وحتى هذا كان الفضل فيه لإشبيني، فهو من أوعز لي خفيةً بذلك.

أدرك الشاب للحال أن والد حبيبته مغفّل بعض الشيء، فأخذ يعدّ خطةً في ذهنه ليكسبه إلى صفّه.

– لعلك، أيها الإنسان الطيب، لم تعرفني، أما أنا فقد عرفتك على الفور.

– أحقاً ما تقول؟

– إن شئت ذكرتُ لك اسمك ولقبك وكل ما يتعلّق بك: اسمك هو سولوبي تشيريفيك.

– هو كذلك، سولوبي تشيريفيك.

– هيا انظر إليّ جيداً: ألم تعرفني؟

– لا، لم أعرفك. لا أقصد الإساءة، لكن لكثرة ما شاهدت من وجوهٍ شتى، حتى الشيطان نفسه يعجز عن تذكّرها كلها!

– يؤسفني أنك لا تذكر ابن غولوبوبنكو[1]!

– أأنت ابن أوخريم؟

---

١ يتلاعب الفتى بالفلاح من خلال هذا التركيب الذي يعني "المؤخرة العارية". (م)

–ومن إذن؟ هذا إن لم أكن ابن ديدكو[1] الأصلع.

وهنا خلع الصديقان قبّعتيهما وراحا يقبّلان أحدهما الآخر. أما صاحبنا ابن غولوبوبنكو فقرّر أن يضرب الحديد وهو حامٍ ويحاصر صديقه الجديد على الفور، فقال:

– إن حقيقة الأمر يا سولوبي هي أنني وابنتك قد أُغرمنا ببعضنا بعضاً، كما ترى، بحيث أننا نريد أن نمضي حياتنا معاً إلى الأبد.

فقال تشيريفيك مخاطباً ابنته وهو يضحك:

– لعلكما حقاً يا باراسكا، أنتِ وهو... تنامان على وسادة واحدة كما يُقال! ماذا؟ هيا صافحني يا زوج ابنتي الجديد، وهلّم قدّم لي كأساً عربون زواجكما!

وألفى الثلاثة أنفسهم في استراحة السوق الشهيرة، وهي خيمةُ يهودية احتشدت بعددٍ كبير من الزجاجات والقناني والقوارير من شتى الأنواع والأحجام.

قال تشيريفيك وقد ثمل قليلاً، إذ رأى صهره الموعود يملأ إبريقاً كبيراً سعته تزيد على ليتر ويجرعه دفعةً واحدة دون أن تطرف عينه، ثم يضربه بالأرض فيهشّمه تهشيماً:

– إيخ، جدع! لهذا أحبك! ما قولك يا باراسكا؟ أي زوج وجدت لك؟ انظري كيف يعبّ الشراب عبّاً!...

ومضى الرجل، وهو يضحك ويترنّح، مع ابنته إلى عربته. أما فتانا فقد اندفع عبر صفّ بسطات أدوات الزينة، وكان فيها تجار حتى من غادياج وميرغورود، وهما مدينتان مشهورتان في إقليم بلطافا،

١ ديدكو الأصلع: اسم عفريت في الحكايات الشعبية الأوكرانية. (م)

واختار أفضلَ غليونٍ من الخشب مزيّناً بإطارٍ نحاسيٍّ أنيق ومنديلاً أحمر مطرّزاً بالزهرٍ وقبّعةً ليقدّمها هدايا في الزّفاف إلى حميّه وإلى كل من ينبغي أن يقدّم إليهم الهدايا.

- ٤ -

إن أراد الرجل شيئاً،
وأرادت الزوجة شيئاً آخر،
فلا بدّ أن تحزر...
(كوتليارفسكي)

- هيه يا امرأة! لقد وجدت زوجاً لابنتي!

- هذا ما كان ينقصنا، البحث عن الأزواج! يا لك من أحمق! الحق أنه مكتوب على جبينك أن تبقى كذلك! هل رأيت أو سمعت بأي إنسان طيب يركض وراء الأزواج؟ كان الأحرى بك أن تفكّر في كيفية التخلّص من القمح الذي بين يديك، ولا شك أنك وجدت زوجاً مليحاً! أعتقد أنه يرتدي الأسمال وأنه من أحقر المعدمين.

- إيه، بل هو شاب مليح حقاً! آه لو رأيتِ أي فتى هو! سترته وحدها أغلى من قفطانك الأخضر وجزمتكِ الحمراء. أما الفودكا فيعبّها عبّاً!... فليأخذنا الشيطان أنا وأنت إن كنتُ رأيت في حياتي كلها شابّاً يعبّ نصف لتر من الفودكا دون أن تطرف له عين!

- آها، ما دام سكّيراً أفّاقاً فهو على مزاجك. وإني أراهن أنه ذاك الوغد نفسه الذي تحرّش بنا على الجسر. كم يحزّ في نفسي أنني لم

أصادفه حتى الآن، لكنت جعلته يعرف قَدْره وقيمته.

– وماذا لو كان هو الشاب نفسه يا خيفريا، فيمَ هو وغد؟

– وي! فيمَ هو وغد! آخ، يا لك من أحمق عديم العقل! هل تسمعون! فيمَ هو وغد! أين كانت عيناك البليدتان حين مررنا بالطواحين! الرجل الذي تُهان زوجته أمام ناظريه وتحت أنفه الملطّخ بالتبغ، رجل كهذا لا لزوم له مطلقاً.

– كفى! فضلاً عن أنني لا أرى فيه أي عيب، فهو فتى لا مثيل له، سوى أنه لطّخ سحنتك القبيحة بالروث.

– يا لك! أرى أنك لا تتركني أقول كلمة واحدة! ما معنى ذلك؟ ماذا دهاك؟ واضح أنك لحقت أن تجرع كأساً قبل أن تبيع شيئاً...

هنا أدرك تشيريفيك أنه قد استرسل في الكلام، فأسرع وغطّى رأسه بيديه، متوقعاً أنّ شريكته الغاضبة ستُنشب، بلا شك، مخالبها الزوجية في شعره، وقال في نفسه متجنّباً انقضاض زوجته العنيف: "اللعنة! هاكم حقيقة الزواج! يتوجّب رفض إنسان طيب دونما عذرٍ أو سبب. رحماك يا الله! لِمَ رميتنا بهذا البلاء نحن الخاطئين؟ كأنما لا يكفي ما في الدنيا من قذارة حتى تخلق لنا النساء أيضاً.

- ٥ -

لا تذوي يا شجرة الدلب،
فما زلتِ خضراء،
ولا تحزن أيها القوزاقي الشجاع،
فما زلت شاباً فتيّاً!

(من أغنية شعبية أوكرانية)

كان الشاب ذو السترة البيضاء يجلس بجوار عربته ويحملق شارد الذهن في الناس الذين كانوا يصخبون من حوله. كانت الشمس المتعبة على وشك الغروب بعد أن ظلت تطوف بهدوء في السماء في الصباح والظهيرة، وكان النهار المنطفئ يتورّد بنورٍ أحمرَ ساطعٍ يخلب الألباب. لمعت أسطح المظلات والخيام البيض بأضواء مبهرة، وقد ظلّلها لونٌ ورديٌّ - ناريٌّ باهت. كانت ألواح الزجاج المكدّسة في النوافذ تتألّق، وكانت الأقداح والقناني الخضر في خيام بيع الخمور تومض كالنار، وبدت تلال اليقطين والبطيخ والقرع كأنها من الذهب والنحاس الأحمر الداكن. خفّت الجلبة بشكل ملحوظ وصارت الأحاديث أندر والأصوات أخفض، وثقلت ألسنة الباعة الجوّالين والفلاحين والغجر، وبدأت الأنوار تتلألأ هنا وهناك، وانتشرت رائحة

بخار الزلابيّة اللذيذة في الطرقات الهاجعة.

صاح غجريٌّ طويل القامة لفحته الشمس بغريتسكو وهو يضربه على كتفه:

– ما الذي يحزنك يا غريتسكو؟ هيا، بِعْ لي ثيرانك بعشرين روبلاً.

–إن حياتكم كلها ثيران في ثيران. لا شغل لعشيرتكم سوى الطمع والكسب. تغشون الناس الطيبين وتخدعونهم.

– تفو، اللعنة! مالك منزعج هكذا. أم تُراك متضايقٌ لأنك ربطت نفسك بفتاة؟

– كلا، هذا ليس من خلقي، فأنا أحفظ عهدي، وما دمت قد أعطيت كلمتي فسألتزم بها إلى الأبد. أما هذا الشيخ المأفون تشيريفيك فمن الواضح أن ليس لديه ما يساوي نصف كوبيك من الضمير، فقد نكث بالوعد الذي قطعه لي... ولكن لا يمكنني لومه، فهو ليس سوى "لوح" أبله. هذا كله من أحابيل تلك الحيزبون التي "بهدلناها"، أنا والشباب، اليوم على الجسر شرّ "بهدلة"! أخ لو كنت القيصر أو نبيلاً عظيماً، لكان أول شيء أفعله هو أن أشنق كل أولئك الحمقى الذين يُسلمون قيادهم للنساء...

– وهل تبيعنا الثيران بعشرين روبلاً إذا أرغمنا تشيريفيك على تزويجك باراسكا؟

حملق فيه غريتسكو في ذهولٍ وحيرة. ففي ملامح الغجري السمراء كان هناك شيء ما شرير، لئيم، منحطّ، إلى جانب الغطرسة والكبر، وكل من ينظر إليه لا بدّ أن يقرّ بأنّ في هذه النفس الغريبة العجيبة خصالاً عظيمة ليس لها سوى مكافأة وحيدة على هذه الأرض: المشنقة! فم الرجل، الغائر تماماً بين أنفه ولحيته الحادّة، تعلوه دائماً

ابتسامة ساخرة، لكن عينيه الحيويتين المتقدتين كالنار، وبروق النوايا الخبيثة والمقاصد السيئة التي تومض على وجهه بلا توقف: يبدو أن هذا كلّه كان يستوجب زيّاً مميّزاً وغريباً يتماشى مع ذلك، تماماً كالذي كان يرتديه آنذاك. سترته الطويلة البنية الغامقة التي يخال المرء أنها ستستحيل تراباً إذا ما لمسها، وشعره الأسود المسترسل على كتفيه في جدائل ليفيّة خشنة، وحذاؤه الذي ينتعله في قدميه العاريتين اللتين لفحتهما الشمس - هذا كله بدا كأنما اندمج وصار جزءاً من طبيعته.

أجاب الشاب وهو لا يحول عنه عينيه المتفحصتين:

- سأبيعك إياها بخمسة عشر روبلاً لا بعشرين، لكن فقط لا تخدعني!

- بخمسة عشر؟ حسناً! لكن إياك أن تنسى: بخمسة عشر! هاك خمسة روبلات كعربون!

- وإن خدعتني؟

- إن خدعتك، العربون لك!

- حسناً، فلنتصافح!

- هيّا!

- ٦ -

يا للهول، ها هو زوجي رومان آتٍ،
ولسوف يحطّم ضلوعي.
وأنت أيضاً، يا سيد فوما، ستنال نصيبك.
(من مسرحية غوغول الكوميدية "الغشيم")

- من هنا يا أفاناسي إيفانوفيتش، فالسياج أوطأ هنا. ارفع قدمك، لا تخف، فقد مضى زوجي الأحمق مع عرّاب ابنته يقضيان ليلتهما نائمين تحت العربة حتى يطمئنّا أنّ الموسكوفيين لن يسرقوا شيئاً.

على هذا النحو أخذت زوجة تشيريفيك الشرسة تشجّع برقّة ابن القسّ الملتصق بالسياج في جبنٍ وهلع، فأسرع يتسلّق السياج وظلّ فوقه حائراً متردّداً مدةً طويلة، كأنه شبحٌ طويلٌ مخيف، باحثاً بنظره عن أفضل موضع يقفز إليه، وأخيراً هوى في جلبة على الحشائش الطفيلية الطويلة.

غمغمت خيفريا مهمومة:

- يا للهول! أرجو ألاّ تكون أُصبت. ألم تدقّ عنقك، حماك الله؟

قال ابن القس هامساً متوجّعاً وهو يقف على قدميه:

- صه! أنا بخير يا خافرونيا نيكيفوروفنا العزيزة، اللّهم إلا قرص

القرّيص، تلك الحشائش الطفيلية الشبيهة بالأفاعي، وفق تعبير قمصنا الراحل.

– هيا ندخل البيت الآن، فليس فيه أحد. أما أنا فقد بدأت أظن أنّ مرضاً قد ألمّ بك أو أنك هجعت للنوم، لكن لا لا. كيف حالك؟ سمعت أنّ أباك المبجّل قد وفّق في أعماله من شتى النواحي في الآونة الأخيرة!

– مجرّد ترّهات يا خافرونيا نيكيفوروفنا، فهو لم يتلقَّ طوال أيام الصيام سوى قرابة خمسة عشر كيساً من الطحين وأربعة أكياس من الدخن وحوالي مئة رغيف. أما الدجاج فأقل من خمسين، والبيض معظمه كان فاسداً.

ثم أردف وهو ينظر إليها بحنان متملقاً ويدنو منها:

– لكن العطايا اللذيذة حقاً لا يمكن توقّع الحصول عليها إلاّ منكِ أنتِ يا خافرونيا نيكيفوروفنا!

فقالت وهي تضع الصِحاف على الطاولة وتزرّر أزرار قفطانها وكأنها لم تفكّها عمداً:

– هاك هذه العطايا يا أفاناسي إيفانوفيتش: فطائر باللبن المختّر، لقيمات قاضٍ معدّة من القمح، قطائف وكعك!

قال ابن القس وهو يلتهم الكعك ويسحب إليه الفطائر باليد الأخرى:

– أراهن أنها من صنع أمهر يدين من أيدي بنات حواء، بيد أن قلبي، يا خافرونيا نيكيفوروفنا، يتوق إلى ما هو أشهى من كل القطائف ولقيمات القاضي.

ردّت الحسناء المكتنزة متصنّعةً عدم الفهم:

– لا أدري حقاً أية أطايب أخرى تشتهي يا أفاناسي إيفانوفيتش.

همس ابن القس وهو يمسك فطيرة بإحدى يديه ويطوّق خصرها المكتنز بيده الأخرى:

- حبك طبعاً يا خافرونيا نيكيفوروفنا الفريدة بين النساء.

قالت خيفريا وهي تغضّ بصرها في خجلٍ وحياء:

- الله أعلم ماذا تقصد يا أفاناسي إيفانوفيتش! أخشى أنك ربما تفكّر في تقبيلي حتى!

فاسترسل ابن القس يقول:

- بخصوص ذلك دعيني أخبركِ أنني عندما كنت أدرس في الكليّة الدينية، وإني لأذكر ذلك كأنما يحدث الآن...

وهنا تناهى إليهما من فناء الدار نباح كلب وقرع على الباب، فهرعت خيفريا إلى الخارج وعادت وقد امتقع لونها تماماً.

- لقد افتضح أمرنا يا أفاناسي إيفانوفيتش، فهناك حشدٌ من الناس يقرعون الباب، ويخيّل إليّ أنني سمعت صوت تسيبولا...

غصّ ابن القس بالفطيرة التي توقفت في حلقه، وجحظت عيناه كما لو أنه تراءى له ملاك الموت جاء يزوره من العالم الآخر.

صرخت خيفريا في فزع مشيرةً إلى رفٍّ عريض مؤلّف من لوحين من الخشب متوضّع أسفل السقف تماماً تكدّست عليه شتّى الأغراض المنزلية:

- تسلّق إلى هناك!

شدّ الخطر المحدق من عزيمة بطلنا، وبعد شيءٍ من التردّد قفز فوق الموقد ومن هناك تسلّق بحذر إلى حيث اللوحان الخشبيان. أما خيفريا فقد هرعت هلعةً تفتح الباب الذي كان الطرق عليه يزداد بمزيدٍ من القوة والإلحاح.

- ٧ -

ها هنا، يا سادة، تحدث الأعاجيب الحقيقية!
(من مسرحية غوغول الكوميدية "الغشيم")

لقد وقع في السوق حادثٌ غريب، فقد ترددت في أرجاء السوق كلها شائعات بأنّ "السترة الحمراء" شوهدت في مكانٍ ما بين السلع والبضائع. فقد خيّل لامرأة عجوز، تبيع خبز التنّور، أنها رأت الشيطان في هيئة خنزير ينحني بلا توقف على العربات كأنما يبحث عن شيءٍ ما. وسرعان ما انتشر هذا الخبر في كل أطراف المخيم الذي كان قد ران عليه الهدوء، واعتبر الجميع أن عدم تصديق الخبر يعدّ جريمة، رغم أن العجوز، التي كانت "بسطتها" تجاور خيمة بيع المشروبات الكحولية، كانت طول اليوم تنحني مسلّمةً بسبب ودون سبب وترسم بقدميها دوائر شبيهة بأرغفة الخبز التي تبيعها[١]. وأُضيفت إلى ذلك أيضاً أنباء مبالغ فيها عن أعجوبة شاهدها كاتب الناحية في العنبر المتهدّم، الأمر الذي جعل الجميع يلتصقون ببعضهم بعضاً أكثر فأكثر عندما حلّ الليل، حيث خيّم عليهم الهلع وحرمهم

١ يقصد غوغول أنها كانت ثملة. (م)

الخوف إغماض أعينهم. أما أولئك الذين تنقصهم رباطة الجأش، وكانوا قد اتّخذوا لأنفسهم مضجعاً في الأكواخ يرقدون فيه ليلاً، فقد غادروا إلى بيوتهم. وكان في عداد الأخيرين تشيريفيك وابنته وعرّاب ابنته تسيبولا، وهؤلاء، يرافقهم بعض الذين عزموا أنفسهم بأنفسهم ليحلّوا ضيوفاً على تشيريفيك، هم الذين كانوا يقرعون الباب بقوة أثارت هلع صاحبتنا خيفريا. كانت الخمر قد لعبت برأس تسيبولا بعض الشيء، وقد ظهر ذلك من أنه عبر فناء البيت مرتين قبل أن يعثر عليه. والضيوف أيضاً كانوا في مزاج مرح ودخلوا الكوخ بلا تكلّف، حتى قبل صاحب البيت. أما زوجةُ صاحبنا تشيريفيك فكانت كأنما تجلس على إبرٍ تخزها حين بدأ الضيوف ينقّبون في كل زوايا الكوخ.

صاح تسيبولا حين دخل الكوخ:

– ما بك ترتجفين هكذا يا قريبتي، أما زلتِ محمومة؟

أجابت خيفريا وهي تختلس النظر بقلق إلى الألواح فوق رأسها:

– نعم، لم أُشفَ بعد.

فقال تسيبولا لزوجته التي جاءت برفقته:

– هلمّي، يا زوجتي، واجلبي لنا القنينة من العربة لأشربها مع هؤلاء الناس الطيبين، فتلك النسوة اللعينات أفزعننا فزعاً يخجل المرء من ذِكره.

ثم أردف وهو يرتشف من إبريق الفخار:

– فنحن، والله يا أصحاب، إنما جئنا هنا لسببٍ تافه! وإني مستعدّ لحلق شواربي إن لم تكن النساء نوينَ السخرية منّاً. وحتى لو كان هو الشيطان نفسه فعلاً، فمن يكون الشيطان؟ ابصقوا على رأسه! ولو عنّ له أن يمثل أمامي هنا في هذه اللحظة، فلأكن ابن كلب إن لم أجعله

ينل نصيبه بلكمةٍ على أنفه!

صاح أحد الضِيوف، وكان أطول قامةً من الجميع ويحرص دائماً على الظهور بمظهر الشجاع الجريء:

-فلمَ إذن علا وجهك كل هذا الشحوب فجأةً؟

- أنا؟... الله يسامحك! لا شك أنك تحلم.

ضحك الضيوف، ولاحت ابتسامة رضا على وجه البطل المفوَّه، واستلم شخص آخر دفّة الحديث:

- أي شحوبٍ هذا! فخدّاه متورّدتان كنبتة الخشخاش! إنه ليس تسيبولا الآن، بل شمندر، أو قل "السترة الحمراء" التي أفزعت الناس على هذا النحو.

دارت القنينة على الضيوف الجالسين حول الطاولة وجعلتهم أشد مرحاً من قبل. وهنا، صاحبنا تشيريفيك، الذي كانت "السترة الحمراء" تقضّ مضجعه ولا تعطي روحه الفضولية لحظة سكينة واحدة، أخذ يلحف على إشبينه بالسؤال:

- قل لي، من فضلك، يا إشبيني، ما قصة "السترة الحمراء" هذه، فمهما سألت عن ذلك لا أظفر بجواب.

- إيه يا قريبي، لا يجوز سرد هذه القصة في الليل، غير أنني، من أجل إرضاء فضولك وفضول هؤلاء الناس الطيبين (وهنا التفت إلى الضيوف)، الذين أعزّهم كما أعزّك، لمعرفة حكاية هذه الأعجوبة، سأحكيها لكم، فاسمعوا!

ثم حكّ كتفيه ومسح العرق عن جبينه، ووضع كلتا يديه على الطاولة، وشرع يقول:

- يحكى أنّ شيطاناً تمّ طرده من الجحيم لقاء ذنبٍ اقترفه، الله

وحده يعلم ما هو.

قاطعه تشريفيك قائلاً:

- كيف ذلك يا قريبي؟ كيف يُعقل أن يُطرد شيطان من الجحيم؟

- وماذا يمكنك أن تفعل يا قريبي؟ نعم طردوه، طردوه كما يطرد فلاح كلباً من كوخه. لعلّه، لرعونةٍ فيه، قرر القيام بعملٍ صالح، فدلّوه على الباب. وهكذا استبدّ الحنينُ بالشيطان المسكين، الحنين إلى الجحيم، حتى هان عليه أن يشنق نفسه. لكن لم يكن في اليد حيلة، وهكذا راح يروّح عن نفسه بالسَّكَر لشدة حزنه، وأغلق على نفسه في ذلك العنبر المتهدّم الذي رأيتموه أسفل التلّة، والذي لا يمرّ به أي إنسانٍ صالح دون أن يرسم علامة الصليب المقدّسة، وصار الشيطان سكّيراً فاجراً لا تجد مثيلاً له حتى بين الشبّان، وراح يقضي نهاره كله، من الصباح إلى المساء، في الخمّارة!...

هنا قاطع تشيريفيك الصارم حكواتينا ثانيةً:

- الله أعلم بمَ تقول يا قريبي! إذ كيف يُعقل أن يسمح أيٌّ كان بدخول الشيطان إلى خمّارة؟ فلديه، والعياذ بالله، مخالب في قوائمه وقرون على رأسه.

- ذلك أنه كان يعتمر قبّعةً ويرتدي قفازين، فمن سيعرفه؟ وهكذا ظل يشرب ويشرب حتى شرب بكل ما كان يملك من مال. وقد وثق به صاحب الخمّارة فظلّ يقرضه مدةً طويلة، لكنه أمسك عن ذلك فيما بعد، فاضطر الشيطان إلى رهن سترته الحمراء بأقل من ثلث قيمتها عند يهوديٍّ كان خمّاراً آنذاك في سوق سوروتشينتسي، وحين رهنها قال له: "اسمع أيها اليهودي، سأعود لاسترداد السترة بعد مرور عام بالتمام والكمال، فاحرص عليها!" واختفى كفصّ ملحٍ ذاب في الماء.

تفحّص اليهودي السترة جيداً: كان قماشها من الجودة بحيث أنك لا تجد مثيلاً له حتى في ميرغورود! ولونها الأحمر يتوهّج كالنار فلا تملّ النظر إليه! وهكذا بدت لليهودي المدة المتفق عليها طويلة وأنه لا يطيق الانتظار، فحكّ رأسه وأخيراً باعها لملاّك عابر ليس بأقل من خمسين روبلاً. ومرّت الأيام ونسي اليهودي المدة المتّفق عليها، وذات يوم، قبيل الغروب، دخل عليه رجل وقال له: "هيا أيها اليهودي، أعطني سترتي!" لم يتعرّفه اليهودي في البداية، لكنه بعد أن أنعم فيه النظر تظاهر بأنه لم تقع عليه عيناه قط وصاح قائلاً: "أي سترة؟ لا توجد عندي أي سترة، ولا أعرف شيئاً من أمر سترتك!" فرمقه ذاك وغادر، غير أنه في المساء، بعد أن أقفل اليهودي باب كوخه الحقير وراح يعدّ نقوده في الصناديق، وألقى ملاءةً على كتفيه وأخذ يصلّي باليديشية، إذا به يسمع خشخشة... نظر وإذا بخنازير تدسّ خطومها في النوافذ كلها...

في هذه اللحظة تناهى إليهم بالفعل صوت غير مفهوم يشبه كثيراً قباع الخنازير، فامتقع الجميع وأخذ العرق يتصبّب على وجه الحكواتي.

نَبَسَ تشيريفيك في فزع:

– ما هذا؟

أجاب تسيبولا وهو يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه:

– لا شيء!...

– صه! ردّ أحد الضيوف.

– هل قلت شيئاً؟...

– لا!

– فمن الذي يقبع إذن؟

– الله يعلم ماذا دهانا! إذ ما من أحد سوانا!

أخذ الجميع يتلفّتون حولهم في فزع وراحوا يفتشون في الزوايا، أما خيفريا فكانت بين الحياة والموت، وقالت بصوت عالٍ:

– يا لكم! لستم سوى نساء! أفأنتم تستحقون أنً تكونًوا قوزاقاً وأزواجاً! الأحرى بكم أن تغزلوا بالمغازل وتندفوا الصوف بالأمشاط! لعلّ أحدكم، رحماك يا ربي... قرقع المقعد الذي يجلس عليه، فإذا بكم جميعاً تفقدون عقولكم.

أخجل كلام خيفريا أبطالنا الميامين وأعاد إليهم صوابهم. ارتشف تسيبولا رشفةً من الإبريق وواصل سرد حكايته:

– أغمي على اليهودي من الخوف، بيد أن الخنازير تسلّقت عبر النوافذ بقوائمها الطويلة وفي لحظة أعادت اليهودي إلى رشده بجلده بسياط مجدولة جعلته يقفز أعلى من هذه الروافد. أكبّ اليهودي على أقدام الخنازير يلثمها واعترف بكل شيء... إلاّ أنّ استرداد السترة كان قد صار بعيد المنال، فقد سرقها أحد الغجر من المَلاّك في الطريق وباعها لامرأة سمسارة، وتلك جاءت بها مرة أخرى إلى سوق سوروتشينتسي، لكًن منذ ذلك الوقت لم يعد أحد يشتري منها شيئاً، الأمر الذي أثار استغرابها، إلاّ أنها في النهاية أدركت سبب ذلك، فمن الواضح أن السبب في بوار تجارتها هو السترة الحمراء، ولا عجب أنها كانت تشعر بالاختناق حين ترتديها، ومن دون طول تفكير أو تأمل ألقت بها في النار، لكن السترة الشيطانية لم تحترق! "آها، إنها هدية من الشيطان!" قالت السمسارة في سرّها ودسّتها في عربة فلاّح جاء بسمنٍ يبيعه في السوق. فرح الفلاح الأحمق بالسترة،

لكنّ أحداً لم يسأل عن سعر سمنه ولو مجرّد سؤال. "آها، لا شك أنّ أيادي شريرة ألقت بهذه السترة في عربتي!" وتناول فأسه ومزّقها إرباً إرباً، وإذ بقطع السترة تلتحم مع بعضها بعضاً لتعود سليمةً كما كانت. رسم الفلاّح علامة الصليب وانهال بفأسه على السترة ثانيةً ثم نثر القطع في أرجاء المكان ورحل. ومنذ ذلك الحين، كل عام، وكلما أُقيمت السوق، يجول الشيطان في هيئة خنزير في الساحة كلها، يقبع ويجمع قطع سترته. ويقال إن السترة لم يعد ينقصها سوى الردن الأيسر، ومذذاك والناس يتجنّبون ذاك المكان، وها قد مرّت قرابة عشر سنوات منذ أن أُقيمت فيه السوق. ناهيكم عن أن الشيطان قد جَمَّل لمدير الناحية أنّ...

وجمدت بقية العبارة على شفتي الحكواتي... فقد قرقعت النوافذ بدوّيٍ وطارت ألواح الزجاج برنين، وأطلّ من النافذة وجه خنزير بسحنته المخيفة، وأخذ يدير عينيه كأنما يسأل القوم: "ماذا تفعلون هنا أيها الناس الطيبون؟".

— ٨ —

لاوياً ذيله كالكلب،
مرتعشاً من رأسه حتى أخمص قدميه كقايين،
كان التبغ[١] يسيل من أنفه.
(كوتلياريفسكي، **الإنيادة**)

جَمَّدَ الهلع كل الموجودين في الكوخ، واستحال تسيبولا حجراً وقد فغر فاه، وجحظت عيناه كأنهما رصاصتان تريدان الانطلاق، وجمدت أصابعه الممدودة في الهواء بلا حراك. وقفز الرجل المقدام الفارع الطول بهلعٍ لا مثيل له في الهواء فارتطم رأسه بالرافدة الخشبية، فتزحزحت الألواحُ من مكانها وهوى ابن القس إلى الأرض بدويٍّ وقعقعة. وهوى أحد الحضور على إحدى الأرائك، بحيث تأرجحت يداه ورجلاه في الهواء، صارخاً في يأس: "آي! آي! آي!"، وصاح آخر مغطّياً رأسه بفروةٍ من صوف الغنم: "النجدة!". تسيبولا، الذي حرّره هلعه الثاني من تحجّره، زحف مرتجف الأوصال واختفى تحت ذيل ثوب زوجته. وانسلّ المقدام الطويل القامة إلى داخل

١ هكذا وردت في الأصل. (م)

الموقد، رغم ضيق كوّته، وأغلق على نفسه. أما تشيريفيك فاندفع إلى الباب كمن سُكب عليه ماءٌ ساخن، ملتقطاً في طريقه قدراً بدلاً من قبعته واعتمرها، وراح يجري في الطرقات فاقداً صوابه لا يرى الأرض تحت قدميه، ولم يخفف من سرعته إلا بعد أن شعر بالتعب. كان قلبه يدقّ كحجر الرحى، وكان يتصبّب عرقاً، ولشدّة ما ناله من التعب والإنهاك كان يوشك أن يقع على الأرض، حين خُيِّل إليه فجأةً أنّ ثمة من يطارده، فصرخ خائر القوى وقد فقد صوابه: "الشيطان! الشيطان!" وهوى على الأرض مغشيّاً عليه، وانبعثت صيحة في إثره: "الشيطان! الشيطان!" ولم يشعر إلا بشيءٍ ما يقع فوقه مدوِّياً، وهنا فقد وعيه تماماً وانطرح على الأرض أخرسَ بلا حراك كجثةٍ مسجّاة في نعشٍ ضيّق.

- ٩ -

من الأمام كذا ومذا،

ومن الخلف، يا لطيف! كالشيطان![1]

(من حكاية شعبية)

نهض واحدٌ من حشد الناس النائمين في العراء وقال:

- أسمعت يا فلاس؟ لقد ذكر أحدهم الشيطان على مقربة منا!

فغمغم غجري كان مستلقياً إلى جواره وهو يتمطّى:

- وما شأني بذلك؟ فليذكر حتى أقرباءه وأنسباءه جميعاً.

- لكنه كان يصرخ كأنما أحدهم يخنقه!

- إن المرء ليهرف بأي شيء في نومه!

- كما تشاء، لكنْ لنلقِ نظرة على الأقل. هيا، اِقْدَح النار![2]

انتصب غجريٌّ آخر على قدميه، وهو يدمدم بينه وبين نفسه، وقدَحَ شرارات مرتين، كأنها البرق، ونفخ في القُدّاح بشفتيه، ثم حمل "الكاجانتس"، وهو القنديل الأوكراني العادي المصنوع من

١ لعل المثل الشعبي الذي يشبهه عندنا هو: "من برّا رخام، ومن جوّا سخام". (م)

٢ أي اضرب حجر الصوان بالقدّاح، لإشعال القنديل. (م)

جرة مكسورة ممتلئة بدهن الضأن، وسار مضيئاً الطريق.

- مهلاً! ثمة من يرقد هنا. سلّط الضوء على هذا المكان.

وهنا انضم إليهما بعض الأشخاص الآخرين.

- ما الذي يرقد هنا يا فلاس؟

- يبدو أنهما شخصان، أحدهما فوق الآخر، لكن أيّهما الشيطان، لا أعرف!

- من الذي فوق؟

- امرأة!

- هذه هي، إنها هي الشيطان!

تعالى ضحك الجميع حتى أيقظوا الشارع كله تقريباً.

قال واحد من الحشد المتجمهر:

- امرأة تعتلي رجلاً، إنها حقاً تعرف كيف تمتطي.

وقال آخر وهو يرفع قطعةً مكسورة من القدر التي لم يكن قد بقي على رأس تشريفيك سوى نصفها:

- انظروا يا إخوان! انظروا أي قبعة يرتديها هذا الهُمام الطيب!

أيقظت الجلبة والضحكات المتعالية صاحبينا الميتين، سولوبي وزوجته، اللذين، وقد استبدّ بهما الفزع، راحا يحملقان بهلع في وجوه الغجر التي بدت في الضوء الخافت الراعش كوجوه عشيرة من العفاريت الأقزام تحيط بها هالة من دخان الجحيم الكثيف في عتمة ليلةٍ حالكة الظلام.

- ١٠ -

أعوذ بالله منك، وتباً لك،
أيها الوسواس الخنّاس!
(من ملهاة أوكرانية)

هبّ نسيم الصباح العليل على أهل سوروتشينتسي الذين أخذوا يستيقظون، وبدأت أعمدة الدخان تتصاعد من المداخن كلها لملاقاة الشمس، وتعالى صخب السوق: الأغنام تثغو، والجياد وتصهل، ومن جديد ملأت وقوقة الإوز وصيحات النساء البائعات أرجاء السوق كلها. ومع انبلاج الصبح اختفت الأقاويل والشائعات المرعبة عن السترة الحمراء، التي أثارت فزعاً لا مثيل له بين الناس في ساعات الليل الحافلة بالغموض والأسرار.

كان تشيريفيك يغالب النوم، وهو يتمطّى ويتثاءب، على القش في عنبر قريبه تسيبولا، بين الثيران وأكياس الدقيق والقمح، ويبدو أنه لم يكن يرغب في مفارقة أحلامه، حين سمع فجأةً صوتاً أليفاً بالنسبة إليه ألفة ملجأ كسله - الموقد المبارك في كوخه، أو حانة قريبته التي لا تبعد أكثر من عشر خطوات عن عتبة باب بيته.

أخذت زوجته اللطيفة تهزّه جاذبةً يده بكل قوتها وهي تصيح في أذنه:

– هيا انهض، انهض!
بدلاً من الجواب نفخ تشيريفيك خدّيه وراح يلوّح بيديه كمن يقرع طبلاً.
صاحت الزوجة متحاشيةً يديه اللتين كادتا تصفعانها على وجهها:
– مجنون!
– فليأخذني الشيطان إن لم أكن في أعماقي قد تخيّلت أن وجهكِ طبل أُجبرت على قرعه في الفجر، كما يفعل الموسكوفي، من قِبَل تلك الخنازير التي كما يقول قريبي تسيبولا...
– كفى، كفاك هراءً! هيّا قم بسرعة وخذ الفرس لبيعها. لقد صرنا مسخرة للناس. جئنا إلى السوق ولم نبع ولو كمشة من القنّب...
أمّن سولوبي على كلامها قائلاً:
– وكيف لا يا امرأة، طبعاً سيضحكون منا الآن!
– هيّا، هيّا! فهم حتى من دون ذلك يضحكون منك!
تابع تشيريفيك يقول وهو يتثاءب ويحكّ ظهره محاولاً، على الأرجح، كسب الوقت لأجل كسله:
– لكنك ترين أنني لم أغتسل بعد.
– ما أنسبه من وقت تنشغل فيه بالنظافة! منذ متى تهتم بالنظافة؟ هاك منشفة، امسح بها سحنتك...
وهنا التقطت شيئاً كان مكوّماً على الأرض، وفي الحال ألقته من يدها في هلع، فقد كان طرف كمّ "السترة الحمراء"! وعندما رأت أن زوجها قد شلّ الفزع حركته وأخذت أسنانه تصطك، استعادت رباطة جأشها وعادت تقول:
– هيا، امضِ إلى عملك!

حلّ تشيريفيك زمام فرسه وساقها إلى السوق وهو يغمغم بينه وبين نفسه:

– يا للتوفيق الذي سنلقاه في البيع الآن! لا عجب أنّ همّاً ثقيلاً جثم على قلبي حين كنت أتهيّأ لهذه السوق اللعينة كأنّما أحدهم ألقى عليّ ببقرةٍ نافقة. كما أنّ الثيران أيضاً حاولت العودة أدراجها إلى البيت مرّتين من تلقاء نفسها. وإني أذكر الآن أننا ما إن شرعنا في المسير يوم الاثنين حتى ساءت الأمور كلها!... لجوجٌ هذا الشيطان اللعين، إذ كان بإمكانه ارتداء سترته ولو بكمٍّ واحد، ولكن لا، لا بدّ من إقلاق راحة الناس الطيبين. فلو كنت الشيطان – والعياذ بالله – أكنت أجرجر قدمَيّ ليلاً بحثاً عن خِرَق لعينة؟

في هذه اللحظة قطع صوتٌ غليظ حاد تفلسف صاحبنا تشيريفيك، وانتصب أمامه غجريٌّ طويل القامة.

– ماذا تبيع أيها الإنسان الطيب؟

لزم تشيريفيك الصمت ونظر إلى الغجري من رأسه إلى قدميه ثم قال هادئ الملامح ودون أن يتوقف أو يفلت زمام الفرس:

– إنك ترى بنفسك ما أبيع!

سأل الغجري ناظراً إلى اللجام في يده:

– اللجام؟

– نعم، اللجام، هذا إن كانت الفرس تشبه اللجام.

– لكن يا "بلدياتي"، اللعنة، يبدو أنك كنت تعلفها قشّاً!

– قشّاً؟

عندئذٍ أراد تشيريفيك أن يجرّ الفرس إلى الأمام ليفضح كذب هذا المفترِي الصفيق، إلا أنه حين سحب عنان الفرس تحركت بخفة

عجيبة ولطمت ذقنه. التفت تشيريفيك وإذا في يده عنان مقطوع وقد رُبطت به – يا للهول! وقف شعر رأسه! – قطعةٌ من كُمّ "السترة الحمراء"!... فبصق وهو يرسم علامة الصليب ملوِّحاً بيده وراح يجري بسرعة شابٍّ في مقتبل العمر من هذه الهدية غير المتوقعة، واختفى وسط حشد الناس.

- ١١ -

"فوق حقّو دُقّو"
(مثل شعبي)[١]

صاح بعض الغلمان في آخر الشارع الضيق: "أمسكوه، أمسكوه!"، وأحسّ تشيريفيك بأيدٍ قوية تمسك به فجأةً.

- قيّدوه! فقد سرق من رجلٍ طيب فرسه.

- بالله عليكم، علامَ تقيدونني؟

- ويسأل فوق ذلك! ولِمَ سرقت فرس ذاك الفلاح الغريب تشيريفيك؟

- لقد فقدتم عقولكم يا "جدعان"! فهل سمع أحد قط برجلٍ يسرق نفسه؟

- هذه ألاعيب قديمة! ألاعيب قديمة! فلمَ إذن كنت تجري بأقصى سرعتك كأنما الشيطان نفسه يطاردك؟

- إنّ المرء ليجري لاشعورياً عندما رداء الشيطان...

- إيه أيها العزيز! هذه الكذبة قد تنطلي على غيرنا، وسوف تنال

١ الترجمة الحرفية للمنقول الأوكراني: "ضربوني على سرقة غلالي"، والمثل الشامي أعلاه يعني: "لا يكفي أنّ حقه هُضم، بل وضُرب فوق ذلك". (م)

نصيبك من القاضي أيضاً حتى تكفّ عن ترويع الناس بحكايات عن الشيطان.

وتناهت صيحة من الطرف الآخر للشارع:

- أمسكه، أمسك هذا الذي يهرب، ها هو!

ومثل أمام عيني صاحبنا تشيريفيك قريبه تسيبولا في حالٍ تثير الشفقة، يقتاده بعض الشبّان وقد رُبطت يداه وراء ظهره.

قال واحد منهم:

- ثمّة أمور عجيبة تحدث! وحسبكم أن تسمعوا ما يقوله هذا المحتال الذي بمجرّد النظر إلى وجهه يتبيّن المرء أنه لصّ. وحين سألناه عن سبب ركضه كمن فقد عقله، قال إنه حين دسّ يده في يده ليتناول سعوطاً يتنشّقه إذا به، بدلاً من علبة سعوطه، يُخرج قطعة من "السترة" الشيطانية اندلع منها لهبٌ أحمر، فانطلق يعدو "ويا روح ما بعدك روح"!

- إي هيه هيه، هذان العصفوران خرجا من نفس العشّ! فلنقيّدهما معاً!

- ١٢ -

"قال صاحبنا الشقي: بمَ أذنبتُ في حقكم
أيها الناس الطيبون؟ علامَ تهزأون بي؟
وماذا فعلت حتى تسيئوا إليّ على هذا النحو؟
لأجل ماذا، لأجل ماذا؟
وانهمرت الدموع من عينيه سيولاً، دموعٌ حرّى،
وقد أمسك بخاصرتيه."
(أرتيوموفسكي - غُولاك، "السيّد والكلب")

سأل تشيريفيك الذي يرقد مقيّداً مع قريبه تسيبولا في كوخٍ مسقوفٍ بالقش:

- لعلك مددت يدك فعلاً إلى شيء ما يا قريبي؟

- حتى أنت يا قريبي! فلتُشلّ يداي ورجلاي إن كنت سرقت شيئاً يوماً، اللهم إلا كعكات بالقشدة من أمي، فضلاً عن أنّ هذا حدث عندما كنت في العاشرة من العمر.

- لِمَ إذن حلّ بنا هذا البلاء يا قريبي؟ لكن مصيبتك أهون من مصيبتي، فقد اتُّهمتَ بسرقة غيرك على الأقل، ولكن ماذا فعلت أنا الشقي حتى يُفترى عليّ بهذه الفريّة الخبيثة، بأني سرقت فرسي من

نفسي؟ يبدو أننا، يا قريبي، قد كُتب علينا الشقاء من يوم ولادتنا!

– يا لشقائنا، نحن اليتامى المساكين!

وهنا شرع كلا القريبين يبكيان بكاءً مرّاً وهما ينشجان.

في هذه الأثناء دخل غريتسكو الكوخ وقال:

– ما بك يا سولوبي؟ ومن قيّدك هكذا؟

صاح سولوبي الذي أحسّ بالفرح:

– آه! غولوبوبنكو، غولوبوبنكو! هذا هو يا قريبي الشاب الذي حدثتك عنه. آخ يا صهري! فليأخذ الله روحي في هذه اللحظة إن لم يكن جرع إبريقاً كاملاً في حجم رأسك تقريباً في حضوري دون أن تطرف عينه ولو مرة واحدة.

– لِمَ إذن يا قريبي لم تقدّر شاباً ماجداً كهذا حق قدره؟

واصل تشيريفيك كلامه مخاطباً غريتسكو:

– وها قد جازاني الله كما ترى، وجليٌّ لأني أخطأت في حقك، فاصفح عني أيها الشاب الطيب! وأقسم أنني مستعدّ للقيام بأيّ شيء لأجلك... لكن ما باليد حيلة، فامرأتي العجوز ركبها عفريت!

– لستُ حقوداً يا سولوبي، وسأطلق سراحك إن شئت!

ثم غمز للفتيان بعينه، فهبّ أولئك الذين كانوا يحرسونهما وفكّوا وثاقهما.

– عليك أيضاً، في المقابل، القيام بما يجب: الزفاف! ولسوف ندبك دبكة "الهوباك"[١] بحيث تؤلمنا أقدامنا لعامٍ كامل.

قال سولوبي مصفقاً بيديه:

---

١ دبكة شعبية أوكرانية. (م)

– رائع، رائع! وإنني أشعر بالفرح الآن كأنما لو أنّ الموسكوفيين قد هربوا بزوجتي العجوز. هيا، لا داعي للتردد، وليُقَم الزفاف اليوم سواء كان خيراً أو شراً، وليكن ما يكون!

– اسمع إذن يا سولوبي. سأوافيك بعد ساعة، والآن امضِ إلى بيتك، فهناك مشترون في انتظارك لشراء فرسك وقمحك!

– كيف! هل عثرتم على الفرس؟

– أجل.

تسمّر تشيريفيك مكانه لشدة الفرح وهو يشيّع غريتسكو المغادر بنظراته.

قال الغجري الطويل القامة للشاب الذي كان يغذّ السير:

– ما رأيك يا غريتسكو، ألم نقم بعملنا كما ينبغي؟ الثيران لي الآن، أليس كذلك؟

– هي لك! هي لك!

- ١٣ -

لا تخافي يا أُميمة، لا تخافي
والبسي جزمتكِ الحمراء،
وطئي الأعداء تحت قدميكِ
حتى يصلصل نعلاكِ!
حتى يخرس أعداؤكِ!
(أغنية أعراس)

جالسةً وحيدةً في البيت، راحت باراسكا تتأمّل مستغرقةً في التفكير مسندةً ذقنها الجميل إلى مرفقيها، وطافت برأسها الأصهب الشعر أحلامٌ كثيرة. أحياناً كانت تداعب شفتيها القرمزيتين ابتسامةٌ خفيفة ويجعل شعورٌ ما بالسعادة حاجبيها الأسودين يرتفعان، وأحياناً تجعلهما سحابة شجن وتفكير ينسدلان على عينيها العسليتين الصافيتين. همست لنفسها بنبرةٍ يشوبها الشك: "ولكن ماذا إن لم يتحقق ما قال؟ وماذا إذا رفضوا تزويجي إياه؟ وماذا إذا... لكن لا، لا، لن يحدث ذلك! إن زوجة أبي تفعل كل ما يعنُّ لها، أفلا أستطيع أنا أيضاً أن أفعل ما يخطر لي؟ إذ لدي ما يكفي من العناد. يا لوسامته! وما أروع بريق عينيه السوداوين! ما ألطفه حين يقول: 'حبيبتي باراسكا'!

وكم تليق به سترته البيضاء! لكن فقط لو كان حزامه أشدّ لمعاناً!... لا بأس، سأحوك له حزاماً جديداً فور انتقالنا للعيش في بيت جديد"، ثم أخرجت من عبّها مرآة صغيرة إطارها من ورقٍ أحمر اللون، كانت قد اشترتها من السوق الموسمية، وتابعت تقول وهي ترنو إليها بشعورٍ خفي بالرضا: "وأظن أن الفرح سيخالجني، إذا ما التقيتها يوماً أينما كان، بألاّ أنحني لها مهما فعلتْ. لا يا زوجة أبي، يكفي ما نالته ابنة زوجك على يديك! فقد يتفتت الصخر ويستحيل تراباً، أو قد تنحني أشجار السنديان على الماء كما يفعل الصفصاف، لكن من المستحيل أن أحني هامتي لكِ ثانيةً! نعم، وكدت أنسى... أريد أن أجرّب قبعة المرأة المتزوجة، ولو قبعة زوجة الأب، لأرى كم تناسبني!" ثم نهضت وهي ممسكة بالمرآة بيدها، وأحنت رأسها إلى مستواها، وأخذت تسير في الغرفة بحذر كمن يتحاشى الوقوع، إذ ترى تحت قدميها السقف، بدلاً من الأرضية، بألواحه الخشبية التي سقط عنها ابن القس، والأرفف التي رُصّت عليها القدور. ثم هتفت ضاحكةً: "عجباً! إنني أبدو في الواقع كطفلٍ يخشى أن يخطو بقدميه"، وشرعت تدقّ الأرض بقدميها، وكلّما مضت في ذلك ازدادت جرأةً، وفي آخر الأمر أرخت يدها اليسرى ووضعتها على خصرها وراحت ترقص مجلجلةً بنعليها، ومادّةً المرآة أمامها، وهي تشدو أغنيتها المفضّلة:

أيتها الونكة[1] الصغيرة الخضراء،
عَرِّشي إلى أسفل!
وأنت يا حبيبي الأسود الحاجبين،

---

١ الونكة: نبات عشبي يدعى أيضاً "حيُّ العالم". (م)

اقترب مني!
أيتها الونكة الصغيرة الخضراء،
عَرِّشي إلى أسفل أكثر!
وأنت يا حبيبي الأسود الحاجبين،
اقترب مني أكثر!

أطلّ تشيريفيك في تلك اللحظة من الباب، وحين رأى ابنته ترقص أمام المرآة توقف وظل يرنو إليها طويلاً ضاحكاً من نزوة ابنته التي لم يرها على تلك الحال من قبل، والتي بدت أنها لم تلحظ شيئاً لاستغراقها في الرقص والغناء، ولكن ما إن سمع تشيريفيك كلمات الأغنية المألوفة له تدفّق الدم في عروقه فوضع يديه على خاصرتيه ووثب إلى الأمام وانخرط في الرقص ناسياً كل ما يخصّ شؤونه. لكن قهقهة قريبهما تسيبولا العالية جعلتهما يجفلان.

– يا سلام! ها هو الأب وابنته يقيمان زفافاً بنفسيهما هنا! هيا أسرعا فقد جاء العريس!

عند سماعها الكلمة الأخيرة اصطبغت باراسكا بحمرة أشدّ من احمرار الشريط الذي تعصب به رأسها. أما والدها الغافل فتذكّر سبب مجيئه وقال وهو يتلفت حوله في خجل:

– هيّا يا ابنتي، فلنسرع! فخيفريا، لشدة فرحها ببيعي الفرس، هرعت تشتري لنفسها شتى أنواع الأقمشة والمسوح، لذا علينا الانتهاء من كل شيء قبل عودتها.

لم تكد باراسكا تجتاز العتبة حتى شعرت بنفسها محمولةً على يدي الشاب ذي السترة البيضاء الذي كان ينتظرها في الشارع مع

حشدٍ من الناس.

جَمع تشيريفيك أيديهما إلى بعضهما بعضاً وقال:

– باركهما يا إلهي، واجدُلْ حياتهما معاً كما تُضفَر الزهور في باقة!

في هذه اللحظة تصاعدت جلبة وسط الناس، وصاحت شريكة سولوبي وهي تشقّ طريقها وسط الحشد مقهقهةً:

– لن يحدث هذا إلاّ على جثتي!

فقال تشيريفيك في برود إذ رأى غجريين مفتولَي العضلات يمسكانها بقوة:

– هدّئي من روعك يا امرأة، فما حدث قد حدث، وأنا لا أحب تغيير قراري!

صاحت خيفريا:

– كلا، كلا! لن يكون هذا!

لكن لم يعرها أحد بالاً، وأحاط عدد من الأزواج بالعروسين الجديدين وأقاموا حولهما جداراً راقصاً لا سبيل إلى اختراقه.

ولو أنّ أحداً شاهد كيف تحول هذا الحشد المتناثر إلى كتلةٍ واحدة يسودها التناغم والانسجام عبر ضربةٍ واحدة من قوس عازفِ الكمنجة ذي السترةَ المصنوعة يدوياً والشّارب الطويل المفتول، لتملّكه شعورٌ غريب يعزّ على الوصف. فقد هبّ رجالٌ، بدا أنّ على وجوههم العابسة لم ترتسم الابتسامة يوماً، وراحوا يدبكون وهم يهزّون أكتافهم. الكل كانوا يتمايلون. الكل كانوا يرقصون. بل إن شعوراً أشدّ غرابةً وإلغازاً لَينبعث من أعماق المرء عند رؤيته العجائز، اللواتي تهبّ من وجوههنّ العتيقة رائحة سكينة القبر، وهنّ يتأرجحنَ

ويتدافعنَ وسط الشباب اليافعين الضاحكين المفعمين بالحياة. هاته العجائز الخليّات البال، اللواتي يفتقرن حتى إلى مرح الأطفال، وإلى أيّ ومضة تعاطف، واللواتي لولا السكْر لما كان في مقدورهنّ القيام بحركات شبيهة بما يقوم به البشر، كآلةٍ لا حياة فيها، كنّ يهززنَ رؤوسهنّ الثملة ويرقصنَ حاذيات حذو الحشد المرح، دون أن يلقين أي نظرة تجاه العروسين الجديدين.

أخذ الهدير والضحك والغناء يخفت شيئاً فشيئاً، ووهنت نغمات الكمنجة المبهمة وراحت تتلاشى في الفضاء حتى خمدت، وكانت أصوات دبك الأقدام لا تزال تتناهى من مكانٍ ما كهدير بحرٍ بعيد، وسرعان ما غادر الجميع وخيّم السكون.

أليس هذا هو حال الفرح أيضاً، ذاك الضيف الجميل العابر، فهو يطير مغادراً إيّانا، وعبثاً يحاول صوتٌ وحيد أن يعبّر عن الفرح؟ فهو يسمع في صداه الحزن والخواء وينصت إليه في وحشة. أليس هذا هو حال الرفاق المفعمين بالحياة وبالشباب العاصف المنطلق، ثم يُفقَدون، الواحد تلو الآخر، في الدنيا، وفي النهاية يتركون خلفهم أخاً وحيداً كهلاً؟ سيشعر المتبقي خلفهم بالضجر والحنين، وينوء قلبه بالحزن، ولا يمكن عمل شيء لمساعدته.

ليلة عيد القديس يوحنّا المعمدان

(قصة حقيقية رواها قندلفت كنيسة...)

كانت لفوما غريغوريفيتش عادة غريبة هي أنه كان يكره حدّ الموت أن يعيد سرد القصة نفسها. إلا أنه كان يفعل ذلك أحياناً إذا سأله أحدهم ذلك، وعندها لا بدّ أن يقحم فيها شيئاً جديداً أو يرويها بطريقة مختلفة بحيث يستحيل التعرّف عليها. وقد حدث مرة أنّ واحداً من أولئك السادة – الذين لا ندري، نحن البسطاء، ماذا نسمّيهم، فهم ليسوا كتبةً ولا أشباه كتبة، وإنما هم أشبه بالمضاربين والسماسرة في أسواقنا، ينشلون ويستجدون ويسرقون شتى الأشياء من سقط المتاع، فضلاً عن أنّ واحدهم ينشر كل شهر تقريباً، أو حتى كل أسبوع، كتيباً بحجم كتب تعليم "الألفباء" للأطفال. – وإذن، فإن واحداً من هؤلاء الناس كان قد "بَلَصَ" هذه القصة نفسها من فوما غريغوريفيتش الذي كان قد نسي كل شيء بخصوصها. وقد اتفق أن قدم هذا الدعي من بلطافا، وكان يرتدي سترة ذات لون أصفر ضارب إلى الخضرة، وقد سبق لي أن حدثتكم عنه وأظن أنكم سبق أن قرأتم إحدى قصصه، وكان يحمل معه كتاباً صغيراً فتحه من منتصفه وأرانا إياه. وهمّ فوما

غريغوريفيتش أن يضع نظارته على أنفه، لكنه تذكّر أنه قد نسي أن يلفّها بالخيط ويُلصقها بالشمع، فناولني الكتاب. وبما أنني أعرف القراءة بشكلٍ لا بأس به ولا أضع نظارات فقد شرعت بالقراءة، ولم أكد أقلب صفحتين حتى أوقفني فوما غريغوفيتش عن القراءة فجأةً ممسكاً بيدي وقال:

– توقّف! قل لي أولاً ما هذا الذي تقرأه؟

أقرّ أن سؤاله هذا بلبلني بعض الشيء.

– ماذا تقصد بسؤالك يا فوما غريغوريفيتش؟ إنها حكايتك، بل كلماتك بعينها.

– من قال لك أنها كلماتي بعينها؟

– وأيّ دليل أفضل تريد، فقد طُبع هنا: رواها القندلفت فلان.

– ألا لعنة الله على من طبع هذا! يا له من كذّاب ابن كلب[1]. أهكذا رويتُ القصة؟ هذا كأن يُخرج الشيطان برشمة من رأس أحدهم[2]. اسمعوا إذن، فلسوف أقصّها عليكم.

تجمّعنا حول الطاولة وشرع فوما يروي:

كان جدي (رحمه الله، وعسى ألاّ يأكل في الآخرة إلاّ خبز الدقيق وكعك الخشخاش المحلّى بالعسل!) قصّاصاً عظيماً، ما إن يشرع في الحديث حتى تبقى جالساً مكانك اليوم بطوله وتسمع الحكاية من أولها إلى آخرها، ليس مثل ثرثاري اليوم الذين ما إن يبدأ واحدهم بسرد الأكاذيب حتى يرغب المرء في التقاط قبّعته

١ يشير غوغول هنا إلى ب. ب. سفينين الذي نشر إحدى قصص غوغول عام ١٨٣٠ في مجلته مدوّنات وطنية مع الكثير من التحريف. (محرّر النص الروسي)

٢ مثل شعبي أوكراني يُضرب للإشارة إلى العمل الذي يُنجز بشكل أخرق. (م)

ومغادرة الدار بسرعة، ناهيكم عن أنهم يروونها بلغة تجعلك تشعر أنهم لم يذوقوا طعاماً منذ ثلاثة أيام. وإني أذكر جيداً، كما لو أنه يحدث الآن، كيف كانت المرحومة أمي العجوز - التي كانت على قيد الحياة آنذاك - تجلس في ليالي الشتاء الطويلة، عندما كان الجليد يتصدّع في فناء دارنا ويغطّي الصقيع زجاج نافذة كوخنا الصغيرة تماماً، أمام النول تجذب بيدها خيطاً طويلاً وهي تهزّ بقدمها المهد وتغنّي أغنيةً أشعر أنني ما زلت أسمعها حتى الآن. وكان القنديل يضيء الكوخ بضوءٍ راعشٍ مرتجف كأنّما يخشى شيئاً. كان المنزل يطنّ، وكنّا نحن الأطفال نتكوّم وننصت إلى جدي الذي، لهرمه، لم يكن قد نزل عن الموقد[1] منذ ما يزيد عن خمس سنوات. لكن لا حكاياته العجيبة عن الأزمنة القديمة، ولا عن غزوات الزابوروجيين والبولنديين، ولا عن مآثر بودكوف وبولتور كوجوخ وساغايداجني[2] المجيدة، كانت تنال من اهتمامنا ما تناله القصص التي تحكي عن أمور عجيبة وقعت منذ زمنٍ بعيد، تلك الحكايات التي كانت دائماً تجعل أوصالنا ترتعش وشعر رأسنا يقف. وأحياناً كان يستبدّ بنا الفزع بحيث يتراءى لنا كل شيء عجيباً ومخيفاً لا يعلم إلاّ الله ما هو. ويحدث أن يخرج المرء من الكوخ ليلاً فيخال أن زائراً من العالم الآخر قد اندسّ في فراشه. ألا فليقصف الله عمري ولا يُكتب لي أن أعيش

١ المواقد في الريف الأوكراني، وكذلك الروسي، تكون أشبه بغرفة صغيرة داخل الغرفة، يرقد عليها الناس في الشتاء طلباً للدفء في البرد القارس. وقد استخدمنا أحياناً تعبير "دكّة الموقد" للإشارة إلى ذلك. (م)

٢ من زعماء وقادة القوزاق العظام. (م)

لأقصّ هذه القصة مرة أخرى إن لم يحدث لي غالباً أن أعتقد سترتي المطوية من بعيد شيطاناً متكوّراً على نفسه! لكنّ أهم ما في حكايات جدي هو أنه لم يكذب يوماً في حياته وأنّ كل ما يرويه قد حدث تماماً كما يروي.

سأقصّ عليكم الآن إحدى قصصه العجيبة. وإني أعلم أنّ هناك الكثير من الفطنين – ممّن يكتبون في المحاكم من حين لآخر بل ويقرؤون بالفصحى أيضاً – الذين إذا وضعت بين أيديهم كتاب صلاة بسيط تجدهم لا يفقهون فيه شروى نقير، لكنهم بارعون في الكشف عن أسنانهم تهكّماً وسخريةً، فهم يجدون في كل ما تخبرهم به مادةً للسخرية. وهذا الكفر قد عَمَّ العالم برمّته، إلى درجة أنكم، ربما، تجدون صعوبة في تصديقي، ولكن لتنزل بي نقمة الله والعذراء الطاهرة إن كنت أكذب! مرةً ذكرت الساحرات بالسوء بصورةٍ ما – وماذا في ذلك؟ وُجد رجل شديد العناد لا يؤمن بوجود الساحرات! وها أنذا، والحمد لله، وقد عشت في الدنيا طوال هذه السنين، رأيت أناساً عديمي الإيمان الكذبُ في الاعتراف للقس أسهل عليهم من سهولة تنشّق أخيكم السعوط، وحتى هؤلاء كانوا يستعيذون من الساحرات. أما ما يرونه في المنام... لكن لا رغبة لي في الإتيان على ذكر ما يرون، بل ولا داعي للحديث في شأن ذلك.

كانت أزمنةً قاسية! وقد قال المرحوم جدّي إنّ أحداً لم يكن ليسمع بقريتنا ولو بعد مئة عام، فقد كانت عبارة عن عشرة أكواخ متناثرة في الحقول غير مطلية بالملاط وبلا سقوف، لا أسيجة لها ولا حظائر مناسبة يمكن وضع الماشية أو العربات فيها. هذا فضلاً عن أنّ الأغنياء كانوا يعيشون على هذا النحو، فما بالكم بالصعاليك

المساكين من أمثالنا، حيث يحفر واحدنا حفرةً في الأرض ويتّخذها كوخاً يؤويه، وفقط من خلال الدخان المتصاعد من الحفرة يعرف المرء أنّ عبداً من عباد الله يقيم فيها. ولعلكم تتساءلون لِمَ كانوا يعيشون على هذا النحو؟ فمن حيث الفقر، لم يكونوا فقراء، فقد كان الجميع تقريباً يعتاشون في تلك الأيام على غزو ديار الآخرين، وكان القوزاق يعودون من غزواتهم تلك بخيراتٍ وفيرة، وإنما كان السبب أنه لم يكن هناك داعٍ لإقامة كوخ لائق، فالجميع كانوا آنذاك بدواً رُحّلاً يتنقّلون من مكان إلى آخر: أهل القرم، والبولنديون، والليتوانيون. بل وكان يحدث أن تغزو بعض العصابات قومها فتسلب وتنهب... كان كل شيء مباحاً.

في قريتنا تلك بالذات كثيراً ما كان يظهر رجل، أو قل شيطان في صورة إنسان، ولم يكن أحد يدري من أين جاء ولأي غاية، ويروح يقصف ويلهو، وفجأةً يختفي بلا أثر... "فصّ ملح وذاب"، ثم يظهر من جديد فجأةً لا تدري من أين، كأنما هبط من السماء، ويروح يجوس في طرقات القرية، التي كانت قائمة آنذاك وصارت الآن أثراً بعد عين، وكانت لا تبعد أكثر من مئة خطوة عن ديكانكا، فيجمع حوله بعض القوزاق الذين يصادفهم في الدروب، ويتعالى الضحك والغناء، وينهال المال، وتسيل الفودكا كالماء. وكان أحياناً يعاكس الفتيات الجميلات، فيسلب ألبابهن بالأشرطة والأقراط والقلائد التي يغدقها عليهنّ، فيحرنَ في أمرهنّ ولا يدرينَ ماذا يفعلنَ! والحقّ أن تلك الحسناوات كنّ يتردَّدنَ قليلاً قبل تقبّل هداياه، فمن يدري، لعلّ الشيطان فعلاً هو مصدر تلك الهدايا. وقد قالت عمة جدي، وكانت آنذاك تمتلك حانة على الطريق الذي يُعرَف اليوم بطريق

"أبوشنيانسكايا"[1]، وكان باسافروك[2] – وهذا هو اسم ذلك الرجل الشيطان – يتردد إليها كثيراً فيلهو ويعربد، إنها ما كانت لتقبل منه أي هدية ولو لقاء كنوز الأرض جميعاً. ولكن كيف كان لها أن ترفض: فعندما كان يعبس ويقطب حاجبيه الكثّين ويلقي من تحتهما نظرةً تنخسف لها القلوب فلا يدري المرء إلى أين يولّي الأدبار، كان الرعب يتملّك الجميع. أما إذا قبلت فتاة هديةً منه، فمن المؤكّد أن يزورها في الليلة واحدٌ من رفاقه يجرجر قدميه قادماً من المستنقع، في رأسه قرون، فيقبض على رقبتها ويأخذ في خنقها إذا كانت تلبس قلادة، أو يعضّ إصبعها إن كانت تلبس خاتماً، أو يشدّ شعرها إن كانت تضع فيه شريطاً. وإذن فليأخذه الله، هو وهداياه! ولكن هيهات! فالمصيبة أنه يستحيل التخلّص من هداياه، فإذا ألقيت القلادة الشيطانية، أو الخاتم الشيطاني، في الماء طفت على سطح الماء وعادت إلى يديك مباشرةً.

وكانت في القرية كنيسة أظن أنّ اسمها كان – إن لم تخنّي الذاكرة – كنيسة القديس بانتيلي، وكان قسيسها آنذاك هو الأب أفاناسي طيب الذكر. وحين لاحظ الأب أفاناسي أنّ باسافروك لا يرتاد الكنيسة حتى في عيد الفصح قرّر أن ينذره بأنه "سيلقي عليه الرجم الكنسي"[3]. ولكن لا حياة لمن تنادي! فقد ردّ عليه ذلك الشيطان مزمجراً: "اسمع يا أبانا! يستحسن بك الاهتمام بشؤونك بدلاً من دسّ أنفك في شؤون الآخرين، إلاّ إن كنت تريد أن تحرق البليلة الساخنة حلقك الذي يشبه

---

١ أي "الطريق المقفرة". (م)

٢ أي "الكذّاب الحافي" أو لعلها "باسا الكذّاب". (م)

٣ بمعنى "الحرمان من بركة الكنيسة". (م)

حلق التيس!" فما العمل مع هذا الكافر؟ اكتفى الأب أفاناسي بأن أعلن أنَّ كل من يتعاطى مع باسافروك سيتم اعتباره كاثوليكياً، عدواً لكنيسة المسيح وللجنس البشري برمّته.

وكان في تلك القرية قوزاقي لقبه "كورز"، وكان يستخدم عاملاً أطلق عليه الناس اسم "بيترو بيزرودني[١]"، وربما السبب في ذلك أنّ أحداً لم يكن يذكر لا أباه ولا أمّه. ورغم أنّ سادن الكنيسة كان يقول إنّ والديه ماتا بالطاعون بعد مولده بعام، إلاّ أنّ عمة جدّي كانت تنكر ذلك وتبذل قصارى جهدها لمنحه نسباً، رغم أن حاجة بيترو المسكين إلى نَسَب كانت بقدر حاجتنا إلى ثلج العام الماضي[٢]، وكانت تقول إنّ أباه يعيش الآن في زابوروجي، وأنه كان أسيراً لدى الأتراك الذين أذاقوه ألواناً من العذاب لا يعلمِ بها إلاّ الله، ثم هرب بطريقة عجيبة مطلقاً لساقيه العنان بعد أن تنكر في زيّ خصي من الخصيان. لكنّ الفتيات الهيفاوات السود الحواجب قلّما حفلنَ بحسب بيترو ونسبه، إلاّ أنهنّ كنّ يقلنَ إنه لو ارتدى قفطاناً جديداً، وتمنطق بحزام أحمر، واعتمر قبعةً سوداء من فراء أستراخان لها قنزعة زرقاء أنيقة، ووضع على جنبه سيفاً تركياً، وحمل في إحدى يديه سوطاً وفي الأخرى غليوناً ذا إطارٍ جميل، لبزّ كل شبّان الناحية في تلك الأيام. لكن بيترو المسكين لم يكن يملك - للأسف - إلاّ سترة رمادية فيها من الثقوب أكثر مما في جيب اليهودي من ليرات ذهبية. لكن هذا يبقى بليّة تافهة إذا ما قورنت بالبليّة الحقيقية، وهي

١ بيزرودني تعني "الذي لا يُعرف له حَسَبْ أو نَسَب" أو "المقطوع من شجرة" كما يقال في اللهجة المحكية. (م)

٢ مثل شعبي القصد منه الإشارة إلى ما لا لزوم له مطلقاً. (م)

أن كورز العجوز كانت له ابنة فائقة الجمال أشك في أن تكونوا رأيتم لجمالها مثيلاً من قبل. وكانت عمة جدّي المرحوم تقول (والنساء، كما تعلمون، أسهل عليهن تقبيل الشيطان - حاشاكم - من أن يصفنَ فتاةً بالحسن) إنّ وجنتي الفتاة الممتلئتين كانتا بنضارة وبهاء أرقّ بتلات الورود وأشدّها حمرةً حين تغتسل بندى السماء وتنشر أوراقها وتتألق في نور الشمس المشرقة توّاً، وإنّ حاجبيها، الشبيهين بالسيور السود التي تشتريه بناتنا من الباعة الجوّالين في القرى ليعلّقن فيها الصلبان والليرات ليعقدنها حول أعناقهنّ، مقوّسان بانتظام كأنهما ينظران إلى نفسيهما في عينيها الصافيتين، أما فمها، الذي كان يسيل لعاب الشبّان لمرآه، فكان يبدو أنه قد خُلق ليصدح بتغريد البلابل، وأنّ شعرها، الأسود الفاحم كأجنحة الغربان والناعم كنبات الكتّان الفتيّ (في تلك الأيام لم تكن فتياتنا يضفرنَ شعورهنّ بعد ويربطنها بالأشرطة الزاهية الألوان)، كان ينسدل في ثنيات غزيرة على سترتها الموشّاة بالذهب. آخ، لا كتب الله لي أن ألفظ "هللويا" ثانيةً في الجوقة إن أحجمت عن تقبيلها توّاً وحالاً، على الرغم من الشيب الذي يدبّ في غابة شعري العجوز ويغطّي هامتي، وعلى الرغم من عجوزي التي عينها عليّ عشرة على عشرة. وإنكم تعلمون جميعاً ماذا يمكن أن يحدث عندما يقيم شاب وفتاة بجوار بعضهما بعضاً. وكان يصدف أحياناً أن يلحظ كورز آثار الحذاء الأحمر الصغير حيث كانت تلتقي بيدوركا حبيبها بيترو، إلاّ أنه لم تساوره أية شكوك سيئة بخصوص ذلك، إلى أن ذات يوم خطر لبيترو - وجليٌّ للعيان أنّ الشيطان هو من وسوس له ذلك - أن يطبع قبلةً من كل قلبه، كما يقال، على شفتي الفتاة القوزاقية الورديتين،

دون أن يتأكد تماماً من أنه بعيد عن العيون، وذاك الشيطان نفسه - وأدعو الله أن يرى ابن الكلب هذا الصليب المقدّس في منامه - هو من أغرى الأحمق العجوز بأن يفتح باب الكوخ. جمد كورز مكانه وتعلّق بالباب فاغراً فاه، فعلى ما يبدو صعقته هذه القبلة اللعينة التي بدت له أعلى صوتاً من صوت ارتطام المدوك بالجدار، الذي كان الفلاحون في أيامنا يجلجون به لطرد الأرواح الشريرة، وذلك لعدم توفّر البنادق والبارود آنذاك.

حين أفاق كورز من ذهوله تناول سوط جدّه عن الجدار، وحين هَمَّ أن ينهال به على ظهر بيترو المسكين إذا بأخي بيدروكا البالغ من العمر ست سنوات، إيفاس، يهرع إلى الغرفة ويطوّق ساقي والده بذراعيه الصغيرتين، وقد تملّكه الفزع، ويصرخ: "بابا، بابا، لا تضرب بيترو يا بابا!" فما عساه يفعل الأب؟ ففي النهاية، قلبه لم يكن قُدَّ من صخر، لذا أعاد السوط إلى مكانه على الجدار واقتاد بيترو بهدوء إلى خارج الكوخ وقال له: "اسمع يا بيترو: إن رأيتك مرة أخرى في بيتي، أو حتى تحت النوافذ، فقسماً عظماً لأحلقنَّ شاربك الأسود، وسوالفك هذه، التي ها هي قد بلغت من الطول بحيث تلتفّ حول أذنيك مرّتين، لا يكونّن اسمي تيرينتي كورز إن لم أجلعها تودّع جلدة رأسك!" بعد قوله هذا ناوله كورز "سحسوحاً" خفيفاً على قفاه بحيث انطلق بيترو مندفعاً كالسهم لا يلوي على شيء. هاكم عاقبة التقبيل!

استبدَّ الحزن بعاشقينا الرقيقين، وإذ فجأةً شاع في القرية أنّ رجلاً بولندياً ثيابه موشّاه بالذهب، له شاربان ومهمازان ويتمنطق بسيف، وجيوبه ترنَّ رنين الجرس في الكيس الذي يحمله قندلفتنا تاراس أثناء توجّهه إلى الكنيسة، صار يتردّد على كورز. ونعلم جميعاً لِمَ

يزور الناس أباً له ابنة حسناء سوداء الحاجبين. وذات يوم أمسكت بيدوركا أخاها الصغير إيفاس من يده وقالت له وهي غارقة في دموعها: "عزيزي إيفاس، حبيبي إيفاس، انطلق إلى بيترو كالسهم، يا قرّة عيني، وقل له إنني لكنتُ عشقت عينيه العسليتين، وقبّلت وجهه الأبيض الجميل، لولا أنّ قدري يأبى ذلك. لقد بللتْ بدموعي الحرّى الكثير من المناديل، وتجيش نفسي بالأسى، والحزن يثقل على قلبي. وعدوي هو أبي الذي من لحمي ودمي، فهو يُكرهني على الزواج من ذلك البولندي البغيض. قل له إنهم يُعدّون للزفاف حتى، إلاّ أنه لن تكون هناك موسيقى في زفافنا، إذ سينشد القساوسة التراتيل بدلاً من موسيقى البَنْدورات[1] والمزامير. ولن أمضي للرقص مع عريسي، بل سيحملونني حملاً على ذلك. سيكون كوخي، المصنوع من خشب أشجار القيقب، مظلماً، مظلماً، وسيعلو سطحه صليب مكان المدخنة!

بينما كان الطفل البريء ينقل إليه متلعثماً كلمات بيدوركا، كان بيترو يصغي متسمّراً مكانه كحجرٍ أصمّ.

"أما أنا فكنت أفكّر في الذهاب إلى القرم لمحاربة الأتراك والفوز بالذهب ثم العودة إليكِ سالماً غانماً يا جميلتي، ولكن هيهات! لقد أصابتنا عين شريرة حسود. وأنا أيضاً، يا عصفورتي الغالية، سيكون لي زفاف، لكن حتى رجال الدين لن يشهدوا زفافي، بل سينعب غرابٌ أسود فوق رأسي بدلاً من القسيس، وستكون الأرض المنبسطة مسكني، وغيمةٌ زرقاء ستكون سقفي، وسينقر نسرٌ عينَيَّ العسليتين،

١ مفردها "بَنْدورا" (بالباء المعجمة)، وهي آلة وترية من أسرة الغيتار. (م)

وسيغسل وابل المطر عظامي القوزاقية، وستجفّفها العاصفة. ماذا أقول؟ من ألوم؟ لمن أشكو؟ جليٌّ أنها إرادة الله، فإن كان قد كتب عليّ الهلاك فإنّي هالكٌ لا محالة!" ومضى إلى الحانة لا يلوي على شيء.

حين رأت عمّة المرحوم جدّي بيترو يدخل الحانة تولاّها شيء من الدهشة، لا سيما في هذه الساعة المبكرة التي يمضي فيها المسيحي الصالح إلى الكنيسة لأداء الصلاة، وحملقت فيه مذهولةً حين طلب إبريقاً من الفودكا سعته قرابة نصف سطل. لكن عبثاً حاول المسكين أن يُغرق أحزانه بالخمر، فقد كانت الفودكا تلسع لسانه، كما لو أنها قرّاص، وبدت له أمرَّ من الشيح، فألقى بالإبريق على الأرض.

وهنا هدر صوتٌ أجشّ من فوق رأسه:

– كفاك حزناً أيها القوزاقي!

التفت بيترو. باسافروك! أوخ! يا لغرابة منظره! شعره كالأشواك، وعيناه عينا ثور!

– إنني أعلم ما أنت في حاجة إليه: إنه هذا!

وأخذ يصلصل بالجراب الجلدي المعلّق بحزامه وهو يضحك ضحكةً شيطانية.

ارتعد بيترو. زمجر الرجل وهو يُهيل القطع النقدية في يده:

– هيه هيه هيه، انظر إليها كيف ترنّ! ولسوف أعطيك جبلاً من هذه الليرات لقاء عملٍ واحد تقوم به لأجلي!

صاح بيترو:

– يا للشيطان! قل ما هو، فإني مستعدّ للقيام بأيّ شيء!

وتصافح الرجلان.

– اِعلم يا بيترو أنك جئت في الوقت المناسب، فغداً يصادف

عيد يوحنا المعمدان[1]، وهي الليلة الوحيدة في السنة التي يزهر فيها الخنشار. إيّاك أن تضيّع هذه الفرصة! سأكون في انتظارك عند منتصف الليل في أخدود الدبّ.

أظنّ أنّ شوق بيترو لحلول المساء كان أشدّ من شوق الدجاج إلى اللحظة التي تأتي له ربّة الدار فيها بالحَبّ، وراح يرقب ظلّ الشجرة ليرى إن كان يغدو أطول، ويرنو إلى الشمس الغاربة ليرى إن كانت تتورّد بحمرة الخجل، وكلّما طال الوقت نفد صبره أكثر. يا للوقت كم يمرّ بطيئاً! وبدا أنّ هذا النهار المبارك قد ضلّ طريقه إلى منتهاه. وها قد غربت الشمس ولم يبقَ إلاّ خيط أحمر في الأفق، وهو آخذٌ في الزوال، وبدأ الجوّ يبرد في الحقول، وأخذ الضوء يخفت شيئاً فشيئاً حتى انطفأ تماماً وخيّم الظلام أخيراً! ينهض بيترو من مكانه، وقلبه يكاد يقفز من صدره، وشرع ينزل عبر الغابة الكثيفة إلى أن بلغ شُقّاً عميقاً في الأرض يُسمّى "أخدود الدب"، وكان باسافروك في انتظاره. كان الظلام حالكاً لدرجة أنّ المرء لا يرى إصبعه إذا مدّها أمامه. أخذ الرجلان يشقّان طريقهما في مستنقع موحل، وقد أمسك واحدهما بيد الآخر، وكانت ملابسهما تعلق بالأشواك المتطاولة ويتعثران في كل خطوة يخطوانها تقريباً، إلى أن بلغا مكاناً منبسطاً. توقّف بيترو وتلفّت حوله: لم يسبق له قطّ أن جاء إلى هذا المكان. توقّف باسافروك أيضاً.

– أترى هذه الروابي الثلاث المنتصبة أمامك؟ لسوف تزهر فوقها الأزهار من شتى الأشكال والألوان، ولكن كان الله في عونك إن أنت

---

١ عيد ديني شعبي يوافق ٢٤ حزيران/يونيو. (م)

قطفت واحدة منها. وفقط بعد أن يزهر الخنشار إقطف زهرة واهرب ولا تلتفت وراءك مهما تخيّلت من أعاجيب تحدث خلفك.

أراد بيترو أن يسأله سؤالاً، لكنه حين استدار كان قد اختفى. توجّه نحو الروابي الثلاث لكنه لم يرَ أية أزهار، أين هي إذن؟ كان العشب الغزير يغطّي بكثافة الأرجاء كلها. لكن فجأةً لمعت ومضة باهتة في السماء ورأى بيترو أمامه حقلاً بأكمله من الزهور، كلّها مذهلة، كلّها لم يرَ لها مثيلاً من قبل. وفجأةً رأى أيضاً أوراق الخنشار العادية. التبس الأمر على بيترو ووقف أمامها مذهولاً وذراعاه في خاصرتيه.

- وما العجيب في ذلك؟ إنّ المرء يصادف هذه النبتة عشرات المرات في اليوم، فما وجه العجب في ذلك؟ أم لعله الشيطان خطر له أن يسخر مني؟

وحين دقّق النظر رأى برعم زهرةٍ صغيرةٍ يتورّد ويتحرّك كما لو أنها دبّت فيها الحياة. هذا عجيب حقاً! إنها تتحرّك وتكبر أكثر فأكثر وتتّقد كجمرة. أضاءت نجمة فجأةً وشقشق شيءٌ ما بصوتٍ خافت، وتفتحت الزهرة أمام عينيه مضيئةً الزهرات الأخريات من حولها كشعلة.

قال بيترو في نفسه: "حان الوقت"! ومدّ يده، وحين همّ بقطف الزهرة رأى مئات الأيدي الخشنة تمتدّ من خلفه، ونحو الزهرة كذلك، وشعر بشيءٍ ما يركض وراء ظهره من مكان إلى آخر، فأغمض عينيه وقطف الزهرة من ساقها، فساد السكون ولاح له باسافروك جالساً على جذمور شجرة شاحباً شحوب الأموات. لو أنّه فقط حرّك إصبعاً من أصابعه. عيناه مسمّرتان على شيءٍ ما لا يراه غيره، وفمه فاغر لا ينبس بكلمة، وكل ما حوله جامدٌ ساكن. أوخ، هذا مخيف!...

وفجأةً سمع بيترو صفيراً جعل الرعدة تسري في أوصاله، وخُيِّل إليه أنّ العشب يصخب وأنّ الأزهار تتحدث فيما بينها بصوت رقيق كأنها رنين أجراسٍ مضنية، وهدرت الأشجار بالشتائم... وفجأةً دبّت الحياة في وجه باسافروك ولمعت عيناه ودمدم من بين أسنانه قائلاً: "أخيراً عدتِ أيتها الغولة! اسمع يا بيترو، سوف تمثل أمامك في هيئة فاتنة حسناء، فافعل ما تأمرك به وإلاّ هلكت إلى أبد الآبدين!" ثمّ فرّق بعصاه شجيرة عُضاضة[1] فانبثق أمامه كوخ صغير من الهواء كما يُقال، ثم ضرب باسافروك الكوخ بقبضته فهوى أحد الجدران وانطلق منه كلب أسود كبير لملاقاتهما وهو يزعق، ثم استحال قطةً سوداء انقضّت عليهما وهي تولول، فنهرها باسفروك قائلاً: "لا تنسعري ولا تَكلبي أيتها الشيطانة العجوز!" وتلفّظ بكلمات يغلق دونها الناس الطيبون آذانهم حتى لا يسمعوها، وإذا بالقطة تستحيل امرأةً عجوزاً مجعّدة الوجه كالتفاح المطهو، محنيّة الظهر حتى ليكاد أنفها وذقنها أن يلتقيا ككسّارة البندق.

"يا لها من حسناء!" قال بيترو في نفسه وسرت الرعشة في جسمه.

اختطفت الساحرة الزهرة من يده ثم انحنت فوقها وقضت وقتاً طويلاً وهي تهمس لها وترشّها بنوعٍ ما من الماء. كان الشرر يتطاير من فمها، وعلا الزبد شفتيها، ثم أعطت الزهرة لبيترو وقالت له: "ألقِ بها!" فألقى بيترو الزهرة في الهواء وإذا بها – رحماك يا ربّي! – لا تقع على الأرض بل تطفو في الهواء كالقارب مضيئةً ما حولها كأنها كرةٌ من النار، ثم بدأت تهبط بعيداً جداً بحيث

---

[1] نبات شوكي. (م)

بدت بالكاد كنجمة صغيرة لا يزيد حجمها عن بذرة الخشخاش. "هنا!" حشرجت العجوز بصوتٍ أصمّ، فقال له باسافروك وهو يناوله مجرفة: "احفر هنا يا بيترو، ولسوف تجد من الذهب ما لم تحلم به لا أنت ولا كورز".

تفل بيترو في يديه والتقط المجرفة وأخذ يقلّب الأرض بقدمه، مرة، فأخرى، فثالثة، فمرة أخرى... وإذا بشيءٍ صلب!... رنّت المجرفة وأبت أن تذهب أعمق، وهنا ميّزت عيناه بوضوح صندوقاً صغيراً مجلجلاً بالحديد، وحين هَمَّ برفع الصندوق بيديه غاص الصندوق في الأرض أعمق فأعمق، وتناهت إليه من من خلفه ضحكةٌ هي أقرب إلى فحيح الأفاعي.

"كلا، لن ترى الذهب حتى تريق دماً بشرياً!" قالت الساحرة ودفعت إليه بطفل في السادسة أو نحوها ملفوفاً بملاءة بيضاء، وأومأت إليه بإشارة بأن يقطع رأسه. جمد بيترو مكانه. مستحيل! فهو لن يقطع رأس إنسان لقاء أي شيء في الدنيا، فما بالكم بطفلٍ بريء لا ذنب له! ونزع الملاءة التي تغطي رأس الطفل بغضب، فماذا رأى؟ رأى إيفاس ماثلاً أمامه، وكان الطفل المسكين قد شبك يديه على صدره متدلي الرأس... فانقضّ بيترو على الساحرة كالمجنون والسكين في يده، وكان قد رفع يده ليطعنها حين صاح باسافروك صيحةً كالرعد اخترقت ظهره كرصاصة:

– وماذا عن الوعد الذي قطعته للفتاة؟...

دقّت الساحرة الأرض بقدمها فانبعث من الأرض لهبٌ أزرق أضاء جوف الأرض كلّه وصار كأنما صُنع من البللور، وتكشّف كل ما في باطن الأرض كأنما في راحة اليد، وظهرت أكوام مكوّمة من

الصناديق والقدور المليئة بالليرات الذهبية والحجارة الكريمة تحت أقدامهم حيث يقفون. توقّدت عينا بيترو، وتبلبل عقله، واختطف السكين كمن فقد عقله، وطَفَرَ الدم الطاهر أمام عينيه... وتعالت الضحكات الشيطانية من كل الأرجاء، وأخذت وحوش مخيفة قبيحة المنظر تتقافر أمامه قطعاناً، وأمسكت الساحرة الجثة المقطوعة الرأس بمخالبها، كالذئاب، وأخذت تشرب منها الدم... دارت الدنيا ببيترو وانطلق يعدو هارباً بكل ما أوتي من قوة. اصطبغ كل شيء حوله باللون الأحمر، وغرقت الأشجار في الدماء وبدت كأنها تشتعل وتئنّ، وأبرقت السماء وأرعدت، وومضت أمام عينيه ومضات من نار كالبروق. بلغ بيترو كوخه خائر القوى وهوى على الأرض كحزمةٍ من الحطب واستغرق في نوم كنومٍ موتى.

نام بيترو يومين متتاليين دون أن يستيقظ، وعندما استيقظ في اليوم الثالث ظلّ يعاين زوايا كوخه طويلاً، لكن عبثاً حاول أن يتذكر شيئاً مما جرى له: كانت ذاكرته كجيب البخيل اللئيم الذي يستحيل أن تُخرج منه قرشاً واحداً. وحين تمطّى قليلاً سمع صوت خشخشة عند قدميه، فنظر فإذا بكيسين مليئين بالذهب، وهنا تذكّر، كما لو كان يحلم، أنه كان يبحث عن كنزٍ ما، وأنه شعر بخوفٍ شديد وحيداً في الغابة... لكن ما الثمن الذي دفعه لقاء هذا الكنز؟ وكيف حصل عليه؟ هذا ما لم يستطع تذكّره بأي شكل من الأشكال.

حين رأى كورز الكيسين أخذ يلاطفه ويطريه بكذا وكيت وهو يقول: "أأنا لم أكن أحب بيترو؟ ألم يكن عندي بمنزلة الابن؟" ومضى العجوز الماكر مبالغاً في ثنائه حتى اغرورقت عينا بيترو بالدموع. وراحت بيدوركا تخبره كيف خطف الغجر الذين مرّوا بالجوار

إيفاس. لكن بيترو لم يستطع حتى تذكّر وجه الصبي: إلى هذه الدرجة عكّرت تلك الفعال الشيطانية ذاكرته!

لم يكن ثمة داعٍ لتأخير الأمر، فكالوا للبولندي ما يستحق وأخذوا يعدّون للزفاف: خبزوا الكعك، وطرّزوا المناشف والمناديل، وأخرجوا برميلاً من الفودكا، وأجلسوا الشباب إلى المائدة، وقطعوا كعكة الزفاف، وعزفوا على البَندورا والمزمار والكمنجة ودقّوا الصنوج، وانطلق اللهو والمرح...

إن حفلات الزفاف التي كانت تُقام في تلك الأيام لا تقارن بها حفلات أيامنا هذه. فقد كانت عمّة جدّي تحدّثنا عنها أحياناً: الولائم وحدها تكفي! كانت تخبرنا كيف كانت الفتيات - بأغطية رؤوسهنّ الصفر والزرق والوردية وقد عصبنها بضفائر ذهبية، وقمصانهنّ الرقيقة التي طُرِّزت كل ثنية فيها بالحرير الأحمر والمزيّنة بورود فضية صغيرة، وأحذيتهنّ السِّختيانية ذات الكعوب الحديدية العالية - يرقصنَ مطوِّفات كالطواويس ويدرنَ حول أنفسهنّ بصخب كالقُمريات حتى تحسب الواحدة منهنّ إعصاراً، وكيف كانت الزوجات الشابات - بقبعاتهنّ الشبيهة بالقوارب، المصنوعة قممها من الحرير الموشّى بالذهب والفضة، مع شقٍّ صغير في الخلف تلوح منه القبعة الذهبية، مع قرنين، أحدهما في الأمام والآخر في الخلف، من أنعم أنواع الفراء الأستراخاني الأسود، وبقفاطينهنّ الزرق ذات الأهداب الحمر والمصنوعة من أحسن أنواع الحرير - يتخوصرنَ في كبرياء ويتناوبنَ على الانخراط في حلقة الدبكة، وكيف كان الشبّان - بقبّعاتهم القوزاقية العالية، وستراتهم القطنية البديعة المشدودة بأحزمةٍ موشّاه بالفضة، وبأسنانهم المطبقة على

غلايينهم – يتقافزونَ أمامهنّ كالعفاريت ويقومون بشتى التفاهات. حتى كورز نفسه لم يتمالك نفسه حين شاهد الفتيان، فطلّق شيخوخته وتناول البَندورا وراح يغني والغليون في فمه وانخرط في الرقص وعلى رأسه قدح من النبيذ. ألا ما أغرب ما يتكره الناس حين يمرحون! فهم أحياناً يبدأون بوضع الأقنعة على وجوههم! ويا للهول! يبدو الواحد منهم أبعد شبهاً عن البشر! وليس مثل الملابس التي يرتديها الناس في أيامنا في حفلات الزفاف. ماذا يفعلون اليوم؟ إنّ كلّ ما يفعلونه هو تقليد الغجريات والموسكوفيين. أما في تلك الأيام فترى الواحد يضع قناع يهودي، والآخر قناع شيطان، ويبدآن بتقبيل بعضهما بعضاً، ثم يمسك واحدهما بتلابيب الآخر يريد نزع قنزعته عن رأسه... والله إنّ الضحك كان يستبدّ بالمرء حتى تؤلمه خاصرته. أو كانوا يرتدون ملابس تركية وترية، فكانت تتوهّج عليهم كالنار، وما إن يبدأون بالتحامق والعبث فإنهم لا يقفون عند حدّ... وحينئذ، تحمَّل إذا كان في مقدورك أن تتحمّل. وقد وقعت لعمّة جدّي، التي كانت في ذلك الزفاف، حادثةٌ مضحكة. فقد كانت ترتدي ثوباً ترياً فضفاضاً، وكانت تصبّ النبيذ للضيوف من إبريقٍ في يدها، وها هو الشيطان يوسوس لأحدهم بأن يدلق عليها الفودكا من الخلف، وقام آخر، لا يقل براعةً عن الأول فيما يبدو، بإشعال عود ثقاب وإضرام النار فيها، فتملّك الفزع العمّة المسكينة وهرعت ترمي عنها ملابسها جميعاً، فتعالى الصخب والضحك والضجيج كما في السوق! والحق أنّ كبار السن لا يذكرون زفافاً بلغ ما بلغه ذاك الزفاف من المرح.

بدأ بيترو وبيدوركا يعيشان حياتهما الزوجية كسيّد وسيّدة من

عليّة القوم. كل شيء وفير، وكل شيء يلمع... بيد أنّ الناس الطيبين بدأوا يهزّون رؤوسهم قليلاً حين شاهدوا النعيم الذي ينعمان فيه، وراحوا جميعاً يقولون بصوتٍ واحد: "من أين له هذه الثروة إن لم تكن من عند مغوي المسيحيين الصالحين، والعياذ بالله؟ من أين له هذه الأكداس من الذهب؟ ولِمَ اختفى باسافروك في اليوم نفسه الذي أثرى فيه بيترو، كأنما الأرض انشقّت وابتلعته؟" لعلكم تقولون إنّ الناس يختلقون هذه الأقاويل! ولكن لم ينقضِ شهر على هذه الحال حتى صار بيترو شخصاً غريب الأطوار بحيث لم يعد يعرفه أحد، ولا يعلم إلا الله ما السبب وماذا جرى له. فقد كان يجلس وحيداً لا يحرّك ساكناً ولا ينبس بكلمة، وكان طول الوقت يستغرق في التفكير كأنما يحاول تذكّر شيءٍ ما. وحين كانت بيدوركا تفلح في حمله على الكلام، كان يبدو أنه قد نسي ما يشغله فينخرط في الحديث، بل ويمرح أيضاً، ولكن ما إن يقع نظره عَرَضاً على الكيسين حتى يصيح: "توقفي، توقفي، لقد نسيت!" ويعود إلى تأملاته، ومن جديد يجهد محاولاً تذكّر شيءٍ ما. وأحياناً، حين يطول جلوسه في مكانه، يُخيَّل إليه أنه يكاد يتذكّر كل شيء، ولكن سرعان ما يغادر كل شيء ذاكرته ثانيةً. يُخيَّل إليه أنه كان جالساً في الحانة، ثم قُدِّمت له الفودكا، فألهبت جوفه وشعر بالغثيان لرداءتها، ثم دنا منه أحدهم وربت على كتفه... لكن كل ما جرى لاحقاً يبدو له ضبابياً. يتصبّب العرق على وجهه بغزارة، فيعود إلى الجلوس في مكانه المعتاد من شدّة الإنهاك.

لم تدّخر بيدوركا وسعاً ولم تترك شيئاً إلاّ وفعلته. فقد استشارت

العرّافين، وقام هؤلاء بصبّ الشمع في الماء، وأحرقوا تيلاً من القنّب[1]، ولكن دون جدوى. ومضى الصيف أيضاً على هذا النحو، وفرغ الكثير من القوزاق من حصد محاصيلهم وجمعها. كما أن الكثير من القوزاق، الأكثر تبطّلاً واستهتاراً من الآخرين، خرجوا للقتال والغزو. وكانت أسراب البط لا تزال تحتشد في مستنقعاتنا، لكن لم تعد هناك ولا صعوة[2] واحدة، واصطبغت السهوب باللون الأحمر، وتناثرت أكداس القمح، المبرقشة كقبعات القوزاق، في الحقول. وكنت تصادف أيضاً عربات مكدَّسة بالحطب والعيدان اليابسة. وازدادت الأرض صلابةً، بل وفي بعض المواضع ظهر الصقيع، حتى إن الثلج بدأ بالتساقط، واكتست أغصان الشجر فبدت كفراء الأرنب البري. وفي يوم شديد البرودة راح الدغناش[3] الأحمر الصدر يتبختر، كملاّكٍ بولنديٍّ أنيق، على كثبان الثلج بحثاً عن البذور، وكان الأطفال يدحرجون بعصي غليظة خذاريفهم الخشبية على الجليد، فيما آباؤهم يقبعون في هدوء على المواقد ويخرجون من حين إلى آخر والغلايين المشتعلة بين أسنانهم ليشتموا الصقيع بألفاظٍ لائقة ويروّحوا عن أنفسهم ويدرسوا الحنطة في مخازن الغلال.

وأخيراً بدأ الثلج بالذوبان وكسّر الكراكي الجليد بذيله كما يُقال.

---

١ من الممارسات الشعبية التي كانت شائعة في تلك الأيام. فكانوا إذا تملّك أحدهم الفزع يصبّون الشمع أو القصدير في إناء من الماء، وبموجب الشكل الذي يتخذه يتم تحديد سبب فزعه. وإذا شعر أحدهم بألم في بطنه، كانوا يحرقون قطعة من القنّب ويضعونها في إناء فيه ماء موضوع على بطن المريض، مع تلاوة التعاويذ، ثم يسقونه ملعقة من ذلك الماء. (الملحوظة لغوغول)

٢ من الطيور، أصغر من العصفور. (م)

٣ نوع من الطيور، ويسمّى أيضاً "الدقناش". (م)

وبيترو لا يزال على حاله، وكلّما مرّ الوقت ازداد تجهّماً وكآبةً. فكان يجلس في وسط الكوخ متسمّراً، كأنه مقيّد، واضعاً كيسي الذهب عند قدميه، مختلياً بنفسه، وترك شعره ينمو، وصار شكله مخيفاً، وهو لا ينفكّ يحاول تذكّر شيء ما، ويحنق ويغضب لكونه عاجزاً عن التذكّر. كثيراً ما كان ينتصب واقفاً ويحرّك يديه ويركّز نظره على شيءٍ ما كأنما يريد الإمساك به، وترتعش شفتاه كمن يريد النطق بكلمة نسيها منذ زمنٍ بعيد، ثم ينتصب واقفاً بلا حراك، ويستولي عليه الغضب فيعضّ ويقرض يديه بجنون، وينتف شعره في يأس، إلى أن يغرق في النسيان، فيهدأ، ثم يعاود الكرّة ثانيةً محاولاً أن يتذكّر، ويُجنّ ثانيةً، ثم يهدأ... ما هذا العقاب الإلهي؟ باتت حياة بيدوركا لا تُطاق، وفي أول الأمر صارت تخاف البقاء وحيدةً في البيت، ومن ثم ألفت المسكينة مصيبتها. لكن بات من المتعذّر التعرّف فيها على بيدوركا السابقة، فقد شحب لونها، واختفت ابتسامتها، وذوت ونحل جسدها وهَزُل، وكانت عيناها الصافيتان تذرفان الدموع.

ذات يوم نصحها أحدهم، واضح أنه شعر بالشفقة تجاهها، بالذهاب إلى الساحرة التي تعيش في "أخدود الدب" التي ذاع صيتها بأنها تشفي من كل أمراض الدنيا. قررت بيدوركا أن تجرّب هذه الوسيلة الأخيرة، وأقنعت الساحرة العجوز شيئاً فشيئاً بمرافقتها إلى البيت، وكان ذلك في ليلة عيد القديس يوحنا المعمدان بالضبط. كان بيترو مستلقياً على الدكّة غافلاً عمّا حوله ولم يلحظ الزائرة على الإطلاق. ولكن حين أن أخذ ينهض رويداً رويداً وينعم النظر فيها بدأ جسمه كله ينتفض كالمشنوق، ووقف شعر رأسه، ثم ضحك ضحكةً أدخلت الرعب في قلب بيدوركا، وصاح في فرحٍ مخيف:

"تذكّرت! تذكّرت!"، وتناول فأساً ولوّح بها ورمى الساحرة العجوز بها بكل قوّته، فانغرزت الفأس بوصتين في الباب المصنوع من خشب السنديان، فاختفت العجوز، وإذا بطفل في حوالي السابعة من العمر، في قميصٍ أبيض، رأسه مغطّى، يقف وسط الكوخ... طار الغطاء عن رأسه، فصاحت بيدوركا "إيفاس!" وهرعت نحوه. إلاّ أنّ الطيف كان ملطّخاً بالدماء من رأسه حتى أخمص قدميه، وانبعث منه ضوءٌ أحمر أضاء الكوخ كله. ركضت بيدوركا، لشدّة فزعها، إلى الممر الخارجي، وحين ثابت إلى رشدها أرادت أن تساعد أخاها، ولكن هيهات! فقد انصفق الباب خلفها بقوّة بحيث لم تقوَ على فتحه. هرع الناس وراحوا يقرعون الباب، ثم خلعوه ودخلوا فوجدوا الكوخ خالياً تماماً لا نأمة فيه ولا نَفَس ويغمره الدخان، وفقط في وسطِ الغرفة، حيث كان يقف بيترو، كان هناك كومٌ من الرماد لا يزال الدخان يتصاعد منه. انقضّوا على الكيسين فوجدوا مكان قطع الذهب كُسارات من القرميد. وقف القوزاق فاغري الأفواه، جاحظي الأعين، وقد تسمّروا في أماكنهم لا يجرؤون على تحريك حتى شواربهم لشدة الفزع، وكأنهم انغرسوا في الأرض... إلى هذا الحدّ أرعبتهم هذه الأعجوبة.

ولست أذكر ماذا جرى بعد ذلك. فقد نذرت بيدوركا أن تحجّ، فجمعت ما تبقّى مما تركه لها والدها من متاع، وبعد بضعة أيام اختفت من القرية تماماً، ولم يستطع أحد أن يخمّن أين ذهبت. زعمت بعض العجائز الثرثارات أنها لحقت ببيترو، غير أنّ قوزاقياً قَدِم يوماً من كييف وقال إنه رأى في الدير راهبةً ذوى جسمها حتى بدت كهيكلٍ عظميّ، منقطعة للعبادة، عرف فيها القرويون، حسب وصف الرجلِ

لها، بيدوركا. فقد قال إنّ أحداً لم يسمعها تنطق بحرف قط، وأنها وصلت الدير سيراً على الأقدام، وقدّمت عطيّةً لأيقونة السيدة العذراء مؤلفةً من حجارة كريمة متلألئة ينبهر لمرآها كل من يراها.

ولكن اسمحوا لي، فالقصة لا تنتهي هنا. ففي اليوم نفسه، الذي أخذ فيه الشيطان بيترو، ظهر باسافروك من جديد، إلا أن الجميع كانوا يهربون من دربه، فقد باتوا يعرفون أي مخلوق هو، إذ ما من أحد سوى الشيطان نفسه، متمثلاً في صورة إنسان، يمكنه استخراج كنز دفين من باطن الأرض. وحيث أن الكنوز لا تُمنح للأنجاس، فإنّ الشيطان يغوي الشبان الطائشين. وفي تلك السنة هجر الجميع أكواخهم وجيرانهم وانتقلوا إلى الناحية، ولكنهم حتى هناك لم يسلموا من باسافروك اللعين. وقالت عمّة جدّي المرحوم إنه حنق عليها بشكل خاص لأنها هجرت حانتها القائمة في طريق أبوشنيانسكايا، وأنه بذل كلّ ما في وسعه لينتقم منها.

وذات يوم اجتمع شيوخ القرية في حانتها، وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث حول المائدة، كلٌّ حسب قدره ومرتبته كما يُقال، وكان يتوسّط المائدة كبش مشوي من الإثم القول أنه كان صغيراً. وبينما هم يتحدثون عن كذا وكيت وعن شتى الأعاجيب والوقائع الغريبة، وبينما هم على هذه الحال إذا بالكبش يرفع رأسه، ودبّت الحياة في عينيه الفاجرتين ولمعتا - ولهان الأمر لو أنّ ذلك تراءى لواحدٍ منهم فقط، ولكنهم جميعاً شهدوا ذلك - ونبت له شارب أسود خشن في لحظة وأخذ يهتز في وجه الحضور بحركات ذات دلالة. وفي الحال تعرّف الجميع في رأس الكبش وجه باسافروك، بل إن عمّة جدّي خيِّل إليها أنه يوشك أن يطلب الفودكا.. فتخاطف

الشيوخ الأفاضل قبّعاتهم وهرعوا إلى بيوتهم.

وحدث في يوم آخر أنّ سادن الكنيسة نفسه، الذي كان يحبّ أحياناً أن يختلي بنفسه ويحتسي كأساً نخبَ الأسلاف، لم يكن قد أنهى كأسه الثانية بعد وإذا به يرى الكأس تنحني له راكعةً، فصاح: "ليأخذك الشيطان!" وراح يرسم إشارة الصليب!... وهنا وقع لزوجته أيضاً حادثٌ غريب. فما إن بدأت بخلط العجين في قصعة كبيرة، إذا بالقصعة تقفز فجأةً، فصاحت بها: "قفي، قفي!" لكن لا حياة لمن تنادي! فقد وضعت القصعة ذراعيها في خاصرتيها بكبرياء وراحت ترقص عبر الكوخ كله... لعل هذا يضحككم، لكن هذا لم يكن مثار ضحك عند أجدادنا. وعبثاً جال الأب أفاناسي القرية كلها يرشّ أرجاءها بالماء المقدّس ويطارد الشيطان بالمرشّة في الطرقات كلها، فقد ظلّت عمّة جدّي المرحوم تشكو زمناً طويلاً من أنّ أحدهم ينقر على السقف ويخربش على الجدار كلّما حلّ المساء.

مهلاً! قد يبدو لكم الموضع الذي تقوم فيه قريتنا الآن ينعم بالسكينة، ولكن حتى إلى عهدٍ ليس ببعيد، حتى المرحوم أبي يذكره، بل أنا نفسي أذكره، كان يستحيل على الناس الطيبين المرور بجوار الحانة الخربة، التي رمَّمها الأنجاس على حسابهم بعد ذلك بأمدٍ طويل. فقد كانت أعمدة الدخان تتصاعد من المدخنة التي يعلوها السخام وتبلغ عنان السماء - إلى درجة أن قبّعة المرء تقع عن رأسه إذا ما تطلّع إليها - ثم يتساقط الجمر الحارق على السهب كله، فيما الشيطان - وقانا الله ذكره ابن الكلب هذا - ينتحب في جحره نادباً بحيث تطير أسراب الغربان فزعةً من غابة البلوط القريبة وتحلّق في السماء مطلقةً نعيباً وحشياً.

ليلة أيّارية، أو الغريقة

لحاهم الله المسيحيون،
ما إن يشرعوا في عملٍ ما
حتى يرهقوا أنفسهم كَمن يطارد أرنباً،
ورغم ذلك بلا جدوى.
أما إذا تدخّل الشيطان، فيكفي أن يفتل ذيله
حتى يُسقَط في أيديهم
ولا يدرون ماذا يفعلون لولا عون السماء.

– ١ –

حنّة

كانت أغنيةٌ رنّانة تنساب في طرقات القرية انسياب النهر، وكان ذلك حين يتجمّع الفتيان والفتيات المنهكين من الأعمال والأشغال في حلقة في ألق المساء الصافي، فيسكبون مرحهم أصواتاً يشوبها الشجن دائماً.

وكان المساء الشارد يعانق حالماً السماء الزرقاء التي تضفي الغموض والبُعد على كل شيء. ورغم حلول الغسق إلاّ أنّ الغناء لم يهدأ. انفصل عن زمرة المنشدين القوزاقي الشاب، ابن مختار القرية، ليفكو وفي يده آلة البَندورا، وعلى رأسه قبعة شبكية من القش، وأخذ القوزاقي الشاب يمشي في القرية وهو يضرب على أوتار البَندورا ويرقص. وها هو يتوقف في هدوء أمام بيت تحيط به شجيرات كرز واطئة. بيت من هذا؟ وباب من؟ وبعد أن صمت قليلاً، أخذ يعزف ويغنّي:

الشمس انحدرت واقترب المساء
فاخرجي إليّ يا قلبي!

بعد أن أنهى الشاب أغنيته دنا من النافذة وقال: "لا، يبدو أن جميلتي الرائقة العينين تغطّ في نوم عميق! أأنت نائمة يا عصفورتي أم لا تريدين الخروج إليّ؟ يبدو أنك تخشين أن يرانا أحد، أم لا تريدين أن تطلّي بوجهكِ الفاتن في البرد! لا تخافي، ما من أحد هنا، والبرد انقشع. وإن ظهر أحد غطيتك بسترتي ولففت حزامي حول خصرك وحجبتك بيدَيّ، فلا يرانا أحد. وإن هبّت نسمة باردة ضممتك إلى قلبي وأدفأتك بقبلاتي وغطّيت قدميك الصغيرتين البيضاوين بقبّعتي. أطلّي عليّ يا قلبي، يا عصفورتي وقرّة عيني! أو مدّي يدك البيضاء الصغيرة من النافذة على الأقل"، ثم رفع صوته بنبرة تنمّ عن خجله من أنه أذلّ نفسه: "كلا، لست نائمة أيتها الحسناء المتكبّرة، وإنما يسرّك أن تسخري مني، وداعاً!" ثم استدار، وأمال قبّعته على رأسه، وابتعد باعتزاز عن النافذة وهو يداعب أوتار آلته برقّة. وفي هذه اللحظة دار مقبض الباب الخشبي وانفتح الباب على مصراعيه بصرير، وأطلّت

فتاة في ربيعها السابع عشر في عتمة الباب واجتازت العتبة دون أن تفلت مقبض الباب. لمعت عيناها الصافيتان كنجمتين في نصف العتمة، وتلألأت قلادتها المرجانية الحمراء، وحتى حمرة الخجل التي تورّدت على خدّيها لم تخفَ على الشاب ذي العينين النسريتين.

قالت الفتاة بصوت خافت:

– يا لقلّة صبرك! ما لك انزعجت هكذا؟ ولِمَ اخترت هذا الوقت؟ فجموع الناس ما زالت تتسكّع في الطرقات... وأنا كلّي أرتجف...

نزع الفتى آلة البَندورا المعلّقة بسيرٍ جلدي في رقبته ووضعها جانباً، ثم جلس إلى جانبها عند عتبة الباب وطوّقها بذراعيه وقال:

– أوه، لا تفزعي يا خوختي الجميلة! التصقي بي أكثر، فإنك تعلمين كم أشعر بالعذاب إن غبتِ عن عيني ولو ساعة واحدة.

قالت الفتاة محدّقةً فيه باستغراق:

– أتدري فيمَ أفكّر؟ كأنما شيء ما يهمس في أذني بأننا لن يتسنّى لنا أن نلتقي كثيراً في المستقبل. فالناس عندنا ليسوا طيبين: الفتيات يرمقنني في حسد، أما الشبان... بل ألاحظ أنّ حتى أمي صارت تتشدّد أكثر في مراقبتي في الآونة الأخيرة. أقرّ بأنني كنت سعيدةً أكثر عندما كنت أعيش وسط الأغراب.

وعلت وجهها مسحةٌ من الحزن عند تلفّظها بالكلمات الأخيرة.

– لم يمضِ على إقامتكِ في مسقط رأسك سوى شهرين وها أنتِ تشعرين بالملَل! لعلّك مللتني أنا أيضاً؟

ابتسمت وقالت تلاطفه:

– أوه لا، لم أملّ منك، فأنا أحبّك أيها القوزاقي الأسود الحاجبين، وأحب عينيك العسليتين، وأحب كيف تنظر إليّ! حينها يفيض قلبي

بالسعادة، وأشعر بالفرح والبهجة حين تفتل شاربك الأسود ببشاشة، وأحب أنك تسير في الشارع وتغنّي وتعزف على البَندورا، وأحب الاستماع إلى عزفك وغنائك.

– آه يا حبيبتي! هتف الشاب وهو يقبّلها ويضمّها إلى صدره بقوّة.

– توقّف! كفى يا ليفكو! أخبرني أولاً: هل كلّمت والدك؟

فقال كمن استيقظ من النوم:

– بخصوص ماذا؟ بأنني أريد أن أتزوّجك، وأنكِ ستكونين زوجتي؟ نعم كلّمته.

لكنّ كلمة "كلّمته" رنّت على شفتيه بشيءٍ من الحزن والأسى.

– وماذا قال؟

– وما حيلتي معه؟ لقد تظاهر الوغد العجوز بالصمم كعادته، وفضلاً عن تظاهره بأنه لا يسمع شيئاً، أخذ يوبّخني على تسكّعي الله يعلم أين، وعلى أنني أعبث وأمرح مع رفاقي في الشوارع. لكن لا تحزني يا حبيبتي، فإني أعدك وعد القوزاقي بأن أجعله يلين.

– حسبك، يا ليفكو، أن تنطق بالكلمة حتى يتم كل شيء كما تشاء. وإني أعرف ذلك من نفسي، فأحياناً يخطر لي ألاّ أطيعك، ولكن ما إن تطلب شيئاً حتى أمتثل لك رغماً عني.

وألقت رأسها على كتفه ورفعت عينيها إلى السماء الأوكرانية الحانية الشديدة الزرقة من خلال أغصان أشجار الكرز الكثيفة الأوراق المنتصبة أمامهما وبدت معلّقةً بالسماء، ومضت تقول:

– انظر، انظر، ها هي النجوم تتلألأ في السماء البعيدة: واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس... أليس حقاً أنها ملائكة الله تفتح نوافذ مساكنها المتألقة في السماء وتنظر إلينا؟ أليس كذلك يا ليفكو؟ أليست

هي الملائكة ترنو إلى أرضنا؟ ماذا لو أنّ للناس أجنحةً كالطيور! لكانوا طاروا إلى هناك، عالياً، عالياً... أوخ، هذا مخيف! ما من شجرة سنديان واحدة عندنا تبلغ عنان السماء. لكن يقال إن ثمة شجرة في بلادٍ نائية تبلغ قمتها السماء حقاً، وأنّ الله سينزل عليها في ليلة عيد الفصح.

– كلا يا حنّة، فإن لله سلّماً طويلاً يمتد من السماء إلى الأرض. سينصبه رؤساء الملائكة قبل عيد الفصح المبارك، وما إن يخطو الله على الدرجة الأولى منه حتى تهوي الأرواح الشريرة زمراً في قرار الجحيم، ولهذا تختفي الأرواح الشريرة كلها من على وجه الأرض في عيد قيامة المسيح.

– يا لهدوء خرير الماء، كأنه طفلٌ راقد في مهده! – أردفت حنة مشيرةً إلى البركة التي تحيطها غابة الإسفندان الداكنة بتجهّم وتنوح عليها أشجار الصفصاف وتحنو عليها بأغصانها الحزينة. إنها تضمّ السماء البعيدة المظلمة في أحضانها الباردة، كعجوزٍ بلا حول ولا قوة، وتوزّع قبلاتها الجليدية على النجوم المتّقدة التي تومض في خفوت في هواء الليل الدافئ، كأنها تحسّ بقرب ظهور ملك الليل المتألّق. وعلى التل، بجوار الغابة، هجع كوخٌ عتيق بمصاريع نوافذه المغلقة، وقد غطّت الطحالب والأعشاب البرية سطحه، ونمت أشجار تفاح كثيفة الأوراق أمام نوافذه، وكانت الغابة تلقي عليه بظلالها وتضفي عليه مظهراً كالحاً موحشاً، ونبت دغلٌ من أشجار البندق عند قوائم البيت ينحدر حتى يصل إلى البركة.

قالت حنّة دون أن تبعد نظرها عن البيت:

– إنني أذكر، كما لو في الحلم، منذ زمنٍ بعيد، عندما كنت صغيرة

وأقيم عند أمّي، أن الناس كانوا يروون قصةً مخيفة عن هذا البيت. ولعلك تعرفها يا ليفكو. احكِها لي!...

– دعكِ من ذلك يا جميلتي! فإن العجائز والحمقى لا ينفكّون يروون شتى الحكايات، ولن ينالك منها سوى الفزع والهلع، وستعجزين عن النوم الهانئ.

عانقته حنة وضغطت بوجهها على خدّه وقالت:

– هيّا قصّها عليّ يا فتاي الأسود الحاجبين! كلا! يبدو أنك لا تحبني، وأنّ لديك فتاةً أخرى غيري. لن أخاف، وسأنام نوماً هانئاً. أما إن لم تحكها لي فسيجافيني النوم وأنهك نفسي بالتفكير فيها... هيّا احكِها لي يا ليفكو!...

– يبدو أن الناس محقون في قولهم بأن شيطاناً يتلبّس الفتيات ويثير فضولهنّ. فاسمعي إذن يا روحي.

منذ أمدٍ بعيد كان يقيم في هذا البيت ضابطٌ من القوزاق، وكانت له ابنةٌ حسناء كأنها أيقونة، بيضاء كالثلج، كبياض وجهك الصغير. وكانت زوجة الضابط قد توفيت منذ وقتٍ طويل، فخطر له أن يتزوج بأخرى. سألته ابنته: "هل سترعاني كما في السابق يا أبتِ حين تتّخذ لك زوجةً أخرى؟" فأجاب الأب: "سأفعل يا بنيتي، بل سأضمّك إلى قلبي بقوة أشدّ مما سبق! وسأهدي إليك، يا بنيتي، أقراطاً وقلائد أشدّ ألقاً من سابقاتها!".

وهكذا جلب الرجل زوجته الشابة إلى بيتها الجديد، وكانت امرأةً حسناء، بيضاء الوجه، مورّدة الخدين. إلاّ أنها حدجت ابنة زوجها بنظرة مخيفة جعلتها تصرخ عند رؤيتها، ولم تنبس زوجة الأب الشرسة بكلمة واحدة طول اليوم. ولما حلّ الليل، ومضى الأب مع

زوجته الشابة إلى مخدعهما، وأغلقت الفتاة الحسناء باب غرفتها عليها، شعرت بالأسى وراحت تبكي. وعندما رفعت رأسها رأت قطةً سوداء مخيفة تتسلل إليها، وكان وبرها يتّقد كالنار ومخالبها الفولاذية ترنّ على الأرض. لشدّة فزعها قفزت الفتاة إلى الأريكة، فلحقت بها القطة، فوثبت الفتاة تعتلي دكّة الموقد، فحذت القطة حذوها وانقضّت على رقبتها وأخذت تخنقها. صرخت الفتاة وأبعدت القطة عنها وألقت بها على الأرض، لكن القطة المخيفة عادت تزحف نحوها ثانيةً. تملّك الهلع الفتاة، وكان سيف أبيها معلّقاً على الجدار، فانتزعته وخبطته بالأرض فطار أحد براثن القطة الفولاذية واختفت وهي تزعق في ركنٍ مظلم من أركان الغرفة.

أما الزوجة الشابة فلم تغادر مخدعها طوال يومين، وفي اليوم الثالث خرجت معصوبة الذراع، فأدركت الفتاة المسكينة أنّ زوجة أبيها ساحرة، وأنها قد قطعت يدها.

وفي اليوم الرابع أمر الأب ابنته أن تجلب الماء وتكنس بالبيت، كأنها ليست سوى فلاحة من الفلاحات، ومنعها من دخول غرف النوم. صَعُب الأمر على المسكينة، لكن لم يكن في اليد حيلة، فأخذت تنفّذ إرادة والدها.

وفي اليوم الخامس طرد الضابط القوزاقي ابنته من البيت حافية القدمين، حتى من دون أن يعطيها كسرة خبز زوّادةً للطريق. وعندها فقط ناحت الفتاة باكيةً، وقد غطت وجهها الأبيض بيديها، وصرخت: "لقد قضيت على ابنتك التي من لحمك ودمك يا أبتاه! لقد أهلكتْ الساحرة روحك الآثمة! سامحك الله، وأما أنا الشقية، فيبدو أن مشيئته قد قضت عليّ بالرحيل عن هذه الدنيا!..."

ثم أشار ليفكو لحنّة بإصبعه باتجاه البيت وأردف يقول:

– ومن هناك، هل ترين... انظري في ذاك الاتجاه، هناك حيث الضفة العالية وراء البيت، من تلك الضفة ألقت الفتاة بنفسها في الماء، ومنذ ذلك اليوم اختفت من الدنيا...

قاطعته حنّة في هلع وهي ترمقه بعينين دامعتين:

– والساحرة؟

– الساحرة! تعتقد العجائز أنّ جميع الفتيات اللواتي أغرقنَ أنفسهنّ يخرجنَ إلى حديقة البيت منذ ذلك الحين في الليالي المقمرة ليتدفأنَ في ضوء القمر، وأن ابنة الضابط صارت رئيسةً عليهنّ. وذات ليلة رأت زوجة أبيها بجانب البحيرة، فانقضت عليها وأخذت تجرّها إلى الماء وهي تصرخ. لكن الساحرة استخدمت سحرها هنا أيضاً، فقد تجسّدت في صورة إحدى الغريقات تحت الماء، ونجت بذلك من السياط المجدولة من القصب الأخضر، التي كانت الغريقات ينوينَ أن يجلدنَها بها، على ذمّة العجائز! ويروينَ أيضاً أن ابنة الضابط تجمع الغريقات كل ليلة وتعاين وجوههنّ كلاً على حدة محاولةً معرفة أيهنّ الساحرة، لكنها لم تتمكن من معرفتها حتى الآن. وكلّما وقع أحدهم في يدها فإنها تجبره في الحال على التكهّن أيّ الغريقات هي الساحرة، فإن لم يحزر فإنها تغرقه. هاك، يا عزيزتي حنّة، ما يرويه كبار السنّ!... أما مالك الأرض الحالي فيريد إقامة معمل لتقطير الخمور في ذلك الموضع نفسه، وقد أرسل مُقطِّراً للخمور إلى هنا خصيصاً لهذا الغرض... لكنني أسمع أصواتاً، إنهم رفاقي عائدون من السهرة. وداعاً يا حنّة! طابت ليلتك، ولا تفكري في تهريفات العجائز هذه!

بعد أن قال ذلك، احتضنها بقوة وقبّلها ومضى. فقالت حنّة وهي

تحدّق ساهمةً في الغابة المظلمة:

- وداعاً يا ليفكو!

في هذه اللحظة بدأ قمرٌ متوهجٌ كبير ينفصل عن الأفق بإجلالٍ وعظمة. ورغم أن نصفه كان لا يزال مختفياً وراء الأفق، إلاّ أنه غمر الكون كله بضوئه المهيب، وأخذت أشعته تلامس سطح البحيرة، وتمايزت ظلال الأشجار بوضوح على العشب القاتم.

تردّد صدى كلماتها من خلفها مشفوعةً بقبلة:

- وداعاً يا حنّة!

فقالت حنة: "هل عدت أم ماذا؟" والتفتت إلى الخلف، لكنها رأت شاباً لا تعرفه فأشاحت بنظرها جانباً.

"وداعاً يا حنّة!" تردّد ذلك ثانيةً، ومن جديد طبع أحدهم قبلةً على خدّها، فقالت غاضبة:

- ها قد جاء الشيطان بفتى آخر!

- وداعاً يا حنّة العزيزة!

- وثالث أيضاً!

- وداعاً! وداعاً! وداعاً يا حنّة!

وانهمرت عليها القبلات من كل الجهات، فصاحت حنّة: "إنهم عصبة كاملة هنا!" وراحت تنتزع نفسها من بين حشد الفتية الذين كانوا يتزاحمون على احتضانها، وهي تقول: "ألا يسأمون هذا التقبيل بلا انقطاع! والله قريباً سيتعذر عليّ الخروج إلى الشارع!" وعلى أثر هذه الكلمات انصفق الباب ولم يُسمَع بعد ذلك سوى صرير المزلاج الحديدي وهو ينغلق.

- ٢ -

المختار[1]

هل شهدتم ليل أوكرانية يوماً؟ أوه، إنكم لا تعرفون إذن كيف يكون الليل في أوكرانيا! فاسمعوا إذن.

يطلّ القمر من كبد السماء، وقبّة السماء الرحبة تزداد رحابةً، ويتوهّج القمر ويتنفس فيغمر الأرض كلها بضوئه الفضي، والهواء باردٌ منعش، وهذا المحيط المليء بالنعيم يتحرك ناشراً عبيره في الأرجاء. إنه ليلٌ مبارك! ليلٌ ساحر! الغابات ساكنة ملهمة يخيّم عليها الظلام وتلقي ظلالاً ضخمة على الأرض، والبحيرات هادئة وساكنة، تحيط بمياهها الباردة القاتمة بتجهّم جدران البساتين الخضر الداكنة، وتمدّ أدغال البطم والكرز البكر جذورها في وجل إلى برودة الماء الرقراق، تخشخش بأغصانها من حين إلى آخر، كأنما هي غضبى وساخطة، حين يتسلل إليها النسيم الرائع، نسيم الليل، ليقبّلها. الطبيعة

١ في الأصل: "الرأس"، أي الرئيس أو الزعيم، وهنا المقصود "شيخ القرية" أو "مختار القرية". وقد استخدمنا كلمتي "رئيس" و"مختار" حسب السياق. (م)

كلها هاجعة، وفي الأعلى كل شيء يتنفس، كل شيء ساحر، كل شيء فاتن. وتمتلئ النفس بالرحابة والافتتان، وحشود الرؤى الفضية تنفذ إلى أعماقها بإيقاع متناغم. يا له من ليلٍ مبارك! يا له من ليلٍ ساحر! وفجأةً تدبّ الحياةً في كل شيء: في الغابات والبحيرات والسهوب. يتعالى صياح البلبل الأوكراني الرائع، ويُخيّل للمرء أن القمر نفسه ينصت إليه في كبد السماء... يا لروعة هجوع القرية الغافية على الرابية! وأجمل منها حشد الأكواخ المتألقة في ضوء القمر، وجدرانها الواطئة تنعكس بضوءٍ أشدّ سطوعاً في الظلام. كانت الأغنيات قد سكتت، وران السكونُ على كل شيء، وأخلد الصالحون إلى النوم، ولم يتبقّ سوى بضع نوافذ صغيرة هنا وهناك ينبعث منها الضوء، وأمام عتبات أبواب بعض البيوت تتناول بعض العائلات عشاءها المتأخر.

وكان فلاحٌ ثمل في منتصف العمر يرقص في الشارع وهو يقول بينه وبين نفسه:

– نعم، ليس هكذا تُدبك الدبكة! أنظرُ وأنظر، ولكن لا يستقيم الأمر هكذا. ترى ماذا كان يقول نسيبي؟... آه نعم: هوب ترالا! هوب ترالا! هوب، هوب، هوب! قسماً بالله لا تُدبَك الدبكة هكذا! لِمَ قد أكذب! والله ليس هكذا! فلأجرّب مرة أخرى: هوب ترالا! هوب ترالا! هوب، هوب، هوب!

صاحت امرأة طاعنة في السنّ كانت تمرّ به وفي يدها حزمة من القش:

– انظروا إلى هذا الأحمق! ولا بأس لو كان فتىً يافعاً، ولكنه خنزير هرِم يرقص في الطريق ليلاً. ستغدو مسخرةً للأولاد. هيّا اذهب إلى بيتك، فقد آن أوان النوم منذ وقتٍ بعيد!

توقف الرجل عن الرقص وقال:

– أنا ذاهب، ذاهب. ولست أحفل بأي رئيس. أيظنّ أنه رئيس القرية – أدعو الله أن يتجلّى الشيطان لأبيه – فقط لأنه يسكب الماء البارد على الناس في الصقيع، ويتبختر شامخاً بأنفه! وليكن، رئيس، رئيس. لكن لا رئيس لي سواي، وليقصف الله عمري، ليقصف الله عمري إن لم أكن رئيس نفسي. هذه هي الحقيقة، وليس كما...

ومضى يتمتم بكلامٍ ما إلى أن بلغ أول بيتٍ صادفه، فوقف أمام النافذة ومرّ بإصبعه علىٰ الزجاج محاولاً العثورَ على مقبض الباب، ثم صاح:

– افتحي الباب يا امرأة! هيّا افتحي بسرعة أقول لك! لقد آن للقوزاقي أن يأوي إلى فراشه!

صاحت به بعض الفتيات من خلفه كنّ عائدات من سهرة مرحة وهنّ يضحكن:

– إلى أين يا كالينيك؟ هذا ليس بيتك. هل ندلّك على بيتك؟

– هيّا أرشدنني إليه أيتها الفتيات اللطيفات.

انبرت إحداهنّ تقول وقد التقطت النكتة:

– الفتيات اللطيفات! أسمعتنّ؟ يا له من لبق كالينيك هذا! ولهذا يجب أن ندلّه على بيته.. لكن مهلاً، ارقص لنا أولاً.

فقال كالينيك في تثاقل وهو يضحك ويتوعّدهنّ بإصبعه ويخطو إلى الأمام مترنّحاً لأنه كان عاجزاً عن الثبات في مكانه:

– أرقص؟ يا لكنّ من ماكرات! وهل ستسمحنَ لي بتقبيلكنّ إذا رقصت؟ جميعكنّ، الواحدة تلو الأخرى، جميعكنّ...

وأخذ يركض وراءهنّ بخطى مترنّحة.

علا صراخ الفتيات وهممنَ بالهرب، ولكنهنّ حين رأينَ أن كالينيك بالكاد يجرجر قدميه استعدنَ رباطة جأشهنّ وهرعنَ إلى الجانب الآخر من الطريق، ثم صحنَ به وهنّ يبتعدنَ مشيرات إلى بيت أكبر من سائر بيوت القرية: "ها هو كوخك!" وكان الكوخ يعود لمختار القرية. امتثل كالينيك لأمرهنّ وحثّ خطاه إلى حيث أشرنَ، وهو يشتم مختار القرية من جديد.

لكن من يكون مختار القرية هذا الذي جلب لنفسه كل هذه الآراء والأقوال المذمومة؟

الحق أنه شخصية مهمة في القرية، ولا شك أننا سنلحق أن نُعرِّف به بعض الشيء إلى أن يبلغ كالينيك نهاية الطريق. كان كل من في القرية يخلع قبّعته عند رؤيته، وكانت كل الفتيات، حتى أصغرهنّ سنّاً، يلقينَ عليه التحية. مَنْ مِنَ الشبّان لا يتمنى أن يكون مختار القرية! كان مباحاً له تناول السعوط من علبة أيٍّ كان، وكان "أجدع" الفلاحين يقف باحترام، وقبعته في يده، حين يغمس الرئيس أصابعه المكتنزة الغليظة في علبة سعوطه الشعبية الرخيصة. وفي مجلس القرية، رغم أن سلطانه كان لا يتعدى بضعة أصوات، كان رأيه دائماً هو الأعلى، ويرسل بمشيئته وحدها تقريباً أياً كان لتعبيد الطرق أو حفر الخنادق. المختار عبوس، صارم المظهر، ومقتصد في الكلام. ومنذ أمد بعيد، بعيد جداً، عندما قصدت الإمبراطورة العظيمة كاترينا – طيّب الله ثراها – القرم، تمّ اختياره في مراسم موكبها، وقد ظلّ في منصبه ذاك يومين كاملين، بل وعُدَّ أهلاً للجلوس بجوار حوذي الإمبراطورة. ومنذ ذلك الحين تعلّم المختار أن يحني رأسه بحركة تنمّ عن التأمّل وخطورة الشأن، وأن

يمسح على شاربه الطويل المعقوف إلى أسفل، وأن يرمق الناس بنظرات كنظرات الصقر من تحت جابيه. ومنذ ذلك الوقت، أياً كان موضوع الحديث، تعلّم الرئيس كيف يدير دفة الحديث إلى كيفية مواكبته الإمبراطورة وكيف جلس في مقعد حوذي عربتها. ويحب المختار أحياناً التظاهر بالصمم، لا سيما إن كان فحوى الكلام مما لا يريد سماعه. وكان لا يطيق أبداً التهندم والتأنّق في الملابس، وكان دائماً يرتدي سترةً سوداء من الجوخ المنزلي، ويتمنطق بحزام من الصوف الملوّن، وما من أحد شاهده قط في زيٍّ آخر، إلاّ اللهمّ أثناء زيارة الإمبراطورة إلى القرم، حيث ارتدى في تلك المناسبة شملةً قوزاقية زرقاء اللون. لكن هيهات أن يتذكر أحد من أهل القرية ذلك الزمن، أما الشملة فلا يزال يحتفظ بها في صندوق مقفل. وكان مختار القرية أرمل، ولكن كانت تقيم معه في الدار أُخت زوجته، التي كانت تطهو له طعام الغداء والعشاء، وتنظف الأرائك، وتبيّض الكوخ بالكلس، وتحوك له القمصان، وتدير شؤون البيت. ويُقال في القرية إنها لا تمتّ إليه بأيّة صلة قربى، لكننا رأينا أنّ الكثيرين كانوا لا يضمرون الخير للمختار، ممن كان يطيب لهم إطلاق شتى الافتراءات. بيد أنه ربما كان مردّ تلك الشائعات أن زوجة الأخت كانت تعبّر عن استيائها كلما خرج المختار إلى حقلٍ تحصده فتيات، أو قام بزيارة قوزاقي له ابنة جميلة. وكان المختار أعور، لكن عينه الوحيدة تلك كانت من الدهاء بحيث تلمح فلاحةً مليحة من مسافة بعيدة، إلا أنه لم يكن يصوّبها إلى وجه فاتن قبل أن يتلفّت حوله جيداً ليرى إن كانت أخت زوجته تراقبه أَم لا.

ها نحن قد قلنا كل ما ينبغي قوله فيما يخصّ مختار القرية في حين

لم يقطع كالينيك السكران نصف الطريق، وكان لا يزال يسبغ على مختار القرية شتى النعوت المنتقاة بعناية، بقدر ما يسمح له لسانه البطيء الثقيل المتلعثم.

– ٣ –

الغريم غير المتوقّع

المكيدة

قال ليفكو لرفاقه العابثين الذين كانوا يحاولون إقناعه بمشاركتهم في ملاعيب جديدة:

– كلا يا رفاق، لا أريد. ما هذا العبث! ألم تملّوا من اللهو؟ فحتى من دون ذلك يعلم الله أننا قد ذاع صيتنا كمجموعة من السفلة الأوغاد. يستحسن أن تذهبوا للنوم. وداعاً يا إخوان. طابت ليلتكم.

ومضى في الشارع بخطىً عجولة مبتعداً.

"ترى هل نامت حنّتي الصافية العينين؟" تساءل وهو يدنو من البيت ذي أشجار الكرز الذي بات معروفاً لنا. تناهت إليه أصوات خافتة في هدأة الليل، فتوقف ليفكو، ولاح له قميص أبيض بين الأشجار، فقال في نفسه: "ما معنى هذا؟" وتسلّل إلى مسافة أقرب وتوارى خلف إحدى الأشجار. لمع وجه الفتاة الواقفة أمامه في ضوء القمر... إنها

حنّة! لكن من يكون هذا الرجل الطويل الذي يوليه ظهره؟ لكن عبثاً حاول التعرّف عليه، فقد كان الظل يغمره من رأسه حتى قدميه، وفقط من الأمام كان ضوء القمر ينيره قليلاً. لكن أدنى خطوة من ليفكو كانت كفيلة لتعريضه لخطر الانكشاف، فالتصق بالشجرة بهدوء وقرر البقاء مكانه. لفظت الفتاة اسمه بوضوح، فقال الرجل الطويل بصوتٍ أجشٍّ خافت:

– ليفكو؟ إنه لا يزال غرّاً! ولو شاهدته معك يوماً لأنتزعنّ ناصيتيه عن جلدة رأسه...

تمتم ليفكو بصوتٍ خافت: "بودّي لو أعرف من يكون هذا المحتال الذي يتفاخر بأن ينزع ناصيتي عن جلدة رأسي" ومطّ رقبته حتى لا تفوته أيّة كلمة مما يُقال، لكن الشخص المجهول واصل كلامه بالصوت الخفيض نفسه بحيث تعذّر عليه سماع أيّ شيء.

قالت حنّة حين أنهى الرجل كلامه:

– ألا تخجل من نفسك؟ أنت تكذب. إنك تخدعني. أنت لا تحبني، ولن أصدّق أبداً أنك تحبني.

أردف الرجل الطويل يقول:

– أعلم أنّ ليفكو قد أخبرك عني الكثير من الهراء، وأنه لعب بعقلك.

هنا شعر ليفكو أن صوت الرجل ليس غريباً تماماً على مسمعه وأنه سبق له أن سمعه من قبل. وواصل المجهول كلامه على المنوال نفسه:

– لكنني سأجعل ليفكو يعرف معدني الحقيقي! إنه يظن أنني لا أرى دسائسه وغرامياته كلها. لسوف أذيق ابن الكلب هذا طعم قبضتي.

عند سماعه ذلك لم يعد ليفكو قادراً على كبح جماح غضبه، فخطا ثلاث خطوات وطوّح بقبضته بكل ما أوتي من قوة ليناول الرجل لطمةً على أذنه ما كان الرجل على الأرجح ليبقى واقفاً على قدميه لشدّتها، على الرغم مما يبدو عليه من القوة والصلابة، ولكن في تلك اللحظة سقط ضوء القمر على وجه الرجل فتسمّر ليفكو مكانه حين رأى أن الرجل الواقف أمامه لم يكن سوى والده. وفقط اهتزاز رأسه اللاشعوري وصرير أسنانه الخفيف عكسا دهشته وذهوله. وسُمِع صوت صرير جانباً: كانت حنّة قد هرعت إلى البيت مسرعةً وصفقت الباب وراءها.

صاح في هذه اللحظة أحد الشبّان وهو يتسلّل ويطوّق مختار القرية بذراعيه: "طابت ليلتك يا حنّة!" ثم ما لبث أن وثب إلى الخلف مذعوراً حين وقعت عينه على شارب المختار الخشن.

"طابت ليلتك أيتها الحسناء!" هتف آخر، لكن الرئيس هذه المرة دفع الشاب دفعةً قوية طوّحت به في الهواء.

"طابت ليلتك، طابت ليلتك يا حنّة!" هتف بضعة شبّان معاً وقد تعلّقوا برقبة المختار، فصاح المختار وهو يدفعهم ويركلهم بقدميه:

- انقلعوا من هنا أيها الأشقياء! ما شأنكم وحنّة! فلتُشنَقوا أنتم وآباؤكم يا أولاد الشياطين! يتساقطون عليها تساقط الذباب على العسل! لن أسمح لكم بلمس شعرة من حنّة!...

صاح الشبّان: "إنه المختار! إنه مختار القرية!" وفرّوا هاربين في كل اتجاه.

بعد أن أفاق ليفكو من ذهوله، قال وهو يشيّع مختار القرية بنظراته ويكيل له الشتائم: "هذا هو أبي على حقيقته إذن! انظر أيّ دسائس

ينسج خيوطها من وراء ظهرك يا ليفكو! حسناً! وأنا كنت أُدهَش وأتساءل لِمَ يتظاهر بالصمم كلما هممت بمفاتحته بالموضوع! حسناً أيها الوغد العجوز، سأريك كيف تكون عاقبة التسكّع تحت نوافذ الفتيات، وأُعلّمك معنى أن تغوي حبيبات الآخرين!" ثم صاح ملوّحاً بيده للشبّان الذين تجمّعوا ثانيةً:

– هيه يا شباب! إليّ، إليّ! تعالوا هنا! لقد نصحتكم بالذهاب إلى النوم، لكنني غيّرت رأيي الآن، وأنا مستعد للّهو معكم طول الليل.

فقال شاب بدين عريض المنكبين يُعدّ أكثر شبّان القرية ميلاً للّهو والعربدة:

– هكذا يكون الكلام! فإني أشعر بالضجر والملل دائماً حين لا نتمكن من اللهو والقيام بالحيل والألاعيب كما ينبغي، بل أشعر أنني ينقصني شيء ما، وكأنني فقدت قبّعتي أو غليوني. باختصار، لا أشعر بنفسي قوزاقياً حقيقياً، وكفى.

– ما رأيكم أن نجنّن المختار اليوم؟

– المختار؟

– نعم، المختار. من يحسب نفسه حقاً؟ إنه يحكمنا كما لو أنه من زعماء القوزاق. لا يكفيه أن يهضم حقوقنا ويعاملنا كما لو كنا عبيده، بل يلاحق حبيباتنا أيضاً. وأعتقد أن ما من فتاة حسناء في القرية لم يداعبها الرئيس أو يغازلها.

– صحيح، صحيح! صاح الشبان بصوت واحد.

– فهل نحن عبيد يا شباب؟ ألسنا وإيّاه من طينة واحدة سواءً بسواء؟ فنحن، والحمد لله، قوزاق أحرار! فلنرِه، يا رفاق، أننا حقاً قوزاق أحرار!

صاح الفتيان:

– فلنرِه هيّا! وما دمنا قد قرّرنا استهداف المختار، فلن نرحم حاجبه أيضاً.

قال ليفكو:

– لن نرحم الحاجب أيضاً.

ثم أردف يقول وهو يضرب بيده على أوتار البَندورا:

– ولقد ألّفت للتو أغنية رائعة عن المختار، ولكن هيّا بنا الآن، سأعلّمكم الأغنية لاحقاً. واسمعوا: ارتدوا من الملابس ما يقع في أيديكم!

فقال الشاب الأرعن "الجدع" وهو يضرب قدماً بقدم ويصفق بيديه:

– هيّا إلى اللهو أيها الرأس القوزاقي! يا للروعة! يا لهذه الروح! ما إن يبدأ المرء بالشيطنة حتى يعود بذاكرته إلى الأيام الخوالي فيغمر قلبه الفرح والانشراح ويشعر بنفسه في الفردوس. هيّا يا رفاق! هيّا إلى المرح!...

ومضت العصبة تجوب الطرقات في صخب، واستيقظت العجائز الورعات من النوم على صياح الفتية، ورحنَ يرفعنَ مصاريع النوافذ ويرسمنَ علامة الصليب بأيديهنّ الناعسة وهنّ يقلنَ: ها قد بدأ الفتيان بالعربدة!

– ٤ –

الفتيان يمرحون

لم يبقَ إلاّ بيت واحد مضاء في آخر الشارع، كان بيت المختار. كان المختار قد فرغ من تناول عشائه منذ وقتٍ طويل، ولكان يغطّ في النوم منذ زمن، بلا شك، لولا أن كان عنده ضيف في تلك الليلة، وكان مقطّر الخمور الذي أرسله مالك قطعة أرض صغيرة بين أملاك القوزاق الأحرار ليبني له معملاً لتقطير الخمور. كان الضيف يجلس في صدر الغرفة، تحت الأيقونات مباشرةً، وكان رجلاً بديناً قصير القامة ذا عينين صغيرتين لا تكفّان عن الابتسام يتجلّى فيهما، فيما يبدو، الحبور الذي كان يدخّن به غليونه القصير، وهو يبصق من حين إلى آخر ويضغط بإصبعه رماد التبغ الذي يهمّ بالسقوط من الغليون. وسرعان ما أخذت سحب الدخان تتصاعد فوق رأسه غامرةً إياه بضبابة زرقاء داكنة، بحيث بدت كمدخنة كبيرة لأحد معامل التقطير وقد سئمت البقاء على سطحه، فقررت الترويح عن نفسها بالجلوس بوقار إلى المائدة في بيت مختار القرية. وكان يتدلى تحت أنف الضيف شاربٌ

كثٌّ قصير، لكنه كان يلوح وسط الدخان كأنه فأر أمسك به مقطّر الخمور ووضعه في فمه متفوّقاً بذلك على براعة قطط عنبر الغلال.

كان المختار، باعتباره صاحب البيت، يجلس مرتدياً قميصاً وسروالاً من الكتّان فقط، وكانت عيناه النسريتان تطرفان وتخبوان كالشمس الغاربة. وكان يجلس في طرف الطاولة شرطي من شرطة الريف الذين يأتمرون بأمر المختار، وهو يدخّن، وكان لا يزال يرتدي سترته احتراماً لصاحب البيت.

سأل المختار مقطّر الخمور وهو يرسم إشارة الصليب على فمه المتثائب:

– أتنوون تشييد معملكم في وقتٍ قريب؟

– بإذن الله سنكون قد باشرنا التقطير في الخريف، وأراهن أن مختارنا المحترم سيبدأ في رسم الكلمات المتقاطعة بقدميه[١] في الطريق قبل حلول عيد الشفاعة.

واختفت عينا مقطّر الخمور عند نطقه هذه الكلمات، وبرزت مكانها ابتسامة امتدت حتى أذنيه، وأخذ جذعه برمته يتأرجح من الضحك، وتخلّت شفتاه الضاحكتان للحظة عن الغليون.

فقال المختار راسماً على وجهه ما يشبه الابتسامة:

– إن شاء الله. والحمد لله على أنّ معامل النبيذ قد ازدادت بعض الشيء هذه الأيام. ففي الأزمنة القديمة، عندما كنت أرافق موكب الإمبراطورة في طريق بيرياسلافسكايا، كان المرحوم بيزبورودكو...[٢]

---

١ أي سيترنّح، في إشارة إلى السُّكْر. (م)

٢ بيزبورودكو (١٧٤٧–١٧٩٩): أمير وقائد عسكري في عهدي كاترينا الثانية وبطرس الأول. (م)

– إيه يا صاحبي، سقى الله تلك الأيام! آنذاك بالكاد كان هناك معملان للنبيذ من كريمنتشوغ حتى رومني نفسها. أما الآن... هل سمعت بما ابتدعه الملاعين الألمان؟ يقال إنهم قريباً سيتوقفون عن التبخير بالحطب كما يفعل كل المسيحيين الشرفاء، وسيستبدلون به بخاراً شيطانياً ما.

بعد قوله هذه الكلمات أخذ المقطّر يتأمل الطاولة ويديه الموضوعتين عليها وهو مستغرق في التفكير.

– لكن كيف بالبخار؟ لا أدري والله!

قال مختار القرية:

– يا لهم من حمقى هؤلاء الألمان! أستغفر الله! كم أودّ أن أجلدهم أولاد الكلب هؤلاء! هل سمع أحد بإمكانية غلي أيّ شيء بالبخار؟ لهذا يتعذّر على المرء تناول ملعقة من الحساء دون أن يلهب شفتيه كالخنّوص...

سألت أخت زوجة المختار التي كانت تجلس متربّعةً على دكّة الموقد:

– وهل ستقيم طوال هذا الوقت عندنا من دون زوجتك؟

– وما حاجتي إليها؟ لو كان الأمر جديراً لاختلف الأمر.

سأله المختار مصوّباً نحوه عينه الوحيدة:

– لعلها ليست جميلة؟

– جميلة! إنها عجوز كالشيطان. وجهها القميء مليء بالتجاعيد ككيسٍ فارغ.

وتحسّن مزاج المقطّر العكر من جديد جرّاء تعالي الضحك.

في هذه اللحظة أخذ شيء ما يتحسّس مقبض الباب، ثم انفتح الباب

واجتاز العتبة فلاح دون أن يخلع قبّعته، ووقف في وسط الكوخ شارداً، فاغراً فاه، وراح يحملق في السقف. كان هذا صاحبنا كالينيك.

جلس كالينيك على الأريكة قرب الباب، دون أن يعير الحضور أي اهتمام، وقال:

– ها قد وصلت إلى البيت! أرأيت كيف أطال الشيطان، ربيب الشرّ، الطريق! يسير المرء، ويسير، ولا يبلغ النهاية! كأنما أحدهم كسر ساقي. اجلبي "الفروة" يا امرأة وافرشيها لي، فلن آتي إليك على دكة الموقد، والله لن آتي، فقدماي تؤلمانني! إنها هناك، قرب الأيقونات، لكن انتبهي ألاّ تقلبي القدر التي فيها التبغ المبروش. أو لا، لا تلمسيها، لا تلمسيها، فربما تكونين ثملة اليوم... سآتي بها بنفسي.

حاول كالينيك النهوض لكن قوة عاتية سمَّرته في مقعده.

قال المختار:

– ما أعجب هذا! رجل يدخل بيت رجلٍ آخر ويتصرّف كما لو كان في بيته! اطردوه خارجاً قبل أن أخرج عن طوري!...

أمسك مقطّر الخمور بيد المختار وقال:

– دعه يستريح يا صديقي. إنه رجلٌ نافع، فكلّما ازداد أمثاله سارت أمور معملنا بشكل أفضل...

بيد أنّ ليس طيبة القلب ما جعل مقطّر الخمور يقول هذا الكلام، ذلك أنه كان يؤمن بشتى الخرافات، وإن طرد شخص قد جلس للتو على أريكة كان بالنسبة إليه فأل سوء.

استلقى كالينيك على الأريكة وأخذ يُغمغم:

– يبدو أنني أتقدّم في السنّ! لا بأس لو كنت ثملاً، ولكني لست ثملاً، والله لست ثملاً! لِمَ قد أكذب؟ وإني مستعدّ لإعلان ذلك حتى

لمختار القرية نفسه. لكن ما لي وللمختار؟ ألا فليَنفَق، ابن الكلب! إني أبصق عليه! أرجو أن تدهسه عربة، هذا الشيطان الأعور! ما با له يسكب الماء البارد على الناس في عزّ البرد...

قال المختار وهو ينهض من مكانه غاضباً: "اي هيه! لا يكفي الخنزير أنه تسلّل إلى الدار بل ويدسّ حافره في قصعة الطعام أيضاً"، لكن في تلك اللحظة حطّم حجر ثقيل النافذة شذر مذر وسقط عند قدميه، فتوقف المختار ورفع الحجر عن الأرض وقال: "آخ لو أعرف من المجرم الذي رمى الحجر، لكنت لقّنته درساً وعلّمته كيف يرمي بيوت الناس بالحجارة!" ثم أردف وهو يتفحّص الحجر بنظرةٍ يتطاير منها الشرر: "يا للألاعيب! أرجو أن يغصّ حلقه بهذا الحجرً".

فقاطعه مقطّر الخمور وقد شحب لونه:

– توقف، توقف، حفظك الله، يا صديقي! حفظك الله ورعاك في الدنيا والآخرة من أن تنعم على أحد بسبابٍ كهذا!

– ها قد وُجِد من يدافع عنه! ألا فليهلكْ!...

– حذارِ يا صديقي! ولعلك لم تسمع بما جرى للمرحومة حماتي؟

– حماتك؟

– نعم حماتي. فذات مساء، ربما أبكر من الساعة التي نحن فيها، جلست المرحومة حماتي والمرحوم حماي وأجيرهما وأجيرتهما وأولادهما الخمسة إلى المائدة لتناول العشاء، ووضعت حماتي بعضاً من لقيمات القاضي من القدر في قصعة لتبرد قليلاً، لكنهم لجوعهم الشديد جرّاء إنهاكهم في العمل لم يصبروا عليها حتى تبرد وبدأوا يرفعون اللقيمات بعيدان خشبية طويلة ويتناولونها، وفجأةً ظهر رجل، لا يعلم إلاّ الله من أين، وسألهم السماح له بالجلوس معهم إلى المائدة.

وهل يجوز عدم إطعام إنسان جائع! لذا أعطوه هو أيضاً أحد العيدان، فانقضّ الزائر على اللقيمات يلتهمها كما تلتهم البقرة الدريس، وإلى أن تناول كل واحد منهم لقمة كان الضيف قد أتى على كل ما في القصعة وجعل قاعها أملس من الأرض في بيت الإقطاعي. فسكبت عمّتي المزيد ظناً منها أن الرجل قد شبع وسيتناول لقيمات أقل، لكن لم يتغير شيء، بل إن الرجل صار يلتهم بمزيد من الشهية حتى أفرغ القصعة مرةً أخرى! فقالت حماتي في نفسها: "ألا فلتغصّ بهذه اللقيمات!" فغصّ الرجل وسقط على الأرض، فهرعوا إليه لكن الرجل كان قد أسلم الروح.

فقال المختار:

– نال النهم اللعين ما يستحق!

– لعله كذلك، لكن القصة لم تنتهِ هنا، فمنذ ذلك الحين لم تذق حماتي طعم الراحة. فما أن يحلّ اللَيل حتى يظهر الميت يجرجر قدميه، ثم يجلس اللعين أعلى المدخنة وهو يقبض بأسنانه على لقيمة من اللقيمات. في النهار يخيّم الهدوء، ولا يسمعون عنه شيئاً، ولكن ما إن يحلّ الغسق وينظرون إلى المدخنة، إذا بابن الكلب جالس عليها.

– واللقيمة بين أسنانه؟

– واللقيمة بين أسنانه.

– عجيب يا صاح! أنا أيضاً سمعت بشيء من هذا القبيل في عهد الإمبراطورة الراحلة...

وهنا توقف المختار عن الكلام، فقد تناهى إليهم صخب وأصوات أقدام الراقصين تحت النافذة. في بادئ الأمر رنّت أوتار البَندورا خافتةً، ثم رافقها أحدهم بالغناء، وبعد ذلك هدرت الأوتار أعلى،

وانضمت عدة أصوات إلى جوقة الغناء، ثم هدرت أغنية كالعاصفة:

هل سمعتم يا فتيان؟
رأسنا[1] متخلخل!
الرأس الأعور
تفكّكت ألواحه.
يا صانع البراميل
طوِّق الرأس بأطواق فولاذية
ودقّ الرأس يا صانع البراميل
بالمطرقة! بالمطرقة!

رأسنا أشيب وأعور
هرم كالشيطان، ويا له من أحمق!
غريب الأطوار وشهواني:
يتحرّش بالفتيات... أحمق! أحمق!
ما لك تحشر نفسك بين الشبّان!
يجب جرجرتك إلى البيت
من شاربك ورقبتك
ومن سوالفك! من سوالفك!

قال مقطّر الخمور مميلاً رأسه إلى الوراء قليلاً ومخاطباً المختار المتسمّر من الدهشة لهذه الوقاحة:

---

١ يقصدون مختار القرية. (م)

– أغنية رائعة يا صاحبي! رائعة! إلاّ أنّ من المعيب أن يذكروا "الرأس" بهذه الكلمات غير اللائقة.

ثم وضع يديه مرةً أخرى على الطاولة، وفي عينيه شيءٌ من العذوبة الرقيقة، متهيئاً لسماع المزيد لأن الضحكات تعالت من خارج النافذة مع صيحات: "أعد! أعد!". غير أنّ العين الثاقبة كانت لترى على الفور أنْ ليس الدهشة هي ما سمّرت المختار مكانه، ذلك أن القط العجوز المحنّك يدع الفأر عديم الخبرة أحياناً يدور حول ذيله، وفي هذه الأثناء سرعان ما يدبّر خطة يقطع بها طريق عودة الفأر إلى جحره. وبينما كانت عين المختار الوحيدة لا تزال تحدّق في النافذة، فإن يده، التي أومأ بها للشرطي، كانت تمسك بمقبض الباب، وفجأةً علا الصياح في الشارع... مقطّر الخمور، الذي كان الفضول واحداً من مزاياه الكثيرة، ملأ غليونه بسرعة بالتبغ وهرع إلى الشارع، لكن الزعران كانوا قد تفرقوا راكضين في كل اتجاه.

"كلا، لن تفلت مني!" صاح المختار وهو يجرجر رجلاً يرتدي فروة غنم سوداء بالمقلوب من يده. انتهز المقطّر الفرصة وجرى ليلقي نظرة على وجه مقلق راحة الناس هذا، لكنه حين شاهد لحيةً طويلة وسحنةً مخيفة يعلوها الطلاء تراجع إلى الوراء. "كلا، لن تفلت مني!" صاح المختار مواصلاً جرجرة أسيره إلى مخزن العلف مباشرةً، ولم يكن الأسير يبدي أي مقاومة وكان يتبعه في هدوء كما لو كان يدخل بيته.

قال المختار للشرطي:

– افتح باب المخزن يا كاربو! لنحبسه في المخزن المظلم! ثم نوقظ كاتب المحكمة ونجمع عناصر الشرطة، ونقبض على كل هؤلاء

المشاغبين، ونصدر اليوم حتماً الحكم عليهم جميعاً!

صلصل الشرطي بمفتاح فتح به قفل باب المخزن الصغير، وفي هذه اللحظة، استغلّ الرجل عتمة المخزن وأفلت فجأةً من قبضته بقوة غير عادية.

صاح المختار وهو يمسك به من ياقته بقوة أكبر:

– إلى أين؟

فقال الأسير بصوتٍ أنثويٍّ رفيع:

– دعني، فهذا أنا!

– لن يجديك هذا، لن يجديك يا أخ، فإنك لن تخدعني حتى لو زعقت كالشيطان لا ولولت كالنساء فقط!

ودفعه إلى المخزن المظلم بقوة بحيث تأوّه الأسير المسكين أثناء سقوطه على الأرض. أما المختار فتوجه برفقة الشرطي إلى كاتب المحكمة، وفي إثرهما سار المقطّر نافثاً دخان غليونه كباخرة.

كان الثلاثة يسيرون مطأطئي الرؤوس لاستغراقهم في التفكير، وعند انعطافهم في زقاقٍ مظلم صرخ الثلاثة معاً فجأةً جرّاء ضربة قوية على جباههم، وردّد الصدى صرخةً مماثلة. زرّ المختار عينه فرأى، لدهشته، الكاتب ومعه شرطيان.

– كنت قادماً إليك أيها السيد الكاتب.

– وأنا كنت قادماً للقاء سيادتكم سيدي المختار.

– إن أموراً عجيبة تحدث أيها السيد الكاتب.

– إنها عجيبة فعلاً سيدي المختار.

– ماذا تقصد؟

– لقد جُنَّ جنون الشبّان! إنهم يسيرون في الطرقات في عصابات،

ويعيثون فساداً، وينعتون سيادتكم بنعوت أخجل من ذكرها، حتى الموسكوفي الثمل يخشى التفوّه بها بلسانه البذيء. (وكان الكاتب النحيل، الذي كان يرتدي سروالاً مبرقشاً وصديرياً بلون ثفالة النبيذ، طول الوقت يرفق كلامه بمطّ عنقه إلى الأمام ثم إعادته إلى وضعيته السابقة مرة أخرى). كنت قد غفوت بالكاد عندما أيقظني هؤلاء الأوغاد الملاعين بأغانيهم المخزية وبطرقهم على الأبواب! كان في نيتي أن أوبّخهم شرّ توبيخ ولكن إلى أن لبست سروالي وصديرتي كانوا قد هربوا جميعاً على غير هدى. لكننا تمكّنا من الإمساك بزعيمهم، وهو يغنّي الآن في الكوخ الذي نحبس فيه المساجين. كنت أتحرّق شوقاً للتعرف إلى هذا "الطير"، لكن وجهه كان متّشحاً بالسخام كوجه الشيطان الذي يضع المسامير للخاطئين[١].

– وماذا كان يرتدي أيها الكاتب المحترم؟

– كان الوغد يرتدي فروة من الصوف بالمقلوب سيدي المختار.

– ألست تكذب أيها الكاتب المحترم؟ ماذا إن كان هذا الوغد يقبع الآن في مخزني.

– هذا غير ممكن يا سيدي المختار. أستمحيك عذراً، لكني أظن أن الأمر قد التبس عليك بعض الشيء.

– هاتوا مصباحاً، فلنلقِ عليه نظرة.

جاؤوا بالمصباح، وفتحوا الباب، فصرخ المختار من الدهشة حين رأى أمامه أخت زوجته، التي شرعت تقرِّعه بالكلمات التالية:

– قل لي من فضلك، ألم تفقد عقلك تماماً؟ وهل كان في رأسك

١ يضع المسامير للخاطئين: يغوي ويضلّ.

الأعور ولو ذرّة من المخّ عندما دفعتني إلى المخزن المظلم؟ الحمد لله أنّ رأسي لم يرتطم بالخطّاف الحديدي. ألم أصرخ فيك بأن "هذه" أنا؟ لكنك، أيها الدب اللعين، أمسكت بي ببراثنك الحديدية ورحت تدفعني! ألا فلتدفعك الشياطين في العالم الآخر!...

نطقت المرأة الكلمات الأخيرة من خارج الباب، من الشارع، حيث توجّهت لقضاء بعض شؤونها.

قال المختار وقد ثاب إلى رشده:

– بلى، أرى أن هذه أنتِ. ما قولك أيها الكاتب المحترم، أليس وغداً ماكراً ذاك المتهوّر الملعون؟

– بل هو كذلك سيدي المختار.

– ترى ألم يحن الوقت لتلقين هؤلاء العرابيد درساً قاسياً وحملهم على العمل؟

– حان الوقت منذ وقتٍ بعيد سيدي المختار.

– يظنّ هؤلاء الحمقى... اللعنة، ماذا هناك؟ خيّل إليّ أنني سمعت صراخ أخت زوجتي آتياً من الشارع. يظنّ هؤلاء الحمقى أنني من مستواهم. إنهم يعتقدونني كواحدٍ من إخوانهم، مجرّد قوزاقي بسيط!... – وبدا من السعال الخفيف الذي أعقب هذه الكلمات ومن النظرة التي رمق بها المختار ما حوله من تحت حاجبيه أنه يهمّ بالحديث عن أمرٍ هام. – في سنة ألف و... لا أستطيع تذكّر هذه التواريخ اللعينة ولو بطلوع الروح. المهم، أنه صدر أمر لليداتشي، الذي كان القوميسار آنذاك بأن يختار أذكى القوزاق وأنجبهم[1]. أوه!

---

١ كان قوميسارية الريف آنذاك يقومون بجباية الضرائب ويسوقون المجنّدين إلى الخدمة العسكرية إلى جانب قيامهم بمهام الشرطة. (ن. ف. غوغول)

- هذه الـ"أوه" نطق بها المختار رافعاً إصبعه إلى أعلى، - أنجبَ الجميع! لمرافقة موكب الإمبراطورة. وكنت آنذاك...

- وهل من شك في ذلك يا مختار! فالكل بات يعرف القصة، وجميعهم يعلمون كيف نلت الحظوة لدى الإمبراطورة. لكن لتسلّم الآن بأنني كنت على حق، وأنك حمّلت نفسك وزراً حين قلت إنك قد قبضت على الوغد الذي يرتدي فروة من الصوف بالمقلوب.

- أما بخصوص هذا الشيطان ذي الفروة المقلوبة، فلنقيّده بالأغلال ولنعاقبه عقاباً شديداً حتى يكون عبرةً للآخرين. فليعلموا ماذا تعني السلطة! إذ من يُنصّب مختار القرية إن لم يكن القيصر نفسه؟ وبعد ذلك سنتمكّن من الشبان الآخرين أيضاً، فأنا لم أنسَ كيف ساق هؤلاء الأنذال قطيعاً من الخنازير إلى بستاني، فأتت على كل ما فيه من كرنب وخيار، ولم أنسَ أنّ أولاد الملاعين هؤلاء رفضوا أن يدرسوا قمحي، كما لم أنسَ... ألا تباً لهم جميعاً، لكن لا بدّ لي حتماً من معرفة من يكون هذا الوغد ذو الفروة المقلوبة.

فقال مقطّر الخمور الذي كان الدخان يغشى وجنتيه طوال هذا الحديث كأنهما مدفع حصار وكانت شفتاه تنفثان سحابةً من الدخان كلّما افترقتا عن الغليون:

- واضح أنه واحد "سَلاّل"[١]! ولا بأس - من باب الحيطة - من الاحتفاظ به في معمل التقطير، وأفضل من ذلك تعليقه على قمة شجرة سنديان بدلاً من شمعدان الكنيسة.

لم تبدُ هذه القسوة سخيفةً تماماً بالنسبة لمقطّر الخمور، وفي

١ حرفياً: "طائر رشيق الحركة" والمقصود أنه شخص داهية، لكننا استخدمنا العبارة باللهجة العامية السورية للمحافظة على روح النص. (م)

الحال قرّر مكافأة نفسه بضحكةٍ جشّاء دون أن ينتظر استحسان الآخرين.

في هذه الأثناء كانوا يقتربون من كوخ صغير منهار تقريباً، فازداد فضول أصحابنا وتجمهروا حول الباب. أخرج الكاتب مفتاحاً وأخذ يصلصل به في القفل، لكن هذا المفتاح كان مفتاح صندوقه. عيل صبر الجماعة. دسّ الكاتب يده في جيبه ثانيةً متحسّساً المفتاح، وحين لم يجده أخذ يطلق الشتائم. "ها هو!" قال أخيراً وهو ينحني ويتناول المفتاح من قعر جيبه الواسع العميق الذي كان قد زوّد به سرواله المبرقش. عند نطقه بهذه الكلمة بدت قلوب أبطالنا كأنما امتزجت في قلبٍ واحد، وهذا القلب الضخم كان يدقّ بقوة بحيث أنّ حتى صرير القفل لم يطغَ على دقاته غير المنتظمة. انفتح الباب و... شحب وجه المختار شحوب الأموات. أما المقطّر فشعر بقشعريرة باردة في أوصاله وبدا شعره كأنما يريد أن يطير في السماء، وارتسم الرعب على وجه الكاتب، وانغرس عناصر الشرطة في الأرض عاجزين عن إغلاق أفواههم التي انفغرت معاً: فقد كانت تقف أمامهم أخت زوجة المختار!

لم تكن المرأة أقل انذهالاً منهم، لكنها حين ثابت إلى رشدها قامت بحركة لكي تتجه نحوهم، فصاح المختار صيحةً وحشية: "مكانك!" وصفق الباب في وجهها، ثم أردف يقول:

– أيها السادة! إنه الشيطان! النار! أضرموا النار! لن أشفق على الكوخ حتى لو كان كوخاً أميرياً[1]! أحرقوه، أحرقوه حتى لا يتبقّى في

١ أي "حتى لو كان ملكاً للدولة". (م)

الدنيا شيء من عظام الشيطان!.

حين سمعت أخت زوجته هذا الحكم الرهيب من وراء الباب شرعت تصرخ من الهلع.

قال مقطّر الخمور:

- ما بكم يا إخوان! إن الشعر لديكم، والحمد لله، يكاد يغدو ببياض الثلج، لكنكم رغم ذلك لم تكتسبوا الحكمة، فالساحرة لا تحرقها النار العادية! فقط النار المضرَمة من الغليون يمكنها حرق الجنّ[1]! انتظروا قليلاً، لسوف أهتمّ بالأمر في الحال.

بعد قوله هذا نثر رماد غليونه الساخن على حزمة من القش وأخذ ينفخ فيها. في هذه الأثناء كان اليأس قد استبدّ بالمرأة المسكينة فأخذت تتضرّع إليهم وتتوسّلهم. فقال الكاتب.

- مهلاً يا إخوان! لماذا نحمّل أنفسنا وزراً عبثاً، فربما لا تكون الشيطان. فإن رضي ذاك المخلوق، أيّاً يكن، أن يرسم إشارة الصليب، فإنّ ذلك إشارة صادقة على أنه ليس الشيطان.

تمّت الموافقة على الاقتراح، فوضع الكاتب شفتيه على ثقب قفل الباب وتابع يقول:

- اسمعني أيها الشيطان! إن لزمتَ مكانك فتحنا الباب.

وفُتح الباب.

قال المختار وهو يلتفت إلى الوراء كأنما ينتقي مكاناً آمناً يلوذ به إذا ما اضطر إلى التراجع:

- ارسمي علامة الصليب!

---

١ حرفياً، "المتحوّل" أو "المسخ" أي المخلوق القادر على تغيير شكله. (م)

رسمت أخت الزوجة علامة الصليب.

– أيّ شيطان هذا! إنها حتماً أخت زوجتي!

– أيّ روح شرّيرة ألقت بكِ في هذا المخزن يا قريبتي؟

أخذت أخت الزوجة تروي باكيةً كيف أمسك بها الشبّان في الشارع وأدخلوها، رغم مقاومتها، عبر النافذة الواسعة إلى الكوخ ثم سمّروا مصراع النافذة. عاين الكاتب النافذة فوجد أن مفاصل المصراع الواسع منزوعة من مكانها وأنّ المصراع مثبّت في الأعلى بلوحٍ من الخشب.

صاحت المرأة وهي تتقدّم نحو المختار الذي تراجع إلى الخلف وهو لا يزال يتفحّصها بعينيه:

– يا سلام عليك أيها الشيطان الأعور! إنني أعلم نواياك كلها. فقد كنت تتمنّى، بل يسرّك، أن تُضرَم بي النار لكي تتمكّن من ملاحقة ومغازلة الفتيات بحرية أكبر، ولكي لا يرى أحد كيف يتحامق الجدّ الأشيب. أتظنني لا أدري عمّ كنتما تتكلمان أنت وحنّة هذا المساء؟ اوه لا، فأنا أعلم كل شيء. يصعب خداعي، لا سيما من قِبل قحفك البليد. إنني صبورة جداً، لكن إذا نفد صبري فلا تلم إلا نفسك...

بعد أن قالت ذلك لوّحت بقبضتها وغادرت مسرعةً، تاركةً الرئيس متسمّراً مكانه من الذهول. فقال الرئيس في نفسه وهو يحكّ قمّة رأسه بقوة: "لا، واضح أن الشيطان لا يمزح بتدخّله هذا".

وفي هذه اللحظة وصل رجال الشرطة وصاحوا:

– قبضنا عليه!

فسأل المختار:

– على من قبضتم؟

- على الشيطان ذي الفروة المقلوبة.

فصاح المختار وهو يقبض على يد الأسير الذي جلبوه:

- هاتوه!... لقد فقدتم عقولكم، فهذا ليس سوى كالينيك السكران.

أجاب عناصر الشرطة:

- ما هذا البلاء! فقد كان في أيدينا يا سيادة المختار! وفي الزقاق أحاط بنا الشبّان الملاعين وراحوا يرقصون ويقفزون ويخرجون لنا ألسنتهم ويحاولون انتزاعه من أيدينا... عليهم اللعنة!... أما كيف وقعنا على هذا الغراب بدلاً من الشيطان، فلا يعلم ذلك إلا الله وحده!

قال المختار:

- بالسلطة المخولة إلي وباسم الشعب جميعاً أصدر إليكم الأمر بإلقاء القبض على ذاك المجرم في التوّ واللحظة، وعلى كل من تصادفونه في الطريق أيضاً، وجلب الجميع إليّ لاستجوابهم!...

فصاح بعضهم وهم ينحنون إلى مستوى قدميه:

- رحماك يا سيادة المختار! فلو أنك رأيت وجوههم: لم نرَ سحنات بهذه البشاعة في حياتنا، وليهلكنا الله إن كنا كاذبين. إن هذا لا يبشّر بالخير يا سيادة المختار، فقد يوقعون الرعب في قلب الإنسان الطيب بحيث تعجز أي امرأة عن إجراء تعويذة لشفائه.

- أنا من سيلقي تعويذة! ما لكم؟ أتعصون الأوامر؟ أظن أنكم تساندونهم! هل أنتم عصاة؟ ما هذا؟ ما هذا؟... أتعمدون إلى الشغب!... أنتم... سأرفع أمركم إلى القوميسار! في التوّ واللحظة. هيّا انطلقوا وإلاّ... إيّاكم...

وتراكض الجميع في كل اتجاه.

- ٥ -

الغريقة

كان المسؤول عن هذا الشغب كله يسير الهوينا نحو البيت القديم والبحيرة هادئ البال ودون أن يهتم أدنى اهتمام بالمطاردين الذين أرسلوا لملاحقته. وأظن أن لا حاجة إلى القول بأن ذاك المحرض كان ليفكو نفسه. كانت فروته السوداء محلولة الأزرار، وكان يمسك بقبعته بيده، وكان العرق يتصبّب منه بغزارة. كانت غابة أشجار القيقب تبدو مهيبةً كالحة السواد وتنتصب مواجهةً القمر، وكان نسيم البحيرة الساكنة المنعش يهبّ على السائر المتعب ويدفعه إلى أخذ قسط من الراحة على ضفتها. كان كل شيء هادئاً، وفقط في عمق الغابة كان يتردد تغريد البلابل. سرعان ما أغلق سلطان النوم الذي لا يُقهر عيني الفتى، وكانت أعضاؤه المتعبة جاهزة كي تتخدّر وتهمد، ومال رأسه... فقال وهو ينهض واقفاً على قدميه ويفرك عينيه: "كلا، على هذا النحو سوف أغفو هنا!"، وتلفّت حوله فبدا الليل أمامه أشد ألقاً من ذي قبل، فقد امتزج ألقٌ بهيجٌ ما مع وميض القمر. لم يسبق له أن

رأى شيئاً من هذا القبيل. كان الضباب الفضي مخيّماً على المكان، وكان عبير نوّار التفاح وأزهار الليل يفوح عبر الأرض برمتها. أخذ يرنو إلى مياه البحيرة الساكنة في ذهول، فقد كان قصر السادة القديم، المنعكس على صفحة الماء، مرئياً له بصفاء وبشيءٍ من الأبّهة الرائقة. فبدلاً من المصاريع الكئيبة كانت تلوح النوافذ والأبواب الزجاجية المبهجة، وكان الطلاء الذهبي يتلألأ عبر الزجاج النظيف. وفجأةً خُيّل إليه أنّ إحدى النوافذ فُتحت، فحبس أنفاسه ودون أن يرتعد، ودون أن يحول نظره عن البحيرة، بدا كأنما غاص في أعماقها ورأى أمامه مرفقاً أبيض يتكئ على النافذة، ثم لاح له وجهٌ باشّ بعينين مشرقتين رائعتين تتألقان من خلال شعرٍ كستنائيٍّ داكن. إنها تُلوِّح له، إنها تبتسم له... أخذ قلبه ينبض بقوة... ترجرج الماء وانغلقت النافذة من جديد. ابتعد الفتى عن البحيرة بهدوء ونظر إلى القصر: كانت المصاريع الكالحة مفتوحة وزجاج النوافذ يتألق في ضوء القمر. قال في نفسه: "بالفعل الأقاويل لا يُعوَّل عليها كثيراً: فالبيت جديد والطلاء مشرق كأنما قد طُلي اليوم. ثمة من يقيم هنا"، واقترب من القصر أكثر بصمت، لكنّ البيت كان هادئاً تماماً. كان شدو البلابل يتعالى بنغماتٍ رائعة، وعندما كانت تخمد وتهدأ، غافيةً فيما يبدو، كان يتردّد حفيف الجنادب وطنينها أو صفير طيرٍ من طيور المستنقع وهو يضرب بمنقاره الزلق صفحة الماء العريضة. شعر ليفكو بسكينة لذيذة وبانشراح في قلبه، فدَوْزَنَ البَندورا وأخذ يعزف ويغنّي:

آه أيها القمر، يا قمري الحبيب!
آه أيها النجم المتألق!

اسكب نورك هنا خلف تلك الأبواب،
حيث تقيم الفتاة الحسناء.

انفتحت النافذة بهدوء وأطلّت تلك الفتاة نفسها التي رأى انعكاس صورتها في ماء البحيرة، وأخذت تنصت إلى غنائه باهتمام. كانت أهدابها الطويلة مسدلةً على عينيها تكاد تخفيهما، وكانت كلها بيضاء كالقطن، كضوء القمر، لكنها كانت بمنتهى الفتنة والجمال!

ضحكت الفتاة!... جفل ليفكو.

أحنت الفتاة رأسها جانباً وأسدلت أهدابها الكثيفة على عينيها تماماً وقالت بصوت خافت:

– غنِّ لي أُغنيةً أيها القوزاقي الشاب!

– أي أغنية تريدين أن أغنّي يا سيدتي الفاتنة؟

انحدرت الدموع بهدوء على الوجه الشاحب، وقالت بنبرةٍ مشوبةٍ بأسى غير مفهوم يلامس شغاف القلب:

– أيها الشاب، أيها الشاب، جِدْ لي زوجة أبي! لن أبخل عليك بشيء. سأكافئك. سأجعلك غنياً وأجزل لك العطاء! لديّ أكمام مطرزة بالحرير، ومرجان وقلائد. سأهديك حزاماً مرصّعاً باللآلئ، وعندي ذهب... أيها الشاب، جِدْ لي زوجة أبي! إنها ساحرة رهيبة، ولم أعرف طعم الراحة في حياتي بسببها. لقد عذّبتني وأرغمتني على العمل كأيّ فلاحة بسيطة. انظر إلى وجهي: لقد سلبت خدَّيَّ تورّدهما بسحرها الأسود. انظر إلى عنقي الأبيض: إنها لا تزول! إنها لا تزول! هذه البقع الزرق التي تركتها على رقبتي مخالبها الفولاذية لا تزول بأي شكلٍ كان. انظر إلى قدمَي البيضاوين: لقد سارتا في الأرض طويلاً، لكنْ

ليس على السجاد، بل على الرمال الساخنة والأرض الموحلة وعلى الأشواك الحادّة. وعيناي، انظر إلى عينَيّ: لقد طمس البكاء نورهما... اعثر عليها أيها الشاب، جِدْ لي زوجة أبي!...

ثم سكت صوتها الذي كان قد ارتفع فجأةً، وانهمر الدمع على وجهها الشاحب.

اعتمل في قلب الشاب شعورٌ ثقيل ممتلئ بالشفقة والحزن، فقال متعاطفاً معها من أعماقه:

– إنني مستعدّ للقيام بأي شيء من أجلكِ يا أميرتي، ولكن كيف أجدها، وأين؟

فقالت في لهفة:

– انظر، انظر! إنها هنا! إنها تلهو على الضفة مع صديقاتي وتستدفئ تحت ضوء القمر. لكنها ماكرة وخبيثة. لقد اتّخذت لنفسها هيئة إحدى الغريقات، إلاّ أنني أعلم أنها هنا، وأشعر بوجودها. إنني أشعر بالضيق والاختناق من جرائها، وبسببها لا أستطيع السباحة بسهولة ورشاقة كالسمكة!

نظر ليفكو إلى شاطئ البحيرة فلاحت له من خلال الضباب الفضي فتيات شفافات، كأنما هن أطياف، في قمصان بيض مزينة بأزهار سوسن الوادي كمرج، وكانت تتلألأ في أعناقهنّ قلائد ذهبية وعقود من الخرز والليرات الذهبية، لكنهن كنّ شاحبات، وكانت أجسادهنّ رقيقة كأنها من السحب الشفافة، وبَدونَ كأنما يتلألأن كلياً في ضوء القمر الفضي. اقتربت منه حلقة الفتيات أكثر، وهنّ يرقصنَ ويغنينَ ويلهونَ، وتناهت إليه أصوات.

"هيّا نلعب لعبة الغراب، هيّا نلعب لعبة الغراب!" هكذا صخبنَ

جميعاً، وكان حفيف أصواتهنّ كحفيف الأغصان على ضفة النهر حين يلامسها النسيم بشفتيه في هدأة الغسق.

– ومن ستلعب دور الغراب؟

اقترعنَ، وخرجت إحدى الفتيات من بين حشد الفتيات. أخذ ليفكو يُنعم النظر فيها. كان وجهها وثوبها وكل ما فيها شبيهاً بما لدى كل الفتيات الأخريات لا يختلف عنه في شيء، إلا أنه لاحظ أنْ لا رغبة لديها في لعب هذا الدور. اصطفّت الفتيات وعلى الفور أخذنَ يركضنَ للنجاة من انقضاض العدو المفترس...

قالت الفتاة بعد أن هدّها التعب:

– كلا، لا أريد أن أكون الغراب! يحزنني أن أخطف فراخ الدجاج من أمهنّ المسكينة!

قال ليفكو في سرّه: "لستِ أنتِ الساحرة!"

فمن ستكون الغراب إذن؟

تهيّأت الفتيات للاقتراع ثانيةً، لكن إحداهنّ كانت تتوسّطهنّ تطوّعت قائلةً:

– أنا سأكون الغراب!

أخذ ليفكو يحدّق في وجهها بإمعان بينما هي راحت تطارد الفتيات وتنقضّ في كل الاتجاهات للإمساك بفريستها. وهنا لاحظ ليفكو أنّ بريق جسدها أخفت من بريق أجساد الأخريات، ففي داخلها كان يُرى شيء ما أسود. فجأةً تعالى الصياح، فقد انقضّ الغراب على أحد الفراخ وأمسك به، وخُيّل لليفكو أنّ مخالبَ برزت من يديها وتألق وجهها ببريقٍ من الفرح الشرير. فقال ليفكو مشيراً إليها بإصبعه: "الساحرة!" واستدار باتجاه الدار.

ضحكت الفتاة الحسناء وأخذت الفتيات يجرجرنَ خلفهنّ تلك التي لعبت دور الغراب وهنّ يتصايحنَ.

– كيف أكافئك أيها الشاب؟ أعلم أنّ ما تريده ليس الذهب، وإنما تحبّ حنّة، لكنّ والدك القاسي القلب يمنعك من الزواج بها. لكنه لن يعترض طريقك بعد الآن، هاك، أعطه هذه الرسالة...

وامتدت يدها البيضاء إليه، وأضاء وجهها وأشرق بشكلٍ عجيب... مدّ ليفكو يده وهو شديد الاضطراب، وقلبه يدقّ بقوةٍ من اللهفة، واختطف الرسالة من يدها و... استيقظ من النوم.

– ٦ –

اليقظة

قال ليفكو في نفسه وهو ينهض واقفاً عن الرابية الصغيرة المنخفضة:

– أيعقل أنني نمت وأنني كنت أحلم؟ فقد كان كل شيء حيّاً وحقيقياً كما لو في اليقظة!... ثم راح يردّد وهو يتلفّت حوله: يا للعجب، يا للعجب!

كان القمر الواقف فوق رأسه تماماً يشير إلى انتصاف الليل. كان الهدوء مخيماً في أرجاء المكان كلها، وكانت نسمة باردة تهبّ من البحيرة، وفي الأعلى كان ينتصب البيت القديم بكآبة ومصاريعه مغلقة، وكانت الطحالب والأعشاب البرية تشير إلى أن أصحابه قد هجروه منذ زمنٍ بعيد. وفي هذه اللحظة بسط يده التي كانت منقبضة طول مدة نومه، فصاح من الدهشة إذ أحسّ بوجود رسالة فيها، ثم قال لنفسه وهو يقلّبها في يده: "آه لو كنت أعرف القراءة!" وفي تلك اللحظة تناهت إليه ضجة قادمة من خلفه.

"لا تخافوا، اقبضوا عليه فوراً! ما لكم جبنتم هكذا؟ نحن قرابة

عشرة رجال، وإني أراهنكم على أنه إنسان وليس شيطاناً!" على هذا النحو أخذ مختار القرية يصيح في رفاقه، وشعر ليفكو بعدة أياد تمسك به، وكان بعضها يرتجف من الخوف. "هيا اخلع عنك هذا الرداء المخيف يا صاح! كفاك استغفالاً للناس!" وبعد أن قال المختار ذلك أمسك به من ياقته، وحين وقعت عينه عليه جحظتْ وعقدت الدهشة لسانه، وصاح وهو يتراجع من الذهول ويرخي يديه:

– ابني ليفكو! أهذا أنت يا ابن الكلب! انظروا إلى ربيب العفاريت منذ ولادته! وأنا أتساءل من يكون هذا الوغد، من هذا الذي تلبّسه الشيطان ويقوم بهذه الألاعيب! هذا كله من فِعالك إذن! ألا فليغصّ حلق "سَلاّفِكَ" بسحلب غير مغلي. إنك تحب إثارة الشغب في الشارع إذن، وتؤلّف الأغاني!... هيه هيه هيه يا ليفكو! ما هذا الذي تفعله؟ يبدو أن ظهرك تحكّك! شدّوا وثاقه!

قال ليفكو:

– مهلك يا أبي! لقد طُلب إليّ أن أعطيك هذه الرسالة.

– لا وقت عندي للرسائل يا غندور! شدّوا وثاقه!

فقال الكاتب وهو يفضّ الرسالة:

– مهلاً يا سعادة المختار، إنه خطّ القوميسار!

– المأمور؟

ردّد عناصر الشرطة بصور آلية: القوميسار؟

وقال ليفكو في سرّه: "القوميسار؟ عجيب! هذا أشدّ غرابة!"

قال المختار:

– هيّا اقرأ، اقرأ! ماذا كتب القوميسار؟

قال مقطّر الخمور وهو يضع غليونه بين أسنانه ويُشعله:

– دعونا نسمع ماذا كتب القوميسار.

تنحنح الكاتب وسعل وشرع يقرأ:

"أمر إلى مختار القرية يفتوخ ماكوغونينكو،

بلغنا أنك، أيها العجوز الأحمق، بدلاً من جباية الضرائب المتأخرة وحفظ النظام في القرية، قد اختبلت وتمارس الدناءات..."

قاطعه المختار:

– إنني، والله، لا أسمع شيئاً مما تقول!

فأخذ الكاتب يقرأ من جديد:

"أمر إلى مختار القرية يفتوخ ماكوغونينكو،

بلغنا أنك، أيها العجوز الأحمق..."

فصاح المختار:

– توقف، توقف! لا داعي لذلك. فرغم أنني لا أسمع جيداً إلا أنني أدرك أن ما من أمر مهم هنا. اقرأ ما بعده!

– "... وبالتالي فإني آمرك بتزويج ابنك ليفكو ماكوغونينكو على الفور بالقوزاقية التي من قريتكم حنّة بيتريجينكوفا. كما آمرك بإصلاح الجسور القائمة في الطريق العام، وعدم الاستيلاء على جياد القرويين وإعطائها لموظفي القضاء دون إذنٍ مني، ولو جاؤوا إليك من ديوان الحكومة مباشرةً. وإذا وجدت، عند قدومي إليكم، أنّ أيَّ أمر من أوامري لم تُنفَّذ فسأعتبرك وحدك مسؤولاً عن ذلك.

القوميسار، الملازم المتقاعد،

كوزما ديركاج دريشبانوفسكي"

فغر المختار فاه وقال:

– وي! هل سمعتم، هل سمعتم: المختار مسؤول عن كل شيء،

وبالتالي عليكم طاعتي! عليكم الانصياع لأوامري دون أي اعتراض! وإلا أرجو أن تعذروني...

ثم أردف موجّهاً كلامه إلى ليفكو:

– أما أنت، فبموجب أمر القوميسار، رغم أنني أستغرب كيف بلغه الأمر، فسأزوّجك، ولكنك قبل ذلك ستذوق طعم سوطي. أتعرف أي سوط؟ ذاك المعلّق على الجدار بجوار الأيقونات. سوف أجرّبه عليك غداً... ولكن من أين لك هذه الرسالة؟

كان ليفكو، رغم دهشته من هذا التحوّل غير المتوقع لمجريات الأمور، من الحصافة بحيث أعدّ في رأسه جواباً مغايراً، وقرر أن يخفي حقيقة كيفية حصوله على الرسالة، فقال:

– كنت في المدينة مساء أمس وصادفت القوميسار حين كان يترجّل من عربته، وحين علم أنني من هذه القرية أعطاني هذه الرسالة وأمرني أن أنقل إليك، يا أبي، أنه سيمرّ بقريتنا في طريق عودته لتناول الغداء.

– أقال ذلك؟

– نعم قال.

فالتفت المختار إلى مرافقيه وقال متّخذاً هيئة من له شأن:

– أسمعتم؟ القوميسار قادم بشخصه لزيارة أخيه، أي لزيارتي، لتناول الغداء.

وهنا رفع المختار إصبعه وأمال رأسه بوضعية كمن ينصت إلى شيء ما، ثم أردف:

– القوميسار! أسمعتم. القوميسار قادم لتناول الغداء معي أنا! ما قولك أيها السيد الكاتب، وأنت يا صاحبي، إنه لشرف كبير، أليس كذلك؟

فقال الكاتب:

– فيما أذكر، لم يسبق لأيّ مختار أن استضاف القوميسار على الغداء.

قال المختار بخيلاء: "ليس كل مختار مختار!"، والتوى فمه ودوّى من بين شفتيه شيء أشبه بضحكة ثقيلة مبحوحة أقرب إلى قصف رعد بعيد، ثم قال:

– ما قولُك أيها السيد الكاتب، ألا ينبغي، إكراماً لهذا الضيف رفيع المقام، أن نصدر أمراً بأن يُحضر كل بيت فرخ دجاج على الأقل وشيئاً من القماش وربما غير ذلك... هه؟

– بلى يا سيادة المختار، يجب ذلك!

سأل ليفكو:

– ومتى سيُقام الزفاف يا أبتِ؟

– الزفاف؟ لكنت أريتك الزفاف!... ولكن، إكراماً للضيف الجليل... غداً سيعقد القس قرانك. لعنة الله عليك! فليرَ القوميسار ما معنى أداء الواجب!... والآن يا شباب، حان وقت النوم! هيّا إلى منازلكم!... إن ما حدث اليوم أعاد إلى ذاكرتي تلك الأيام عندما...

عند نطقه بهذه الكلمات أرسل المختار من تحت حاجبيه نظرته المألوفة التي تشير إلى خطورة شأنه.

قال ليفكو: "الآن سيبدأ المختار يروي لنا كيف واكب الإمبراطورة!" ومضى بخطى عجولة مسرعاً بفرح إلى البيت المألوف المحاط بشجيرات الكرز وهو يقول بينه وبين نفسه: "جعل الله ملكوت السماء من نصيبك أيتها الأميرة الطيبة الرائعة، ولتُسعدي دائماً بين الملائكة الأبرار في العالم الآخر! لن أخبر أحداً

بالمعجزة التي حدثت هذه الليلة، لن أحكيها سوى لكِ وحدكِ يا حبيبتي، فلن يصدّقني أحد سواكِ، وسوف نصلّي معاً لراحة نفَس الغريقة المسكينة!".

وهنا كان قد اقترب من البيت، فوجد النافذة مفتوحة، وضوء القمر يدخل منها ويسقط على حنّة النائمة قربها وقد توسّدت ذراعها، وكان خدّاها يتوهجان وشفتاها تختلجان مغمغمةً باسمه. همس لها: "نامي يا جميلتي، واحلمي بكل ما هو خير في الدنيا، ولكن حتى ذاك لن يكون أفضل من يقظتنا!" ثم رسم عليها علامة الصليب وأغلق النافذة ومضى مبتعداً بهدوء. وبعد بضع دقائق كانت القرية كلها قد أخلدت للنوم، ولم يبقَ إلا القمر يسبح وحده متألقاً ورائعاً في فضاء السماء الأوكرانية المترامية الأطراف. كذلك كان الليل في السماء، الليل القدسي، يتنفس بمهابة ويتألق بجلال. كذلك الأرض كانت المغمورة بالضياء الفضي الساحر رائعة الحسن. لكن لم يكن هناك من يرتوي من هذا السحر حتى الثمالة، فالقرويون جميعاً كانوا غارقين في النوم، وفقط من حين إلى آخر كان نباح الكلام يخرق الصمت، وكان كالينيك السكران لا يزال يترنّح في الطرقات باحثاً عن بيته.

الخطاب المفقود

(حكاية رواها قندلفت كنيسة...)

تريدونني، إذن، أن أروي لكم المزيد عن جدّي. حسناً، ما المانع من تسليتكم بواحدة من قصصه الطريفة؟ آه، سقى الله تلك الأيام! يا للفرح الذي ينتاب المرء ويا للبهجة التي تثلج قلبه عندما يسمع بما كان يجري في العالم في سحيق القدم، عندما كان عمره حتى أقل من شهر! هذا ناهيكم عن أنه عندما يكون أحد من أقاربه، جدّه أو جدّ جدّه، متورّطاً في القصة، حينها اغسل يديك منه. أما أنا، فلأغصّ وأنا أرتّل نشيد القديسة الشهيدة باربرا إن لم يُخيَّل إليّ أنّ كل ذلك كأنما قد جرى لي، كأنني تقمّصت روح جدّ جدّي، أو أنّ روحه تلبّستني... وإنّ أكثر من يزعجني ويلحف عليّ فتياتنا ونساؤنا الصغيرات. فما إن تقع أعينهنّ عليّ حتى يبدأنَ بالإلحاح: "فوما غريغوريفيتش، فوما غريغوريفيتش! هيّا اروِ لنا قصة من قصصك المخيفة! هيّا، هيّا!..." تراتاتا، تراتاتا، ويواصلنَ الإلحاح... وبطبيعة الحال لا مانع لديّ من أن أروي لهنّ، لكن انظروا إلى ما يحدث لهنّ حين يأوينَ إلى الفراش. فأنا أعلم أن كل واحدة منهنّ ترتجف من الخوف تحت اللحاف،

كأنما هي محمومة، ولو استطاعت لدسّتْ حتى رأسها داخل فروة الصوف التي تتغطّى بها. ولو أنّ جرذاً راح يخمش قِدْراً، أو لمست قدمها مسعر النار بطريقة ما، فيا للهول! لسوف ترتعد فرائصها... وفي اليوم التالي، كأنّ شيئاً لم يكن، تعود تلحّ ثانيةً ولا تريد سوى أن أحكي لها حكاية مخيفة. وإذن، ما عساي أروي لكم؟ إذ لا يحضرني شيء الآن... آه نعم، سأروي لكم كيف لعبت الساحرات مع جدّي لعبة "الأحمق"[1]. لكن أرجوكم مسبقاً، يا سادة، ألاّ تقاطعوني، وإلا سينتج عن ذلك "شوربة" يعاف المرء تناولها.

لا بدّ من القول إنّ جدّي في زمانه لم يكن مجرّد قوزاقي من القوزاق البسطاء، فقد كان يعرف المصطلحات والاختصارات جيداً. وكان في الأعياد يتلو "أعمال الرسل" بطريقة لو سمعه أي قسّ من قساوسة أيامنا لتوارى من الخجل. وإنكم تعلمون جميعاً أنّ الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة في بلدة باتورين بأسرها كانوا يُعدّون على أصابع اليد الواحدة، وبالتالي لا عجب في أنّ كل من كان يلقى جدي كان ينحني له، بل وبعضهم يكاد يركع أمامه.

ذات يوم خطر لقائد القوزاق الموقّر أن يرسل خطاباً إلى الإمبراطورة. وقد أرسل كاتب الفرقة آنذاك – ليأخذه الشيطان، لكنني لا أذكر اسمه... أكان فيسكرياك أم موتوزجكا أم غولوبوبتسيك... كل ما أذكره أنه كان يحمل لقباً جليلاً، – وإذن فقد استدعى كاتب الفرقة هذا جدّي وقال له إنّ القائد بنفسه سيكرمه بإرساله رسولاً يحمل خطاباً إلى الإمبراطورة. جدّي لم يكن يحب تضييع الوقت

---

[1] لعبة ورق شعبية يجب على اللاعبين فيها التخلّص من أوراقهم ومن تبقى أوراق لعب في يده في النهاية يُدعى الأحمق. (م)

في الاستعداد، فخاط الخطاب في قبعته، وأخرج جواده، وقبّل زوجته و"خنّوصيه" كما كان يسمّي ولديه، وكان أبي أحدهما، ثم أثار خلفه زوبعة هائلة من الغبار كالزوبعة التي يثيرها خمسة عشر صبياً يلعبون لعبة "خلطه بيطه" في عرض الطريق. وفي اليوم التالي، وقبل أن يصيح الديك للمرة الرابعة، كان جدّي قد صار في كونوتوب، وكان هناك مهرجان تسوّق آنذاك، وكان الناس يتقاطرون عبر الشوارع أفواجاً. لكن حيث أنّ الوقت كان مبكراً، فقد كان الجميع لا يزالون نياماً مستلقين على الأرض. كان يستلقي بجوار بقرة فتى عربيد أحمر الأنف كطائر الدغناش، وعلى مقربة منه كانت تشخر بائعة، وهي جالسة، وأمامها حجارة صوّان وأقراص "نيل"[1] وخردق بنادق العيد وكعك. واستلقى تحت إحدى العربات غجري، وفي عربة محمّلة بالسمك كان يستلقي حوذي. وفي عرض الطريق انطرح موسكوفيٌّ ملتحٍ متمنطق بحزام ويرتدي قفازين... باختصار، كان المكان حافلاً بشتّى العوام والسوقة، كما تكون الحال عادةً في الأسواق.

توقّف جدّي كي ينعم النظر حوله جيداً، وفي هذه الأثناء بدأت الحركة تدبّ شيئاً فشيئاً في الخيام. فقد بدأت اليهوديات يقعقعنَ بقواريرهنّ، وأخذت حلقات الدخان تتصاعد هنا وهناك، وانتشرت رائحة الكعك الساخن في المخيم كله. تذكّر الجدّ أنه لم يجلب معه لا قدّاح ولا تبغ لفرط استعجاله، فراح يتجوّل في السوق، ولم يكد يمشي عشرين خطوة إذا به يلتقي زابورجياً[2] حتى من وجهه يدرك

١ مكعّب أزرق اللون يُضاف إلى ماء غسل الثياب لتزداد نظافةً. (م)

٢ من مدينة زابورجيا، وكان معظم سكانها من القوزاق آنذاك. (م)

المرء أنه متسكّع عربيد! وكان يرتدي سروالاً أحمر كالنار وسترةً زرقاء، ويتمنطق بحزام ملوّن فاقع، وعلى خصره سيف، وغليونه معلّق بسلسلة نحاسية طًويلة تصل إلى كعبه... باختصار، زابوروجي حقيقي! آخ، زابوروجي أصيل! ينهض واقفاً، يمطّ جسمه، يمسّد شاربيه في فتوّة، يقرقع بعقبيه، ثم ينطلق في الرقص، ويا له من رقص: ساقاه تفتلان كما يفتل المغزل في يدي امرأة، ويضرب بأصابعه أوتار البَندورا كلها معاً كالإعصار، وفي الحال يضع ذراعيه في خاصرتيه وينخرط في الرقص، وتنساب الأغنيات، فتنطلق النفس تسرح وتمرح! نعم، لقد ولّت تلك الأيام، ولم تعد ترى اليوم زابوروجيين حقيقيين! أجل، هكذا التقى الرجلان. وكلمة تلو أخرى، تعارفا، وراحا يثرثران ويثرثران حتى نسي جدّي تماماً كل ما يتعلق بالمهمة التي أوكل بها، وسكرا سكرةً، كما يسكر الناس عادةً قبل الصوم الكبير، ويبدو أنهما، أخيراً، شعرا بالضجر من تحطيم الأباريق وإلقاء النقود للناس، هذا فضلاً عن أنّ ما من سوق تبقى قائمة إلى الأبد! وهكذا اتفق الصديقان الجديدان على ألاّ يفترقا وأن يترافقا في الطريق. كان المساء يوشك أن يحلّ عندما خرج الصديقان إلى البرية، وكانت الشمس قد غادرت لترتاح، وحلّت محلّها خيوط حمر كانت تتوهج هنا وهناك في السماء. كانت البرية تزهو بالحقول المبرقشة التي تشبه التنانير الملونة التي ترتديها فتياتنا كحيلات العيون في أيام الأعياد.

انطلق لسان زابوروجينا بالحديث، وتساءل جدّي ومتسكّع آخر كان قد تطفّل عليهما إنْ لم يكن الزابوروجي قد تلبّسه شيطان، إذ من أين له كل هذه القصص والحكايات؟ وكانت تلك القصص والحكايات عجيبة إلى درجة أنّ جدّي أمسك بخصره وكاد أن ينشقّ

جنباه من الضحك. على أنّ الظلام كان يشتد كلما أوغلوا أكثر في البرية، وفي الوقت نفسه كان حديثهم يزداد بلبلةً وتشتتاً. وفي آخر الأمر صمت حكواتينا تماماً وصار يجفل عند سماعه أقل خشخشة.

– هيه هيه يا بلدياتي، أرى أنك لم تكن تمزح حين بدأت تعدّ طيور البوم[1]، وأظن أنك تتمنّى لو أنك كنت الآن في بيتك راقداً فوق الموقد!

التفت إليهما الرجل فجأةً وقال محملقاً إليهما:

– لا داعي لإخفاء الأمر عنكما. أتعلمان أنني قد بعت روحي للشيطان منذ أمدٍ بعيد؟

– وما العجيب في ذلك! إذ من ذا الذي لم يتعامل مع الشيطان في حياته؟ وفي هذه الحالة يجب على المرء أن يشرب حتى الثمالة كما يُقال.

فقال وهو يصافح أيديهما مُصفقاً:

– إيه يا أصحاب! لكنت لهوتُ معكما، لكن صاحبكم ستحين ساعته هذه الليلة! إيه يا أخوَيّ! لا تتخليّا عني، واسهرا عليّ ليلة واحدة، ولن أنسى صداقتكما ما حييت!

ما المانع من مساعدة إنسان في بلية كهذه؟ وفي الحال أعلن جدّي أنه خيرٌ له أن تُنتزع قنزعته الشائبة عن رأسه من أن يسمح للشيطان أن يتشمَّم بخطمه الكلبي نفساً مسيحية.

ربما كان قوزاقيّونا سيواصلون طريقهم لو لم يغشَ السحاب السماء كلها ليلاً حتى بات أشبه بستارة سوداء، ولو لم تخيّم عتمةٌ في

---

١ عبارة تشير إلى الخوف وتوقّع حدوث مصيبة. (م)

البرية أشدّ عتمةً من العتمة التي داخل فروة صوف. كان هناك ضوء يومض في البعيد، وشعرت الجياد بوجود إسطبل قريب فأخذت تسرع الخطى وقد أرهفت آذانها محملقةً بعيونها في توجّس. بدا الضوء وكأنه ينطلق لملاقاة القوزاق، وظهرت أمامهم حانة مائلة على أحد جوانبها، كأنها فلاحة عائدة من حفلة عمادة مرحة. ولم تكن حانات تلك الأيام كحانات اليوم. فقد كانت من الضيق بحيث أنّ المرء لم يكن عاجزاً فيها عن الرقص والدوران ومغازلة الفتيات فحسب، بل حتى لم يكن هناك مكان يستلقي فيه عندما تدور الخمر برأسه وتبدأ قدماه بالخربشة على الأرض.

كان فناء الحانة برمّته مزدحماً بعربات الحوذية، وكان الرجال يرقدون، بعضهم متكوّراً على نفسه وآخرون فاردين أطرافهم، تحت السقائف وفي العنابر والمعالف، وهم يشخرون ويَهرّون كالقطط. فقط صاحب الحانة كان يجلس أمام السراج ويحزّ حزوزاً في عصاه يسجّل بها عدد "الربعيّات" و"النصيّات" التي شربها الحوذية. طلب الجدّ ثلث سطل من الخمر لثلاثتهم ثم توجّه نحو عنبر الحبوب. استلقى الرجال الثلاثة على الأرض جنباً إلى جنب. ولم يكد جدّي يلتفت حتى رأى أن صاحبيه ينامان نوم القبور، فأيقظ القوزاقي الثالث الذي تطفّل عليهما وذكّره بالوعد الذي قطعاه لرفيقهما، فنهض ذاك وفرك عينيه ثم غفا ثانيةً، ولم يبقَ أمام الجدّ إلاّ أن يقوم بالحراسة وحده. ولكي يطرد النوم عن عينيه راح يتفحّص العربات ويعاين الخيول، ثم دخّن غليونه وعاد أدراجه وجلس مرة أخرى بجوار صاحبيه. كان السكون مخيماً بحيث بدا أن ما من ذبابة تطير، وفجأةً خُيِّل إليه أنّ شيئاً ما رمادي اللون يُبرز قرنيه من وراء العربة المجاورة... وهنا بدأت

عيناه تغمضان بحيث اضطر إلى فركهما بقبضته ومسحهما بما تبقى من الفودكا في كل لحظة. ولكن ما إن كانت عيناه تستيقظان حتى كان كل شيء يختفي أمام ناظريه. أخيراً، بعد ذلك بقليل ظهر الشبح مرة أخرى من تحت العربة... حملق الجدّ بعينيه قدر ما استطاع، لكنّ النعاس اللعين كان يجعل كل شيء ضبابياً أمام عينيه، ودبّ الخدر في يديه، ومال رأسه جانباً، واستولى عليه نومٌ ثقيل وارتمى على الأرض كميت.

نام جدّي طويلاً، وفقط بعد أن لسعت الشمس رأسه الحليق انتفض ونهض واقفاً على قدميه. وبعد أن تمطّى مرّتين وحكّ ظهره لاحظ أن عدد العربات في الفناء بات أقل مما كان عليه أمس. من الواضح أن الحوذية قد غادروا قبل طلوع الفجر. وعندما استدار إلى صاحبيه وجد أن القوزاقي لا يزال نائماً، وأن الزابوروجي ليس هناك، فسأل عنه لكن لم يكن أحد يعرف شيئاً عنه، وفقط سترته كانت ملقاة في المكان حيث كان نائماً. تملّك الرعب والحيرة جدّي. وعندما ذهب لتفقّد الجياد وجد أن حصانه وحصان الزابوروجي قد اختفيا! ما معنى ذلك؟ إذا افترضنا أن الزابوروجي أخذه الشيطان، فمن أخذ الجوادين؟ وبعد أن فكّر في الأمر ملياً انتهى إلى أن الشيطان ربما يكون قد جاء سيراً على قدميه، وبما أن المسافة إلى الجحيم طويلة فقد استولى على حصانه أيضاً. وتملّكه الحزن والأسى لكونه لم يحفظ عهد القوزاقي الذي قطعه. ثم قال يحدّث نفسه: "ما باليد الحيلة. لا بأس، سأكمل طريقي سيراً على الأقدام، ولا بد أن أصادف عربة تاجر خيل عائد من السوق في الطريق، وسأشتري حصاناً منه بطريقة ما". وحين مدّ يده ليتناول قبعته فوجئ بأنها هي أيضاً قد اختفت. ضرب جدّي المرحوم

كفّاً بكفّ حين تذكّر أنه تبادل قبّعته مع الزابوروجي لبعض الوقت. فمن يكون قد سرق القبعة إن لم يكن الشيطان نفسه. يا لك من رسول لقائد القوزاق! وكم أوصلتَ الخطاب إلى الإمبراطورة! وأخذ جدّي ينعت الشيطان بنعوت قبيحة ويكيل له من الشتائم حتى أحسب أنه عطس أكثر من مرة في الجحيم آنذاك[١]. لكن الشتائم قلّما تجدي، ورغم حكّه الشديد لرأسه إلاّ أن الجدّ لم يهتدِ إلى أي فكرة. فما العمل؟ انطلق يلتمس المشورة عند الآخرين، فجمع كل الناس الطيبين الذين كانوا متواجدين في الحانة آنذاك، من الحوذية وعابري والسبيل، وأخبرهم بالقصة كلها وبالمصيبة التي انتهى إليها. فكّر الحوذية طويلاً، وقد أسندوا ذقونهم إلى سياطهم، ثم هزّوا رؤوسهم وقالوا إنهم لم يسمعوا قط بأعجوبة كهذه في العالم المسيحي: أن يسرق الشيطان خطابَ قائد من قادة القوزاق! وزاد آخرون بأنه إذا سرق الشيطان أو حتى موسكوفي شيئاً ما فإنه يغدو أثراً بعد عين. صاحب الحانة فقط كان يجلس في الركن صامتاً لا يشارك في الحديث، فتوجّه جدّي نحوه، ذلك أنّ الرجل حين يصمت فهذا يعني على الأرجح أنه شخص راجح العقل. بيد أنّ صاحب الحانة كان شحيح الكلام بعض الشيء، ولو لم يُخرج جدّي خمس قطع ذهبية من جيبه لذهب وقوفه أمامه سدى.

أخذه صاحب الحانة جانباً وقال: "أنا سأرشدك كيف تجد الخطاب". انزاح حمل ثقيل عن قلب الجد، وأردف صاحب الحانة:

---

١ يشير غوغول هنا إلى خرافة شعبية مفادها أن الشيطان يعطس في الجحيم كلما شتمه أحد. (م)

"إنني أرى من خلال عينيك أنك قوزاقي حقيقي، لا 'حُرمة'[١]. فاسمع إذن! على مقربة من الحانة من جهة اليمين ثمة منعطف يؤدي إلى الغابة، وما إن يحلّ الغروب في البرية يجب أن تكون على أهبة الاستعداد. يعيش في الغابة قومٌ من الغجر، وهم يخرجون من جحورهم في الليالي التي لا يخرج فيها سوى الساحرات وهنّ يتجوّلنَ على مكانسهنّ، ويبدأون بطرق الحديد. أما ما هي حقيقة حرفتهم، فهذا ليس شأنك. سوف تسمع طَرْقاً كثيراً في الغابة، فلا تمضِ إلى حيث تسمع الطَرْق، وستجد أمامك درباً ضيقاً قرب شجرة محترقة، فاسلك ذاك الدرب، وواصل السير فيه... ورغم أنه قد تعلق بك الأشواك، وتسدّ عليك الطريق أجمة كثيفة من أشجار البندق، إلاّ أنّ عليك مواصلة السير، وحين تبلغ جدول ماء هناك بإمكانك التوقف: هناك تجد بغيتك! ولا تنسَ أن تحمل في جيوبك ما صُنعت الجيوب من أجله، فإنك تعلم أن الجن والإنسان كلاهما على السواء يحبّان المال".

وبعد أن فرغ صاحب الحانة من كلامه مضى إلى غرفته الحقيرة رافضاً قول المزيد.

ولم يكن جدّي المرحوم من أولئك الذين يخافون ظلّهم، بل كان شخصاً قويّ القلب رابط الجأش، إذا صادف ذئباً لا يتردد في أن يمسكه من ذيله، وحين كان يُعمل قبضته بين القوزاق كانوا يتساقطون على الأرض كثمار الكمثرى. غير أنّ شيئاً ما جعل القشعريرة تسري في أوصاله عندما دخل الغابة في تلك الليلة الحالكة. إذ لم تكن هناك ولا نجمة واحدة في السماء، وكانت الغابة مظلمة وساكنة كما

١ حرمة: أي امرأة. وعندنا أيضاً يستخدم هذا التعبير للإشارة إلى الرجل الضعيف الركيك، فيقال: "إنه امرأة وليس رجلاً". (م)

في قبوٍ من أقبية النبيذ، ولم يكن يُسمَع سوى صوت نسمة باردة تداعبُ قمم الأشجار عالياً، وكانت الأشجار تتمايل برؤوسها الثملة، كرؤوس جماعة من القوزاق السكارى، وأوراقها تهمس نشوى بأغنيةٍ سكرى. ولمّا هبّت ريح باردة تذكّر جدّي فروته المصنوعة من صوف الغنم. فجأةً ترددت أصوات طَرْق في الغابة كأنها صادرة عن مئة مطروقة، وكان الطَرْق من القوة بحيث شعر جدّي بالطنين في أذنيه، وغمر الغابة بأسرها ضوء للحظة كوميض بروق الصيف، وفي الحال لمح جدّي درباً ضيقاً يخترق أجمة من شجيرات صغيرة، وهناك وجد الشجرة المحترقة والشجيرات الشوكية! كل شيء كان كما وصفه له صاحب الحانة تماماً. لا، لم يكذب عليه صاحب الحانة. على أنّ الأمر لم يكن مريحاً جداً وهو يشقّ طريقه وسط الأشواك الواخزة، فهو لم يرَ في حياته كلها أشواكاً يسبّب وخزها هذا الألم الفظيع الذي تسبّبه هذه الأشواك اللعينة، فقد كانت تجعله يوشك على الصراخ في كل خطوة تقريباً. ظل يسير رويداً رويداً إلى أن خرج إلى فسحة منبسطة رحبة، ولاحظ، على قدر ما استطاع أن يبصر، أن الأشجار صارت أقل ومتباعدة عن بعضها بعضاً أكثر، وأنها كانت من الضخامة بحيث أنه لم يرَ مثلها حتى في الطرف الآخر من بولندة. وحين أنعم النظر لمح الجدول وسط الأشجار، وكان أسود كالفولاذ المصقول. وقف جدّي طويلاً على ضفة النهر يعاين بنظره الجهات كلها. لاحت على الضفة الأخرى نار مشتعلة، وكانت تبدو أنها على وشك أن تنطفئ، لكنها تعود وتنعكس على صفحة الماء من جديد، وترتعش كما يرتعش ملاّك بولندي حين يقع في أيدي القوزاق. وها هو الجسر الصغير. "أظنّ أنّ عربة الشيطان

وحدها يمكنها أن تعبر فوق هذا الجسر". غير أنّ جدّي أخذ يخطو على الجسر بجرأة، وقبل أن يتمكّن أيٌّ كان من تناول قرنه[1] وتنشّق السعوط كان جدّي قد بلغ الضفة الأخرى. وهناك رأى أناساً يجلسون حول النار، وكانوا من الجمال والوسامة[2] بحيث أنّ جدّي لو التقاهم في وقت آخر لكان - والله أعلم - بذل الغالي والنفيس، فقط لكي يتجنّب لقاء أمثال هؤلاء. ولكن الآن، لم يكن باليد حيلة وكان لا بدّ من التحدّث إليهم. وهكذا انحنى لهم جدّي إلى حدّ الركوع تقريباً وقال: "السلام عليكم أيها الناس الطيبون!" لكن لا أحد منهم أومأ له برأسه، كانوا جالسين في صمت وهم يذرون شيئاً ما في النار. وإذ رأى جدّي مكاناً خالياً جلس من دون أي تكلّف ودون أن يدعوه أحد إلى الجلوس. لم يقل أصحاب الوجوه "المليحة" شيئاً، وجدّي أيضاً لم ينبس بكلمة، وظلوا جالسين طويلاً في صمت. إلى أن بدأ جدّي يشعر بالملل، فراح يبحث في جيوبه، وأخرج غليونه، ثم تلفّت حوله، لكنّ أحداً لم يكن ينظر إليه. "من فضلكم أيها السادة الأجلاّء، إذا سمحتم لي... (كان جدّي قد عركته الحياة جيداً، وكان فصيحاً بليغاً، ولو دعت الحاجة فإنه، على الأرجح، لن يجلب الحرج لنفسه حتى في حضرة القيصر نفسه)، أجل، اسمحوا لي أن أقول، بحيث لا أبخس نفسي حقها ولا أسيء إليكم بكلامي، إنّ معي غليوناً، لكن **ليس لدي**[3] ما أشعله به". كذلك لم يردّ عليه أحد ولو بكلمة واحدة،

---

١ كان القوزاق يستخدمون قرون الحيوانات لوضع السعوط فيها. (م)

٢ يشير غوغول هنا، بطريقة ساخرة، إلى مدى قبح وبشاعة شياطين الجحيم هؤلاء. (م)

٣ استخدم الجدّ هنا عبارة من المحكية الأوكرانية ليقول "ليس لدي" وهي تعني أيضاً "لا شيطان عندي". (م)

باستثناء أن أحدهم تناول جمرة وقرّبها من وجه الجدّ كثيراً لدرجة أنه لو لم يتنحَّ قليلاً لبقي بعين واحدة إلى الأبد. وحين رأى جدي أخيراً أنّ الوقت يمرّ سدىً قرّر أن يخبرهم بأمره سواء استمعت إليه قبيلة الشياطين هذه أم لم تستمع. أرهف هؤلاء آذانهم ومدّوا براثنهم، فأدرك جدّي ما يريدون، فجمع في كفّه كل ما في حوزته من مال ورماه في وسطهم، كأنهم كلاب. وفور إلقائه المال تبلبل كل شيء أمامه واضطرب، وتزلزلت الأرض من تحته، ووجد نفسه في ما يشبه الجحيم تقريباً، لدرجة أنه هو نفسه لم يفهم ما جرى له. تأوّه جدّي وصاح: "يا آبائي القديسين!"، وراح يعاين ما حوله: ما هذه المخلوقات العجيبة! كل وجه أقبح من الآخر كما يُقال، ولا يمكن تمييز أحدهم عن الآخر. وكانت الجنيّات من الكثرة كهطول الثلج أحياناً في عيد الميلاد، وكنّ جميعاً متأنّقات وقد صبغنَ وجوههنّ بالمساحيق، كما تفعل الفتيات الحسناوات عند ذهابهن إلى السوق. وجميعهن، كل اللواتي كنّ هناك، رحنَ يرقصنَ، كالسكارى، رقصة شيطانية ما. أما الغبار الذي أثرنه فقد بلغ عنان السماء! ولكان اقشعرّ بدن أي مسيحي مُعمَّد لو رأى فقط كم كان أفراد عشيرة الجنّ هؤلاء يقفزون عالياً. ورغم كل الهلع الذي استبدّ بجدّي إلا أنه لم يتمالك نفسه من الضحك حين رأى الشياطين، بوجوههم الشبيهة بخطوم الكلاب وسيقانهم الشبيهة بالمغازل، يدورون حول الجنّيات وهم يهزّون ذيولهم، وكأنهم فتيان يدورون حول فتيات حسناوات. أما الموسيقيون فكانوا يضربون خدودهم بقبضاتهم كأنهم يقرعون الطبول، ويصفرون بأنوفهم كأنها أبواق. وما أن لمحوا جدي حتى سحبوه إلى وسطهم وتجمهروا حوله، وأخذت كل هذه المخلوقات

الشبيهة بالخنازير والكلاب والماعز والحبارى والخيول تمدّ أعناقها محاولةً تقبيله، فبصق جدّي من القرف والاشمئزاز. وفي آخر الأمر أمسكوه وأجلسوه إلى مائدة لعلّ طولها كطول الطريق بين كونوتوب وباتورين. وقال جدّي يحدث نفسه إذ رأى على المائدة لحم الخنزير والسلامي والبصل المفروم بالكرنب وغير ذلك من الأطايب: "لا بأس بهذا على الإطلاق، من الواضح أنّ الشياطين الأوباش لا يصومون". ولا أخفيكم أن جدّي لم يكن يفوّت فرصة تناول اللقمة الطيبة إذا توفّرت، فقد كان المرحوم يتمتع بشهية طيبة. لذا، ودون أن يضيع الوقت في الاسترسال في الحديث، جذب إليه قصعة شرائح شحم الخنزير وقطعة من فخذ الخنزير المدخّن، وتناول شوكة ليست أصغر بكثير من المذراة التي يذري بها الفلاحون التبن، وانتقى أكبر قطعة من اللحم ووضعها على قطعة خبز، ولدهشته طارت القطعة إلى فم آخر قرب أذنه تماماً، بل وسمع كيف يمضغ أحدهم اللقمة وكانٍ صوت قعقعة أسنانه يتردد عبر المائدة كلها. تجاهل جدّي الأمر وتناول قطعةً أخرى، وبدا أنه قد أمسك بها بين شفتيه، لكنها مرة أخرى لم تنزل في حلقه. ولم ينجح في المرة الثالثة أيضاً. فاستشاط جدّي غضباً، ونسي خوفه، كما نسي بين براثن من هو الآن، وأخذ يصرخ في الجنيّات:

– أتحاولنَ الاستهزاء بي يا سليلات الطاغية هيرودتس؟ إن لم ترجعنَ إليّ قبّعتي القوزاقية في الحال، فلأكن كاثوليكياً إن لم ألوِ خطومكن الخنزيرية حتى تبلغ قفاكن!

وقبل أن ينهي كلماته الأخيرة كشّرت تلك المخلوقات العجيبة عن أنيابها وأطلقت ضحكةً مدوية جعلت الرعدة تسري في أوصال

جدّي. وصاحت واحدة من الجنيات خالَ جدّي أنها رئيستهنّ، فقد كانت أجملهنّ تقريباً:

- حسناً، سنردّ إليك قبّعتك، لكن ليس قبل أن تفوز علينا ثلاث مرات في لعبة "الأحمق"!

حار الجدّ ولم يدرِ ماذا يفعل. أن يلعب قوزاقي مع نساء لعبة الأحمق! رفض الجدّ أن يلعب، وظل يعاند، إلاّ أنه جلس في النهاية، فجيء بورق اللعب، وكانت ملطّخة بالزيت كالتي تفتح بها بنات القسس الفأل بخصوص الأزواج.

عَوتْ الجنية مرة أخرى قائلةً:

- اسمعني إذن! إن فزت ولو في دور واحد، القبعة لك، أما إن بقيت الأحمق في الأدوار الثلاثة فلن تخسر قبّعتك فقط، بل ربما لا ترى النور بعد ذلك أبداً!

- هيّا وزّعي الورق أيتها الحيزبون، وليكن ما يكون.

وهكذا، وُزِّع الورق. رفع الجدّ أوراقه فهاله ما رأى، فقد كانت بمنتهى التفاهة، وحبّذا لو كان بينها ورقة رابحة واحدة ولو من باب النكاية. أما الورق الذي يسحبه فكانت "العشرة" أعلى ورقة فيه، بل حتى لم تكن هناك ورقة مزدوجة، وظلّت الساحرة تكدّس الورق في يده خمساً خمساً، الأمر الذي جعله "الأحمق" في النهاية! وعلى الفور أخذت تلك المخلوقات تصهل وتنبح وتقبع من جميع الجهات: "أحمق! أحمق! أحمق!".

صاح جدّي وقد سدّ أذنيه بيديه: "أرجو أن تنفلقوا يا عشيرة الشيطان"، ثم قال في سرّه: "حسناً، لقد غشّتْ الجنية. الآن جاء دوري في توزيع الورق"، ووزّع الورق، ثم نظر إلى أوراقه: كانت

هناك "أصوص[1]" بينها، وفي البداية سارت الأمور على خير ما يرام. كان لدى الجنية خمسة ملوك، أما جدّي فأوراقه كلها كانت أوراق "أص"، ومن دون أن يفكّر طويلاً "قَشَّ" ملوكَ الجنية جميعاً بأوراق "الأصّ" التي لديه.

– هيه هيه! إنك لا تلعب على طريقة القوزاق! بِمَ "تقشّ" يا بلدياتنا؟

– كيف بِمَ؟ بالطرنيب!

– لعلها عندكم "طرنيب"، أما عندنا فهي ليست كذلك!

نظر جدّي إلى أوراقه فإذا بها بالفعل أوراق عادية خاسرة. ما هذه الألاعيب الشيطانية! وللمرة الثانية توجّب عليه أن يكون "الأحمق"، ومرة أخرى راح الشياطين يصيحون بأعلى صوتهم: "أحمق، أحمق!" لدرجة أن الطاولة اهتزت وتقافز الورق عليها. استشاط جدّي غضباً، ووزّع الورق للمرة الأخيرة، ومرة أخرى سارت الأمور على ما يرام. وضعت الجنية ورقة الخمسة ثانيةً، فـ"طَرْنَبَها" جدّي وسحب من دستة الورق "قاشوشاً" وضربها على الطاولة بحيث تغضّنت وصاح:

– قاشوش!

الجنية، ودون أن تنبس بكلمة، "طرنبت" ورقته بورقة الثمانية.

– بِمَ "تطرنبين" أيتها الشيطانة الشمطاء!

رفعت الجنية ورقتها فتبيّن أن تحتها ورقة "الستة" الخاسرة، فقال الجد: "يا للخدعة الشيطانية!" وضرب الطاولة بانزعاج بقبضته بكل قوته.

---

١ الجمع من "أصّ"، وهي ورقة "الواحد"، وهي الورقة الأقوى في لعبة الأحمق بعد "الطرنيب" أو "القاشوش". (م)

لحسن الحظّ أن الجنية كانت لا تزال في يدها أوراق خاسرة، وكان لدى الجدّ في ذلك الدور، كأنما من باب النكاية، ورقة "الاثنان". وأخذ يسحب الورق من الدستة، لكن بلا جدوى. فقد كانت أوراق تافهة لدرجة أن الجدّ أُسقط في يده. ولم يتبقّ في الدستة أي ورقة، فأخذ الجدّ يرمي ورقه حتى دون أن ينظر إليه، وهكذا رمى ورقة "الستة" الخاسرة، فأخذتها الجنية. "اللعنة! ما الذي يجري؟ لا شك أنّ في الأمر شيئاً!" ورسم الجدّ علامة الصليب على الورق خفيةً تحت الطاولة، ونظر فإذا في يده "آص" وملك وشاب من أوراق "الطرنيب"، وتبيّن أنه ألقى ورقة الملك بدلاً من "الستة".

– أوف، يا لغبائي! الملك الطرنيب! ماذا؟ أخذتها إذن؟ هه؟ يا سليلة القطط!... ألا تريدين الآص أيضاً؟ خذي إذن: أصّ! شاب!...

دوّى الجحيم بالهدير، وأخذت الجنيّة تتلوّى وتتشنّج، وطارت القبّعة، الله أعلم من أين، وارتطمت بوجه جدّي مباشرةً. فصاح الجدّ، وقد استعاد رباطة جأشه، وهو يضع قبّعته على رأسه:

– لا، هذا لا يكفي! إن لم يمثل حصاني الكميت أمامي في الحال، فلتصعقني الصاعقة في هذا المكان المدنّس إن لم أرسم عليكم جميعاً علامة الصليب المقدّس!

ولم يكد يرفع يده حتى كانت عظام حصانه تقعقع أمامه.

– هاك حصانك!

بكى المسكين كطفلٍ غرير حزناً على رفيقه القديم وهو ينظر إلى عظامه.

– أعطوني إذن أي جواد أخرج به من جحركم هذا!

فرقع الشيطان بسوطه فإذا بحصانٍ متوهّج كالنار تحته، وحلّق به

جدّي عالياً كالطير. غير أنه تملّكه الفزع في منتصف الطريق، عندما أخذ الحصان يخبّ السير عبر الوديان والمستنقعات، غير عابئٍ لا بصياحه ولا باللجام. وكانت الأماكن التي اجتازها مخيفة إلى درجة أنه كان يتصبّب عرقاً بمجرد أن يأتي على ذكرها. وحين ألقى نظرةً إلى الأسفل ازداد فزعاً وخوفاً، فقد كان يحلّق فوق هاويةٍ مرعبة! إلاّ أنّ الحيوان الشيطاني لم يعرها بالاً وطار من فوقها مباشرةً. حاول جدّي أن يتحكّم بالحصان، لكن هيهات! فقد كان الحصان يطير كالسهم، عبر جذوع الأشجار وفوق الآكام، هابطاً في غورٍ سحيق، ثم اصطدم بالقاع بقوة إلى درجة بدا معها أنّ "روحه طلعت". إلا أن جدّي عجز عن تذكّر ما جرى له بعد ذلك، وما إن ثاب إلى رشده بعض الشيء وتلفت حوله حتى رأى أن الفجر كان قد انبلج، ولاحت له أماكن مألوفة له، ووجد أنه ملقى على سطح بيته.

رسم جدّي علامة الصليب وهو ينزل عن السطح. يا لها من شيطنة! ويا للأعاجيب التي تحدث مع المرء! نظر إلى يديه فإذا بهما مخضبتان بالدماء، ثم نظر إلى وجهه في برميل من الماء فإذا به أيضاً كذلك، فاغتسل جيداً حتى لا يُفزع الأطفال، ثم دخل بيته في هدوء. وحين دخل فوجئ بأطفاله يتراجعون أمامه فزعين ويشيرون إليه بأصابعهم وهم يقولون: "انظر، انظر، إن أمنا تقفز كالمجانين!" والواقع أن زوجته كانت تجلس غافيةً أمام مشط الصوف، وهي تمسك بيدها المغزل، وكانت، وهي نائمة، تقفز على الأريكة. فتناول جدّي يدها برفق وأيقظها قائلاً: "مرحباً يا زوجتي، هل أنت بخير؟" أطالت جدّتي النظر إلى زوجها، وحملقت بعينيها، ثم عرفته في آخر الأمر، وأخبرته أنها رأت في منامها الموقد يتجول في البيت ويطرد بمجرفة

القدور والبراميل وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله... فقال الجدّ: "ما رأيتِه في المنام أنا رأيته في اليقظة. أرى أنه لا بدّ من مباركة بيتنا، ولكن عليّ المغادرة الآن دون إبطاء!" وبعد أن قال ذلك، وأخذ قسطاً من الراحة، حصل جدّي على حصان ومضى يواصل الليل بالنهار إلى أن بلغ المكان المقصود وسلّم الخطاب للإمبراطورة نفسها. وهناك شاهد جدّي أشياء في غاية الغرابة بحيث ظلّ يحكي عنها طويلاً فيما بعد: كيف أدخلوه إلى غرف سقوفها من الارتفاع بحيث لو وضعت عشرة أكواخ فوق بعضها بعضاً ربما بالكاد تبلغ ذاك العلوّ، وكيف نظر داخل إحدى الغرف فلم يجد الإمبراطورة فيها، وكذلك في الثانية، والثالثة، والرابعة أيضاً، وعندما دخل الغرفة الخامسة رآها، هي نفسها، تجلس وعلى رأسها تاج من الذهب، وترتدي ثوباً جديداً رمادي اللون، وتنتعل حذاءً أحمر، وكانت أمامها فطائر ذهبية أيضاً. وكيف أمرت بملء قبعته بالأوراق المالية الزرق، وكيف... يستحيل تذكر كل شيء. أما بخصوص ما جرى له مع الشياطين فلم يعد يخطر له ولو مجرد خاطر، وإذا اتفق أن ذكّره أحدهم بذلك فإنه كان يلوذ بالصمت كأنّ الأمر لا يعنيه، وكان يجب بذل جهد عظيم لإقناعه بأن يروي كل ما جرى. ويبدو أنه، جزاءً له، نسي أن يبارك بيته بعد ذلك مباشرةً، ذلك أن زوجته كانت في الوقت نفسه من السنة تأخذ في الرقص رغماً عن إرادتها، ومهما حاولت منع نفسها إلا أنها كانت تبدأ بالارتعاش وتنطلق قدماها في الرقص.

الجزء الثاني

مقدمة

هاكم الجزء الثاني، والأفضل القول أنه الأخير! وكم كان بودّي أن لا أنشر هذا الجزء أيضاً. والحق أنه حان لي أن أتوقف. ولا أخفي عليكم أنّ أهل القرية بدأوا يسخرون مني قائلين: "لقد فقد الجدّ العجوز عقله. إنه يتسلّى بألعاب الأولاد في شيخوخته!" وبالفعل، فقد آن لي أن أرتاح منذ زمنٍ بعيد. ولعلكم، أيها القرّاء الأعزاء، تظنون أنني إنما أدّعي الكبر. ولكن كيف لي أن أدّعي ذلك ما دام لم يعد في فمي ولا سنّ واحدة، وحين أجد أمامي شيئاً طرياً فإني أحاول مضغه، أما الأشياء القاسية فلن آكلها لأي سببٍ كان.

على أيّ حال، هاكم كتاباً آخر! وأرجو ألاّ تشتموني، فالسباب أمر غير لائق عند الوداع، لاسيما تجاه شخص لا يعلم إلا الله إن كنتم ستلتقونه ثانيةً أم لا. في هذا الكتاب سوف تستمعون إلى رواة لا تعرفون أيّاً منهم تقريباً، اللهم إلا فوما غريغوريفيتش. أما ذاك السيد الذي كان يرتدي سترة صفراء ضاربة إلى الخضرة، وكان يتحدث بلغة فصيحة يعجز عن فهمها الكثير من الظرفاء ذوي النكتة بمن فيهم الموسكوفيون أنفسهم، فهو غائب منذ زمنٍ بعيد، فقد كفّ عن زيارتنا

بعد أن تشاجر مع الجميع. آه نعم، هل حدثتكم عن تلك الحادثة؟ استمعوا إذن، فقد كانت مهزلة!

في العام الفائت، وكان الصيف قد حلّ تقريباً، ولعله في اليوم الذي يصادف عيد شفيعي[1]، زارني (ينبغي أن أقول لكم، أيها القرّاء الأعزّاء، أن أبناء قريتي، الله يعطيهم العافية، لا ينسون الرجل العجوز. لقد مرّت خمسون سنة منذ بدأت أحتفل بعيد سميِّي. أما كم بلغت من العمر فعلاً، فلا أنا ولا زوجتي العجوز نستطيع أن نحدّد لكم ذلك بدقة. الأرجح أنني في السبعين. كان قسّ ديكانكا، الأب خارلامبي، يعرف سنة مولدي، لكنه – للأسف – غادر هذا العالم منذ خمسين سنة). وإذاً، فقد جاء لزيارتي ضيوف، وهم: زاخار كيريلوفيتش تشوخوبنكو، وستيبان إيفانوفيتش كوروجكا، وتاراس إيفانوفيتش سماجننكي، والمحلّف خارلامبي كيريلوفيتش خلوستا، وكان هناك أيضاً... الحقيقة أنني نسيت اسمه وكنيته... اوسيب... اوسيب... يا إلهي، فمدينة ميرغورود كلها تعرفه! عدا عن أنه حين يتكلّم يفرقع بأصابعه ويضع ذراعيه في خاصرتيه... ولكن دعونا منه الآن، سأتذكر اسمه فيما بعد. وجاء أيضاً ذاك السيد الذي من بلطافا الذي صرتم تعرفونه. أما توما غريغوريفيتش فلم آخذه في الحسبان، لأنه من أهل البيت. ودار الحديث (مرة أخرى ألفت أنظاركم إلى أننا لا نتحدث عن توافه الأمور أبداً، فأنا أحب دائماً الأحاديث اللائقة التي تجمع بين المتعة والفائدة كما يُقال)، وكان الحديث يدور حول تخليل التفاح. قالت زوجتي إنّ التفاح يجب أن يُغسل أولاً بشكل جيّد، ثم يُنقع في

[1] عيد القديس توما. (م)

"الكفاس"[١]، وبعد ذلك... فقاطعها البلطافي، واضعاً يده في جيب سترته الصفراء الضاربة إلى الخضرة، وهو يذرع الغرفة بوقار: "لن ينتج شيء عن ذلك، لن ينتج شيء! يجب ذرّ حشيشة الدود أولاً على التفاح، وبعد ذلك..." لكنني أسألكم، أيها القرّاء الأعزّاء، هل سمعتم يوماً بأنه يجب ذَرّ حشيشة الدود على التفاح؟ صحيح أنهم يضيفون ورق العنب أو عشبة الخنزير أو الحندقوق، أما حشيشة الدود، فهذه أول مرة أسمع بشيء كهذا. لكنني أعتقد أن ما من أحد يعرف في هذه الأمور أفضل من زوجتي العجوز. احكموا بأنفسكم. لذا انتحيت به جانباً، كما يفعل الناس الطيبون، وقلت له: "على رسلك يا ماكار نازاروفيتش، لا تُضحك الناس منك. فأنت رجل رفيع المقام، وقد تناولت الغداء مع المحافظ على المائدة نفسها حسب قولك. ولو أنك قلت شيئاً كهذا هناك لجعلت من نفسك أضحوكة للجميع!" فكيف تحسبون كان جوابه؟ لا شيء! بصق على الأرض وتناول قبّعته وغادر، حتى دون أن يودّع أحداً، أو يومئ برأسه لأحد على الأقل، وكل ما سمعناه هو صوت جرس عربته وهي تقف أمام الباب الخارجي، ركبها ورحل. وحسناً فعل، فنحن في غنى عن ضيوفٍ على شاكلته! وإنني أقول لكم، أيها القرّاء الأعزّاء، أنْ ليس في هذه الدنيا من هم أسوأ من هؤلاء الوجهاء. يكفي أنّ عمّ أحدهم كان قوميساراً ذات يوم حتى يشمخ بأنفه. كأنما لا توجد في العالم رتبة أعلى من رتبة القوميسار! إذ هناك من هو أعلى من القوميسار والحمد لله. كلا، إنني لا أحب هؤلاء الوجهاء. إليكم توما غريغوريفيتش مثلاً، فهو ليس وجيهاً من

١ عصير الشعير من دون كحول. (م)

الوجهاء، لكن عند النظر إليه يجد المرء وجهه يتلألأ بالهيبة ورفعة الشأن، بل حتى عندما يتنشّق سعوطاً عادياً يشعر المرء تجاهه لاشعورياً بالإجلال. وحين يُنشد في الكنيسة مع حلقة المنشدين، فإن الدفء الذي في صوتهِ يستعصي على الوصف! كأنه يذوب رقّةً وحناناً!... أما ذاك، كان الله في عونه، فهو يظن أنْ لا غنى لنا عن قصصه. ورغم ذلك ها قد جمعنا من القصصِ ما يملأ كتاباً.

وأذكر أنني وعدتكم بأن أُضمّن هذا الكتاب حكاية من حكاياتي أيضاً، وكنت أريد القيام بذلك حقاً، لكني وجدت أنّ ذلك يقتضي ثلاثة كتب كهذا الكتاب. لذا فكرت أن أطبعها على حدة، لكني عدلت عن ذلك، فأنا أعرفكم جيداً، وأعرف أنكم سوف تسخرون مني، أنا العجوز. لا، لا أريد. لذا وداعاً، فقد يمضي وقت طويل قبل أن نلتقي ثانيةً، ولعلنا لا نلتقي أبداً. ما لكم؟ فالأمر سيّان بالنسبة إليكم، حتى لو انعدم وجودي في الدنيا. ولسوف يمضي عام، ثم آخر، ولن يذكر أيٌّ منكم النحّال العجوز بانكو الأصهب أو يحزن عليه.

ليلة عيد الميلاد

انقضى آخر يوم قبل عيد الميلاد، وحلّت ليلة شتائية صافية. أطلّت النجوم، وطلع القمر بمهابة في السماء ليلقي ضوءه على الناس الطيبين والعالم أجمع، لكي يُسرّ الجميع بإنشاد "الكولادكي"[1] ويمجّدوا المسيح. صار الطقس أبرد ممّا كان عليه في الصباح، لكن في المقابل كان السكون مخيّماً حتى إن صوت قرقعة الجليد تحت الأقدام كان يُسمع من مسافة نصف فرسخ. لم يكن أي تجمّع للفتيان قد ظهر تحت نوافذ البيوت بعد، وكان القمر وحده يختلس النظر إليهم، كأنما يدعو الفتيات المتبرّجات المتأنّقات إلى الإسراع في الركض على

١ الكولادكي: هي أغنيات تُغنّى تحت النوافذ في ليلة عيد الميلاد. وذاك الذي ينشد الأغنيات تلقي ربة البيت، أو رب البيت، أو أي شخص آخر موجود في البيت، في كيسه دائماً قطع السلامي أو الخبز أو قرشاً نحاسياً، كلٌ حسب قدرته. ويقال إنه كان هناك شخص عبيط اسمه كولاد، اعتبره بعض الناس إلهاً، وأن هذه الأناشيد نُسبت إليه. من يدري؟ فليس لنا، نحن البسطاء، المجادلة في ذلك. وفي العام الماضي حرّم الأب اوسيب على الناس إنشاد الكولادكي في القرى قائلاً إنهم إنما يحاولون استرضاء الشيطان. بيد أن الكولادكي، إن أردنا قول الحق، لا يُذكر فيها كولاد مطلقاً، فالأناشيد كلها تتعلق بميلاد المسيح، وفي الختام يتمنون الصحة لربّ البيت وربة البيت وأبنائهما ولكل من في البيت. (الملحوظة لمربي النحل) – ن. ف. غوغول.

الجليد المصرصر. وفي تلك اللحظة أخذت أعمدة الدخان تتصاعد في السماء من مدخنة أحد البيوت، ومع الدخان ارتفعت عالياً ساحرة تمتطي مكنسة.

ولو أنّ قاضي محكمة الريف في بلدة سوروتشينتسي مرّ في هذه الأثناء بعربته "الترويكا"[١] التي تجرّها ثلاثة جياد مستأجرة، بقبعته ذات الحواف الأستراخانية، من الطراز الأولاني[٢]، ومعطفه الأزرق المبطّن بالفراء الأستراخاني الأسود، وسوطه المجدول جَدْلاً شيطانياً الذي اعتاد أن يستحثّ به حوذيه، لكان ربما لاحظها، لأنه ما من ساحرة في الدنيا يمكنها أن تُفلت من قاضي سوروتشينتسي. فهو يعرف بالعدد كم خنوصاً أنجبت خنزيرة كل فلاحة، ومقدار ما في صندوقها من الكتّان، وأي ثوب من الأثواب بالتحديد، أو أي غرض من أغراض المنزل، قام أحد الناس الطيبين برهنه يوم الأحد في الحانة. لكن قاضي سوروتشينتسي لم يمرّ من هذا المكان، عدا عن أنه ما له وشؤون الآخرين، فله ناحيته يعنى بشؤونها. أما الساحرة فقد حلّقت عالياً حتى بدت كنقطة سوداء في السماء. لكن حيثما كانت تظهر هذه النقطة كانت النجوم تختفي من السماء الواحدة تلو الأخرى، وسرعان ما جمعت الساحرة ملء ردنها من النجوم. وكانت لا تزال تتلألأ ثلاث أو أربع نجمات. وفجأةً ظهرت من الجهة المقابلة نقطة سوداء أخرى، وراحت تكبر وتستطيل بحيث أنها لم تعد نقطة. ولو أنّ شخصاً مصاباً بقصر النظر وضع على عينيه عجلتي عربة القوميسار

---

١ الترويكا: مشتقة من "تري = ثلاثة، وهي نوع من العربات تجرّها ثلاثة جياد. (م)

٢ "أولان" (وتلفظ أيضاً "أوغلان"): كلمة تركية تعني "الشاب"، وهي تسمية كانت تُطلق على الحرس التتري. (م)

بدلاً من النظارات لما استطاع معرفة كنه هذا الشيء. فهو من الأمام ألماني قحّ[1]. فقد كان وجهه الضيّق، الذي يدور ويتشمّم كل شيء بلا انقطاع، ينتهي بخطم دائري، كالذي عند خنازيرنا، وساقاه كانتا من النحافة بحيث أنّ مختّار قرية يارسكي لو كان له مثلهما لكان كسرهما في أول رقصة قوزاقية. لكنه، في المقابل، كان من الخلف شبيهاً بمدّع عام حقيقي في زيّه الرسمي، فقد كان له ذيل طويل مستدق الطرف تماماً كالذي للسترات الرسمية في هذه الأيام، ولكن ربما بسبب لحية التيس التي في أسفل ذقنه والقرنين الصغيرين البارزين على رأسه، وأنه لم يكن أشدّ بياضاً من منظّف المداخن، كان في الإمكان التكهّن بأنه ليس ألمانياً ولا مدّعياً عاماً، وإنما ببساطة شيطان بقيت له ليلة أخيرة يجول فيها في الدنيا ويوقع الناس الطيبين في المعصية. ولكن ما إن ينبلج الصبح، ومع دقات الأجراس الأولى الداعية إلى صلاة الفجر، حتى يضع ذيله بين ساقية ويهرب إلى جحره لا يلوي على شيء.

في غضون ذلك تسلّل الشيطان بهدوء نحو القمر ومدّ يده ليمسك به، لكنه سحبها بسرعة فجأةً، كأنما لفحته الحرارة، ومصّ أصابعه، ثم طار إلى الجانب الآخر، وحاول ثانيةً، لكنه سحب يده مرةً أخرى. إلا أن الشيطان الخبيث، رغم إخفاقه، لم يتخلَّ عن ألاعيبه الخبيثة. فقد طار إلى أعلى والتقط القمر بكلتا يديه وأخذ يتقاذفه من يد إلى أخرى، وهو يصعّر خدّه وينفخ على يديه، كما يفعل الفلاح حين يلتقط جمرةً بيديه العاريتين لغليونه، وأخيراً سارع إلى وضعه في جيبه ومضى مسرعاً وكأنه لم يفعل شيئاً يُذكر.

---

١ عندنا يعتبرون أي شخص أجنبي ألمانياً، حتى لو كان فرنسياً أو هنغارياً أو سويدياً – الكلّ ألمان. (ن. ف. غوغول)

لم يلحظ أحد في ديكانكا أنّ الشيطان قد سرق القمر. صحيح أن كاتب المحكمة، أثناء خروجه من الحانة وهو يدبّ على أربع، رأى القمر يرقص في السماء دونما سبب، وأقسم للقرية كلها على ذلك، لكن أهل القرية هزّوا رؤوسهم وأخذوا يضحكون منه حتى. ولكن ما الذي دفع الشيطان إلى أن يقرر ارتكاب جرمٍ كهذا؟ إليكم السبب: لقد علم أنّ القس قد دعا القوزاقي الثري تشوبٍ لتناول عصيدة الرز بالزبيب[1]، وأنه سيحضر الوليمة كلٌّ من مختار القرية وقريب القس القادم من جوقة المطرانية حيث يؤدّي أخفض نغمة من نغمات القرار (باص)، وكان يرتدي سترة زرقاء، والقوزاقي سفيربيغوز، وغيرهم، حيث ستُقدَّم أيضاً، إلى جانب العصيدة، الفودكا المطيّبة والفودكا المقطّرة مع الزعفران والكثير من الأطايب الأخرى. وفي غضون ذلك ستبقى ابنته، الأجمل بين بنات القرية، بمفردها في البيت. ولا شك أن يذهب إليها الحداد، وهو شاب قوي مفتول العضلات، وكان الشيطان يكرهه أكثر مما يكره عظات الأب كوندرات. وكان الحداد في أوقات فراغه يمارس الرسم وذاع صيته كأفضل رسّام في الناحية. وقد استدعاه الضابط القوزاقي لـ... كو نفسه، الذي كان لا يزال على قيد الحياة آنذاك، من بلطافا خصيصاً ليطلي السياج الخشبي حول بيته. وكانت الرسوم على كل الصحاف التي يتناول فيها أهل ديكانكا حساء الكرنب من رسم الحداد. وكان الحداد شخصاً ورعاً وكثيراً ما يرسم صور القدّيسين، والآن أيضاً ما زالت لوحته التي صوّر فيها لوقا الإنجيلي موجودة في كنيسة (ت). لكن ذروة أعماله الفنية كانت

١ بالروسية "كُوتيا"، وتُقدّم عادةً في الولائم الجنائزية. (م)

اللوحة الجدارية التي رسمها على الجدار الأيمن لمدخل الكنيسة، التي صوّر فيها القديس بطرس في يوم الحساب، وفي يده مفاتيح، وهو يطرد إبليس من جهنم. والشيطان المفزوع، الذي شعر بدنوّ ساعة هلاكه، أخذ يجري في كل الاتجاهات، في حين راح الآثمون الذين أُخرجوا من الجحيم يطاردونه ويجلدونه بالسياط وقُرَم الخشب وكل ما يقع في أيديهم. وبينما كان الرسّام يعمل على هذه اللوحة ويرسمها على لوح خشبي كبير، بذل الشيطان كل ما في وسعه لمنعه من إتمامها، فكان يلكزه على يده خفيةً، أو يأخذ الرماد من كور الحدّاد وينثره على اللوحة، ولكن الحداد رغم ذلك أنجز العمل، وحُملت اللوحة إلى الكنيسة وعُلِّقت على الجدار الداخلي للمدخل، ومذذاك أقسم الشيطان على الانتقام من الحداد.

لم تبقَ للشيطان سوى ليلة واحدة يتسكّع فيها في الدنيا، وحتى في هذه الليلة الوحيدة كان يبحث عن وسيلة يصبّ بها جام غضبه على الحداد. ولهذا السبب قرر سرقة القمر آملاً أنّ تشوب العجوز كسول وثقيل الحركة، فضلاً عن أنّ بيت القس لم يكن بهذا القرب، والطِريق تمرّ من خارج القرية، بمحاذاة الطواحين والمقبرة، وتلتف حول أخدود. ولو كانت الليلة مقمرة، فإن الفودكا المطيّبة والفودكا المقطّرة مع الزعفران كفيلتان بإغراء تشوب. أما في ليلة حالكة الظلمة كهذه، هيهات أن يتمكّن أيٌّ كان من جرّه من مضجعه فوق الموقد وإخراجه من البيت. ولن يجرؤ الحداد، الذي لم يكن على وفاق معه منذ وقت طويل، على الذهاب إلى ابنته في حضوره لقاء أيّ شيءٍ كان، بغضّ النظر عن قوّته.

وهكذا، ما إن أخفى الشيطان القمر في جيبه حتى عمّ ظلامٌ حالك

العالم برمّته فجأةً بحيث لم يعد في مقدور أيٍّ كان إيجاد الطريق إلى الحانة، ناهيكم عن الطريق إلى بيت القس. وحين وجدت الساحرة نفسها في الظلام فجأةً صرخت، فهرع إليها الشيطان وأمسك بذراعها وأخذ يتزلّفها ويداهنها ويهمس في أذنها بكل ما يهمس به الرجال عادةً لكل جنس النساء. يا لغرابة عالمنا! فكل من يعيش فيه يحاول تقليد بعضه بعضاً بصورة كاريكاتورية. فيما مضى كان القاضي فقط وأحياناً العمدة الوحيدين في ميرغورود اللذين كانا يتجولان في الشتاء وهما في معاطف من الجوخ مبطنة بالصوف، فيما كل المَوظفين الصغار كانوا يرتدون معاطف من الصوف فقط. أما في أيامنا هذه فحتى كاتب المحكمة وملاحظ الأراضي يرتديان معاطف جديدة من الجوخ مبطّنة بالفراء الأستراخاني. وفي مطلع العام اشترى موظف الدائرة وكاتب الناحية جلد حوت أزق بستين غريفناً[١] للذراع. كما أن القس خاط لنفسه سروالاً من الكتّان وصديرية مقلّمة من الصوف المغزول لأجل الصيف. باختصار، الكلّ يتشاوف على الناس! متى سيكفّ الناس عن التصنّع؟ وإني على يقين من أن الكثيرين منهم سوف تنتابهم الدهشة إن رأوا الشيطان يسلك هذا السبيل. الأشدّ إزعاجاً في الأمر أنه يحسب نفسه وسيماً، في حين أنّ المرء يأنف من النظر إلى مظهره البشع. فوجهه أشنع من الشناعة نفسها، كما يقول توما غريغوريفيتش، ومع ذلك هو بالذات يوقع بالدجاجات العاشقات![٢] إلاّ أن الظلام احلولك في السماء وتحت السماء بحيث لم يعد في

١ الغريفن: عملة نقدية، وهي عملة أوكرانيا حالياً.

٢ كناية معناها: يصطنع الظرف والرقة ليسلب لبّ الفتيات.

الإمكان رؤية ما جرى لاحقاً بين الشيطان والساحرة.

* * *

"إذن لم تزر القس في بيته الجديد بعد يا قريبي؟"، سأل القوزاقي تشوب، وهو يخرج من باب بيته، فلاحاً هزيلاً طويل القامة يرتدي معطفاً قصيراً من الصوف، بدا من لحيته النامية أنها لم تمسسها منذ أكثر من أسبوعين قطعة من نصل المنجل الذي اعتاد الفلاحون أن يحلقوا بها لحاهم لافتقارهم إلى أمواس الحلاقة، ثم أردف مكشّراً عن ابتسامة: "سوف تكون السكرة عامرة هذه الليلة، وأرجو ألا نكون قد تأخرنا!" وأخذ يسوّي حزامه الذي كان يطوّق معطفه الصوفي بإحكام، وأحكم قبعته على رأسه مميلاً إيّاها على جبينه، ثم تناول سوطه الذي يخيف ويهدّد به الكلاب المزعجة، ولكنه حين نظر إلى السماء توقف...

– يا للشيطان! انظر، انظر يا باناس!...

– ماذا؟ سأل قريبه ورفع رأسه بدوره إلى أعلى.

– كيف ماذا؟ ليس ثمة قمر!

– ما القصة؟ ما من قمر حقاً.

فقال تشوب بشيء من الانزعاج جرّاء عدم اكتراث قريبه:

– القصة أنه ليس ثمة قمر، ويبدو أنك لا تحفل بالأمر.

– وماذا يمكنني أن أفعل؟

تابع تشوب يقول وهو يمسح شاربه بكمّه:

– لكن لكي يختفي القمر، الأمر يحتاج إلى شيطانٍ ما، جعل الله

ألاّ يجد هذا الكلب قدحاً من الفودكا يحتسيه في الصباح!... والحق أن الأمر أشبه بمزحة... فعندما كنت جالساً في البيت نظرت عبر النافذة، وكان الليل ساحراً يخلب الألباب! كان الضوء يغمر المكان وكان الثلج يتلألأ في ضوء القمر. كان كل شيء مرئياً كما في وضح النهار. ولم أكد أخرج من الباب، وإذا بالظلمة حالكة السواد!

ظلّ تشوب يدمدم ويشتم وقتاً طويلاً، وفي الوقت نفسه يفكّر في ما عليه أن يفعل. فقد كان يتوق إلى الثرثرة حول شتى توافه الأمور في بيت القس، حيث لا شك أن مختار القرية جالس هناك الآن، وكذلك ذاك المنشد الزائر جهير الصوت، وتاجر القطران ميتكا، الذي يأتي من بلطافا مرة كل أسبوعين بهدف التجارة ويلقي من النكات ما يتلوّى له القرويون من الضحك. وأخذ تشوب يتخيّل الفودكا المطيّبة الموضوعة على المائدة. كان هذا كله مغرياً حقاً، ولكن حلكة الليل ذكّرته بذاك الكسل اللذيذ العزيز على قلب كل القوزاق. فكم هو رائع الآن أن يستلقي على الموقد، طاوياً ساقيه تحته، ويدخّن غليونه في هدوء، وهو يصغي، والنعاس العذب يداعب جفونه، إلى أناشيد وأغنيات الفتيان والفتيات المرحين، المتجمهرين تحت النوافذ! لا شك أنه كان سيستقرّ على القرار الأخير لو أنه كان بمفرده، أما وهما اثنان فإن السير في هذه الليلة الحالكة لن يكون مملاً ومخيفاً إلى هذه الدرجة، فضلاً عن أنه لم يكن يحب أن يبدو كسولاً وجباناً أمام الآخرين. وبعد أن فرغ من اللوم والتقريع التفت إلى قريبه ثانيةً وقال:

– ليس ثمة قمر إذن يا قريبي!

– أجل.

– عجيب حقاً! اسمح لي بتنشّق سعوطك، فإن سعوطك رائع يا

قريبي! من أين تحصل عليه؟

أجاب قريبه وهو يغلق علبة سعوطه المزخرفة المصنوعة من خشب البتولا:

– وما الرائع فيه بحق الشيطان! إنه لا يجعل دجاجة عجوز تعطس!

تابع تشوب كلامه على المنوال نفسه:

– أذكر أن الخمّار المرحوم زوزوليا جلب لي ذات يوم سعوطاً من نيجينا. ذاك كان سعوطاً حقاً! كان سعوطاً طيباً بالفعل! والآن يا قريبي، ماذا علينا أن نفعل، فالظلام حالك.

فقال قريبه وهو يمسك مقبض الباب:

– الأفضل أن نبقى في البيت.

لا شكّ أن تشوب كان سيقرر أن يلزم بيته لو لم يقل قريبه ذلك، لكنه الآن، كأنما هناك ما يدفعه على الذهاب، فقط لكي يخالفه، قال:

– لا يا قريبي، لنذهب، لا يجوز، يجب الذهاب!

بعد أن قال هذا شعر تشوب بالندم وأخذ يلوم نفسه على ذلك، فقد كان يزعجه جداً الخروج في ليلة كهذه، لكن ما كان يعزّيه هو أنه هو من قرر ذلك بنفسه وأنه لم يستمع لنصيحة قريبه.

تلفّت قريبه حوله وحكّ كتفيه بمقبض سوطه دون أن تبدو على وجهه أي علامة تدلّ على تبرّمه، كشخصٍ سيّان عنده تماماً أن يلزم بيته أو يغادره، ومضى القريبان في الطريق.

* * *

لنرَ الآن ماذا تفعل ابنة تشوب الجميلة التي ظلت وحدها في البيت. لم

تكن أكسانا قد بلغت السابعة عشرة بعد حتى كان الناس في الدنيا كلها تقريباً، في هذا الجانب من ديكانكا وفي ذاك الجانب من ديكانكا، لا حديث لهم إلاّ عنها. وقد أجمع الشبان جميعاً على أنه لم تكن في القرية يوماً، ولن توجد أبداً، فتاة أجمل منها. كانت أكسانا تعرف وتسمع كل ما يُقال عنها، وكانت متقلبة الأهواء كأي حسناء أخرى. ولو أنها ارتدت معطفاً لائقاً بدلاً من الثوب الواسع والمئزر لنفرتْ كل صديقاتها من حولها. كان الفتيان يلاحقونها حشوداً، لكنهم كانوا ينصرفون عنها شيئاً فشيئاً، بعد أن ينفد صبرهم، ويتحولون إلى فتيات أخريات لسنَ بهذا التدلّل والتمنّع. والحداد هو الوحيد الذي ظلّ على عناده ولم يهن عزمه، على الرغم من أنها لم تكن تعامله قط أفضل من الآخرين.

بعد مغادرة أبيها البيت قضت أكسانا وقتاً طويلاً وهي تتبرّج وتتجمّل وتتغنّج أمام مرآة ذات إطارٍ من القصدير، لكنها لم تستطع بلوغ الرضا عن شكلها وزينتها، وأخذت تقول لنفسها، كأنما في شرود، فقط لكي تثرثر بينها وبين نفسها عن أي شيء كان: "ما الذي جعل الناس يشيعون عني بأنني جميلة؟ إنهم يكذبون، فأنا لست جميلة على الإطلاق". إلاّ أن الوجه النضر نضارة الشباب البريء، بعينيه السوداوين المتألقتين وابتسامته الفاتنة التي تعزّ على الوصف وتجعل النفس تضطرم، الذي كان يلوح في المرآة، كان يثبت العكس تماماً. وتابعت الحسناء تقول دون أن تفلت المرآة من يدها: "ترى هل حاجباي الأسودان وعيناي بهذا الجمال بحيث لا مثيل لها في الدنيا؟ ما الجميل في هذا الأنف الأقنى وفي هذين الخدين وهاتين الشفتين؟ وهل ضفيرتاي السوداوان جميلتان؟ أف! يمكن للمرء أن يفزع منهما

في الليل، فهما تلتويان وتلتفان حول رأسي كثعبانين طويلين. إنني أرى الآن أنني لست جميلة على الإطلاق!" ثم أبعدت المرآة قليلاً وصاحت: "كلا، إنني جميلة! آه كم أنا جميلة! فاتنة! يا لسعادة من يتزوجني! إنه لن يملّ من التمتّع بمرآي! سوف ينسى نفسه، وسيقبّلني حتى الموت".

أخذ الحداد يهمس، وهو يدخل البيت بهدوء، قائلاً: "فتاة عجيبة! كان ينقصها التباهي بنفسها! مضت ساعة وهي تتأمل نفسها في المرآة ولم تشبع من ذلك، فضلاً عن أنها تُطري نفسها بصوت مسموع!".

تابعت الحسناء المغناج تقول: "أأنتم أنداد لي أيها الفتيان؟ انظروا إلى رشاقة خطوي. وقميصي مطرّز بالحرير الأحمر، ويا للشرائط التي تزيّن رأسي! لن تروا أبداً أثمن من هذه الشرائط المقصّبة! لقد اشترى لي أبي هذا كله لكي يتزوجني أفضل شاب في الدنيا!" ثم استدارت وهي تضحك فرأت الحداد، فصرخت ووقفت أمامه بتجهّم وصرامة.

أسبل الحداد يديه في يأس.

يصعب وصف التعبير الذي لاح على وجه الفتاة المائل إلى السُّمرة، فقد كانت تُرى فيه الصرامة، ومن خلال الصرامة كان يلوح شيء من السخرية من الحدّاد المرتبك، وغمرت وجهها مسحة رقيقة من الكدر تُلحظ بالكاد، وامتزج هذا كله فيما بينه فأكسبها من الجمال ما يعزّ على الوصف بحيث يرغب المرء في تقبيلها ملايين القبلات، وهذا كان أفضل ما يمكن القيام به آنذاك.

شرعت أكسانا في الكلام فقالت:

– ما الذي دفعك للمجيء إلى هنا؟ هل تريدني أن أطردك خارج الباب بمجرفة؟ ما أبرعكم جميعاً في القدوم إلينا. إنكم تشمّون

فوراً لحظة غياب أبي عن البيت. نعم، أنا أعرفكم جيداً! قل لي، هل صندوقي جاهز؟

– سيجهز بعد العيد يا قلبي. فقط لو تعرفين كم بذلت فيه من الجهد. لم أبرح ورشة الحدادة ليلتين متتاليتين، لكن في المقابل لن تحظى ابنة أي قسّ بصندوقٍ مثله. إن الحديد الذي طوّقته به لم أضع مثله في عربة الضابط عندما كنت أعمل في بلطافا. ويا للنقوش التي سأنقشها عليه! لن تجدي لها مثيلاً حتى لو جلتِ الناحية كلها على قدميك البيضاوين! وسوف أنثر عليه كله الأزهار الحمر والزرق فيتوهج كالنار. فلا تحنقي عليّ، واسمحي لي أن أحدّثك، أو أنظر إليك على الأقل!

– ومن يمنعك من التحدث والنظر إليّ؟

وجلست على الأريكة وأخذت تنظر في المرآة من جديد وراحت تسوّي جديلتيها. رنا الحداد إلى جيدها وإلى قميصها الجديد المطرّز بالحرير، وارتسم شعورٌ خفي بالزهوّ على شفتيها ووجنيتها النضرتين وتلألأ في عينيها.

قال الحدّاد:

– اسمحي لي بالجلوس بجوارك!

فقالت أكسانا محافظةً على ذاك الشعور نفسه على شفتيها وفي عينيها المسرورتين:

– اجلس.

فقال الحداد وقد ازداد جرأةً:

– اسمحي لي يا أكسانا الفاتنة التي لا مثيل لها أن أقبّلك.

وضمّها إليه بنيّة تقبيلها، لكن أكسانا أبعدت خدّيها اللذين كانا

قد صارا على مسافة لا تُلحظ من شفتي الحداد، ودفعته عنها قائلةً:

– ماذا تريد مني أيضاً؟ فلكي يتناول المرء العسل لا بدّ له من ملعقة. إليك عني، فإن يديك أقسى من الحديد، فضلاً عن أنك، أنت نفسك، تفوح منك رائحة الدخان، وأظن أنك قد لوّثتني كلّي بالسناج.

ثم تناولت المرآة وأخذت تصلح هيئتها من جديد، فأطرق الحداد وراح يقول في نفسه: "إنها لا تحبني، وكل شيء بالنسبة إليها ليس سوى لعبة، في حين أنني أقف أمامها كالأحمق لا أكاد أبعد نظري عنها! ولوددتُ أن أقف أمامها دائماً دون أن أحول نظري عنها أبداً! فتاة عجيبة! وإني مستعد لبذل الغالي والنفيس لمعرفة ما يعتمل في قلبها ومن تحب! لكن لا، فهي ليست بحاجة لأحد، فهي تعشق نفسها. إنها تعذبني، أنا المسكين. وقد اسودّت الدنيا في عيني لشدّة ما بي من الحزن والأسى، وإني أحبها حباً كما لم يفعل قط، ولن يفعل أبداً، أي إنسان في الدنيا".

قطع سلسلة أفكاره القرع على الباب ودوّي صوت حادّ في الصقيع: افتحي!

قال الحداد: "انتظري. أنا سأفتح" وخرج إلى الممرّ وهو عازم، لشدة انزعاجه، أن يحطّم أضلاع أول شخص يقع بين يديه.

* * *

اشتدّ البرد وزادت حدّته في الجوّ لدرجة أن الشيطان راح يقفز من حافر إلى آخر وينفخ في قبضتيه ليبعث الدفء قدر الإمكان في يديه المتجمدتين. ولا غرابة، بطبيعة الحال، في أن يشعر بالبرد من اعتاد

أن يتسكّع من الصباح إلى الصباح في الجحيم حيث لا يبلغ البرد، كما هو معلوم، ما يبلغه عندنا في الشتاء، وحيث، وهو يعتمر قلنسوةً ويقف أمام الفرن كأنه كبير الطهاة حقاً، يشوي العُصاة الآثمين مغتبطاً اغتباط النساء عادةً وهنّ يقلين السجق لأجل عيد الميلاد.

الساحرة نفسها كانت تشعر بالبرد رغم أنها كانت ترتدي ملابس شتوية، لذا فقد رفعت يديها إلى أعلى ومدّت قدميها متخذةً وضعية شخص مندفعٍ على مزلاجيه، ثم انزلقت في الهواء إلى المدخنة مباشرةً دون أَن تحرّك عضلةً واحدة في جسمها، كأنها تنزلق على منحدرٍ جليديٍّ مستوٍ.

حذا الشيطان حذوها على النحو ذاته. لكن حيث أنّ هذا المخلوق أرشق حركةً من أيِّ غندورٍ نيّق يرتدي جوربين، فلا عجب أنه وقع على عنق عشيقته عند قمة المدخنة تماماً، ووجد كلاهما نفسه وسط القدور في موقدٍ واسع.

شقّت الساحرة باب المدفأة قليلاً بهدوء تنظر إن كان ابنها فاكولا قد دعا ضيوفاً أم لا، لكنها لم ترَ سوى الأكياس الملقاة وسط الكوخ، فانسلّت من المدفأة وألقت عنها معطفها الدافئ وسوّت هيئتها فعادت كما كانت، وما كان لأحد أن يعلم أنها كانت تمتطي مكنسةً منذ لحظة.

لم تكن والدة الحداد فاكولا قد تجاوزت الأربعين من العمر، ولم تكن جميلة ولا دميمة. كما وليس من السهل على المرأة أن تكون جميلة في سنٍّ كهذه. بيد أنها كانت بارعة جداً في إغواء حتى أشد القوزاق رزانةً ووقاراً (الذين ليس هناك ما يمنع أن نقول إنهم لم يكونوا يعبأون كثيراً بالجمال)، حتى إن مختار القرية والقس اوسيب

نيكيفوروفيتش (طبعاً عندما لا تكون زوجته في البيت) والقوزاقي تشوب وكذلك القوزاقي كاسيان سفيربيغوز كانوا يترددون إليها. ولا بدّ من القول إنها كانت تجيد التعامل معهم. إذ لم يكن يخطر في بال أيٍّ منهم أنّ له غريماً. وعندما يذهب فلاح، أو سيد نبيل ورع، كما يحب القوزاق أن يسمّوا أنفسهم، إلى الكنيسة يوم الأحد، وقد ارتدى عباءة لها طاقية، أو إلى الحانة إن كان الطقس سيئاً، كيف له ألاّ يمرّ على سولوخا، وألاّ يتناول الفطائر الدسمة مع القشدة، ولا يثرثر في البيت الريفي الدافئ مع ربّة البيت الثرثارة اللبقة. وكان السيد النبيل لأجل ذلك يقوم بالتفافة طويلة قبل أن يبلغ الحانة، وكان يقول إنه قد "مرّ بها في الطريق". وعندما كانت سولوخا تذهب إلى الكنيسة في العيد، وقد ارتدت مئزراً شفافاً مقلّماً وفوقه تنّورة زرقاء موشّاة بالذهب من الخلف، وتقف قرب المدخل الأيمن مباشرةً، فغالباً ما كان القس يسعل ويطرف بعينه لاشعورياً ناحيتها، وكان مختار القرية يمسّد شاربه ويمرّ بيده على شعره الأشيب رادّاً إيّاه إلى خلف أذنه، ويقول لجاره الواقف بجواره: "آخ، امرأة رائعة! يا لها من امرأة!".

كانت سولوخا تنحني للجميع، والكل كان يظن أنها تنحني له وحده دون غيره. لكن من يحب دسّ أنفه في شؤون الآخرين كان سيلحظ فوراً أنّ سولوخا كانت ودودة مع تشوب القوزاقي أكثر من الجميع. فتشوب كان أرمل، وكانت ثمانية أكداس من القمح مكدّسة دائماً أمام بيته، وكان زوجان من الثيران المخصيّة القوية تطلّ برؤوسها باستمرار من مخزن الحبوب المسوّر إلى الشارع، وكانت الثيران تخور كلّما مرّت إشبينتها البقرة أو عمّها الثور الفحل السمين. واعتاد تيسٌ ملتح أن يتسلّق إلى أعلى السطح زاجراً بصوتٍ حادّ، كأنه العمدة، الديكةَ

الرومية التي تتخطّر في الفناء، أو متراجعاً القهقرى عند رؤيته أعداءه الصبيان الذين يسخرون من لحيته. وكانت صناديق تشوب وفيرة بأقمشة الكتّان والقفاطين القصيرة والمعاطف العتيقة المزدانة بشرائط ذهبية مقصّبة، فقد كانت زوجته الراحلة تحب الغندرة والملابس الأنيقة. وكان يزرع في بستانه، إضافةً إلى الخشخاش والكرنب وعبّاد الشمس، مسكبتين من التبغ كل عام. وكانت سولوخا ترى أنْ لا ضير في أن تضمّ هذا كله إلى مزرعتها، وهي تفكّر مسبقاً في كيفية إدارته عندما تؤول إليها، وراحت تضاعف من لطفها ورعايتها تجاه تشوب العجوز. ولكي تمنع ابنها فاكولا بأي وسيلة كانت من التقرّب إلى ابنته، حتى لا يستولي على كل شيء، إذ حينها لا شك أنه لن يسمح لها بالتدخل في أي شيء، فقد لجأت إلى الوسيلة التي تلجأ إليها كل النمّامات اللواتي في الأربعين، ألا وهي أن تجعل تشوب والحداد يختصمان ويتشاجران كلّما أمكنها ذلك. ولعل هذه الحيل الخبيثة والماكرة هي التي جعلت النساء العجائز يبدأنَ بالثرثرة، خاصةً حين يفرطنَ في الشرب في جَمْعَة مسلّية، بأن سولوخا جنيّة حتماً، وأنّ الفتى كيزياكولوبنكو رأى أن لها ذيلاً في الخلف بطول المغزل تقريباً، وأنها عبرت الطريق يوم الخميس قبل الماضي في هيئة قطة سوداء، وأنّ خنزيراً ركض مرة إلى عند زوجة القسّ وأخذ يصيح كالديك، ثم وضع قبعة الأب كوندراتيف على رأسه وركض خارجاً.

وقد اتفق أنه، بينما كانت العجائز يتحدثنَ في هذا الأمر، جاء راعي بقر اسمه تيميش كوروستيافي، ولم يلبث أن أخذ يروي كيف أنه في الصيف، ليلة عيد القديس بطرس تماماً، حين توسّد كومة من القشّ واستلقى في الحظيرة لينام، رأى بأمّ عينه الجنيّة تحلب البقر،

وقد حلّت جديلتها ولا يسترها سوى قميص، فيما هو عاجز عن الحركة، فقد كان مسحوراً. وبعد أن أنهت الجنيّة حلب البقر دنت منه ودهنت شفتيه بمادة مقززة جداً لدرجة أنه ظل يبصق اليوم التالي بأسره. لكن هذا كله كان مشكوكاً فيه بطريقة ما، ذلك أنّ مساعد قاضي سوروتشينتسي فقط كان في مقدوره رؤية الجنيات. ولهذا كان وجهاء القوزاق يلوّحون بأيديهم عندما يسمعون أحاديث كهذه، وكان جوابهم المعتاد: "النساء اللعينات يكذبنَ!".

بعد أن انسلّت خارجةً من المدفأة وأصلحت هيئتها بدأت سولوخا ترتّب البيت وتضع كل شيء في مكانه مثل ربة بيت صالحة، لكنها لم تلمس الأكياس، ففاكولا هو من جلبها، فليخرجها بنفسه! وبينما كان الشيطان ينزل في المدخنة التفت بمحض الصدفة فرأى تشوب متأبطاً ذراع قريبه، وكانا قد ابتعدا كثيراً عن الدار، فطار من المدخنة في طرفة عين وقطع عليهما الطريق وراح يثير أكوام الثلج المتجمّد، فهبّت عاصفة ثلجية وابيضّ الجوّ وأخذ الثلج يدور حولهما ويوشك أن يطمس عيونهما وفميهما وآذانهما، ثم طار الشيطان إلى المدخنة ثانيةً وهو على يقين تام من أن تشوب وقريبه سيعودان أدراجهما، وسيجد تشوب الحداد في بيته ويلقّنه درساً بحيث يبقى زمناً طويلاً عاجزاً عن الإمساك بالفرشاة ورسم رسومه المضحكة المثيرة للشفقة.

الواقع أنّ تشوب شعر بالندم ما إن بدأت العاصفة وأخذت الريح تصفع وجهيهما بقوة، فشدّ قبعته ذات الأذنين على رأسه بإحكام وأخذ يكيل اللعنات لنفسه وللشيطان ولقريبه. غير أن غضبه كان مفتعلاً، فقد أسعده كثيراً هبوب العاصفة، إذ لا يزال أمامهما ثمانية أضعاف ما قطعاه ليبلغا بيت القس. وعاد الرجلان أدراجهما، وكانت الريح تلفح

نقرتيهما، لكن الرؤية عبر الثلج العاصف كانت معدومة.

وبعد أن سارا قليلاً قال تشوب:

- توقف يا قريبي! يبدو أننا لسنا في الاتجاه الصحيح، فأنا لا أرى أياً من البيوت. آخ، يا لها من عاصفة! اذهب في ذاك الاتجاه يا قريبي، لعلك تجد الطريق، وأنا سأبحث هنا. يا للشيطان الذي أغواني للخروج في عاصفة كهذه! لا تنسَ أن تصيح عندما تجد الطريق. آخ، يا لكوم الثلج الذي ألقى به الشيطان في عيني!

لكن الطريق لم تكن مرئية. القريب الذي ابتعد جانباً أخذ يسير خبط عشواء في جزمته إلى الأمام والخلف إلى أن وقع أخيراً على الحانة. وقد أفرحته هذه اللقية لدرجة أنه نفض عنه الثلج ودخل الحانة ناسياً كل ما يتعلق بقريبه الذي ظلّ في الخارج ودون أن يقلق بشأنه أيّما قلق. وفي هذه الأثناء بدا لتشوب أنه قد وجد الطريق، فتوقف وأخذ يصيح على صديقه بأعلى صوته، لكنه حين وجد أن صديقه لم يظهر قرّر أن يسير وحده، وبعد قليل رأى بيته، وكان ارتفاع الثلج قد بلغ حتى سطحه. صفق بيديه المتجمدتين وأخذ يقرع الباب ويصيح آمراً ابنته أن تفتح الباب.

صاح الحداد بصوتٍ صارم وهو يخرج:

- فيمَ مجيئك إلى هنا؟

عرف تشوب صوت الحداد، فتراجع قليلاً وقال في نفسه: "آه لا، هذا ليس بيتي، فالحداد لن يتواجد في بيتي. ولكن البيت، بعد أن عاينته جيداً، ليس بيت الحداد أيضاً. ترى بيت من هذا؟ حزرت! لم أعرفه في البداية! إنه بيت ليفجينكو الأعرج الذي تزوج بفتاة في مقتبل العمر منذ وقتٍ قريب. فبيته هو الوحيد الذي يشبه بيتي. آها، منذ البداية بدا

لي الأمر غريباً أن أبلغ بيتي بهذه السرعة. لكن ليفجينكو يجلس الآن في بيت القس، هذا أعرفه، فماذا يفعل الحداد في بيته؟... إي هيه! لقد جاء يزور الزوجة الشابة. هكذا إذاً! حسناً!... الآن فهمت كل شيء".

سأل الحداد بخشونة أكثر من ذي قبل وهو يتقدّم نحو تشوب:

– من أنت ولماذا تتسكّع على أبواب الناس؟

قال تشوب في سرّه: "كلا، لن أقول من أنا، إذ أخشى أن يضربني هذا الملعون!" ثم غيّر صوته وأجاب:

– هذا أنا أيها الإنسان الطيب! لقد جئت أسلّيكم بإنشاد الكوليادكي تحت نوافذكم لبعض الوقت.

فصاح فيه فاكولا في عصبية:

– انقلع إلى الشيطان أنت وأناشيدك! لِمَ ما زلت واقفاً هنا؟ أتسمعني؟ هيا اغرب من هنا في الحال!

كان تشوب نفسه ينوى أن يسلك هذا المسلك الفطن، لكن بدا له أمراً مزعجاً أنه مضطر إلى الإذعان لأمر الحداد، وبدا أن روحاً شريرة وسوست له وجعلته يقول عكس ما كان ينوي، فقال بذاك الصوت نفسه:

– ما لك تصرخ هكذا؟ فكل ما أريده هو أن أنشد الكوليادكي.

– آها! يبدو أنك لا تفهم بالكلام!

وفي إثر هذه الكلمات شعر تشوب بضربة مؤلمة على كتفه، فقال وهو يتراجع قليلاً:

– أرى أنك قد بدأت القتال!

فصاح الحداد مكافئاً تشوب بضربة أخرى:

– هيّا، اغرب من هنا!

فقال تشوب بصوت ينمّ عن الألم والانزعاج والوجل:

– ما لك! أرى أنكَ لا تمزح، وفوق ذلك تضرب ضرباً موجعاً!

فقال الحداد: "يلّلا، يلّلا!" وصفق الباب.

فقال تشوب وقد أصبح وحيداً في الشارع:

– انظر كيف استأسد! جرّب أن تقترب منه! انظر كم هو مغترّ بنفسه! أتحسب أنني لا أستطيع جرجرتك إلى القضاء؟ كلا يا عزيزي، فلسوف أذهب إلى المأمور مباشرةً. أنا من سيلقّنك درساً! ويستوي عندي إن كنت حداداً أو رسّاماً. غير أنّ عليّ أن أعاين ظهري وكتفَي، فإني أظنّ أنّ ثمة بقع زرق. لا شك أن ربيب الشيطان قد ضربني بشدة! يؤسفني أن الجوّ بارد ولا رغبة لي في خلع معطفي! مهلاً أيها الحداد اللعين، أسأل الله أن يدكّ الشيطان عظامك، أنت وورشة الحدادة. سأجعلك ترقص أمامي! يا للوغد اللعين! لكنه، من ناحية أخرى، ليس في بيته الآن، وأعتقد أن سولوخا تجلس بمفردها في البيت الآن. هممم... وهو ليس ببعيد من هنا، فهل أذهب إلى هناك؟ إذ في وقتٍ كهذا لن يفاجئنا أحد. وقد يكون ذاك الشيء ممكناً أيضاً... يا لَلضرب المبرّح الذي أنزله بي الحداد اللعين!

وهنا حكّ تشوب ظهره ومضى في اتجاه آخر. خفّفت المتعة التي ينتظرها عند لقائه سولوخا من ألمه بعض الشيء وأفقدته الشعور بالصقيع الذي كان يصرصر في الشوارع كلها وسط صفير العاصفة. ومن حينٍ لآخر كان يلوح على وجهه، الذي "صَوْبَنَتْ" العاصفة لحيته وشاربه بالثلج أفضل من أي حلاق يمسك بأنف ضحيته في تجبّر وغطرسة، شعورٌ خفيف بالرضا والتلذّذ. لكن لولا أن الثلج قد أغشى العيون تماماً من الأمام والخلف لكان في الإمكان رؤية تشوب

وهو يتوقف ويحكّ ظهره لوقت طويل وهو يقول: "لقد ضربني الحداد اللعين بشدة!" ثم يتابع طريقه من جديد.

* * *

بينما كان الغندور الرشيق ذو الذيل ولحية التيس يطير من المدخنة ثم إليها من جديد، إذا بالجراب المعلّق على خصره بحمّالة، الجراب الذي خبّأ فيه القمر المسروق، يعلق عَرَضاً بشيءٍ ما في المدفأة وينفتح، فانتهز القمر الفرصة وطار محلّقاً عبر مدخنة بيت سولوخا وصعد في السماء بسلاسة، فغمر الضوء كل شيء، وتلاشت العاصفة الثلجية كأنها لم تكن، وتوهّج الثلج كحقلٍ فضيٍّ واسع مرصَّع كلّه بنجوم من البللور. خفّ البرد وصار الجوّ أدفأ، وظهرت جموع الفتيانً والفتيات مع أكياسهم، وصدحت الأغاني، وقلّما وجد بيت لم يتجمهر تحت نوافذه منشدو الكوليادكي.

القمر يتلألأ بصورة رائعة! يصعب وصف مدى روعة أن يتجول المرء وسط حشود الفتيات الضاحكات والمنشدات وبين الفتيان المستعدين لشتى الأمازيح والألاعيب التي لا يمكن إلا لليلة باسمة بمرح أن توحي بها. الدفء يسري في الأوصال تحت معاطف الصوف السميكة، والخدود تزداد تورّداً ونضارةً في الصقيع، والشيطان نفسه يدفع المرء من الخلف إلى اللهو والعبث.

اقتحمت جموع الفتيات مع أكياسهنّ كوخ تشوب وأحاطت بأكسانا، وأصمّتْ صيحاتهن وضحكاتهن أذنَي الحداد، ورحنَ جميعاً يتنافسنَ في رواية شيء ما جديد للفتاة الحسناء، ثم أفرغنَ

أكياسهنّ وأخذنَ يتباهينَ بالكعك والمقانق والفطائر التي لحقن أن يجمعنَ منها الكثير لقاء إنشادهن الكوليادكي. بدت أكسانا في منتهى البهجة والفرح، وأخذت تثرثر مع هذه تارةً ومع تلك أخرى وتضحك بلا توقف. كان الحداد يرنو بضيقٍ وحسد إلى هذا المرح، وهذه المرة أخذ يلعن الكوليادكي التي كان هو نفسه مولعاً بها.

قالت الحسناء المبتهجة تخاطب إحدى الفتيات:

– إيه يا أوداركا! إنك تنتعلين حذاءً جديداً! يا لروعته! وموشّى بالذهب! لحسن حظّك، يا أوداركا، أن لديك رجل كهذا، يشتري لك كل ما ترغبين فيه. أما أنا فليس لديّ من يشتري لي حذاءً كهذا.

قاطعها الحداد قائلاً:

– لا تحزني يا أكسانَتي التي لم تقع عين على مثيلةٍ لها! سآتيك بحذاء قلّ من يرتديه من السيدات النبيلات.

فقالت أكسانا وهي ترمقه بنظرة سريعة متعجرفة:

– أنت؟ سأرى من أين ستأتيني بحذاء يمكنني أن أنتعله في قدمي. أم لعلك ستجلب لي الحذاء الذي ترتديه الإمبراطورة نفسها!

صاح حشد الفتيات وهنّ يضحكنَ:

– انظروا أي حذاءٍ تريد!

تابعت الحسناء كلامها في اعتزاز:

– أجل، ولتشهدن جميعاً على ذلك. إن أحضر لي الحداد فاكولا الحذاء الذي تلبسه الإمبراطورة فإني أتعهّد له بأن أتزوجه في التو واللحظة.

ثم خرجت الفتيات واصطحبنَ معهنّ الفتاة المتقلبة الأهواء. فخرج الحداد في إثرهن وهو يقول:

– اضحكنَ، اضحكنَ! فأنا نفسي أضحك من نفسي! إذ مهما فكرت لا أستطيع أن أعرف أين ذهب عقلي. إنها لا تحبني. لا بأس، فليكن! كأنما ليس في الدنيا سوى أكسانا. فالقرية، والحمد لله، فيها الكثير من الفتيات الجميلات غيرها. من تكون أكسانا؟ إنها لن تصبح ربة بيت صالحة أبداً، فهي لا تنفع إلاّ للتبرّج والتأنّق. لا، هذا يكفي، فقد آن أوان التوقف عن التحامق.

ولكن في اللحظة نفسها، التي قرّر فيها الحداد أن يكون حاسماً، جعلت روح شريرة صورة أكسانا الضاحكة تَمْثُل أمامه وهي تقول له ساخرةً: "أحضر لي، أيها الحداد، حذاء الإمبراطورة، ولسوف أتزوجك!" فاضطرب كل ما في داخله ولم يعد يفكّر إلاّ في أكسانا.

أخذت جموع منشدي الكوليادكي من الفتيان والفتيات تهرع من شارع إلى آخر. لكن الحداد كان يسير دون أن يشارك في ذاك المرح الذي كان يحبه أكثر من الجميع.

* * *

في هذه الأثناء كان الشيطان يتنعّم ويدلّل نفسه حقاً عند سولوخا، فقد كان يقبّل يدها بنفس الغنج الذي يقبّل به مساعد القاضي يد ابنه القس، ويضع يده على قلبه ويئنّ ويقول صراحةً إنها إن رفضت إشباع شغفه تجاهها، ولم تكافئه كما ينبغي، فإنه مستعدّ للقيام بأيّ شيء: سيلقي بنفسه في الماء ويرسل روحه إلى الجحيم مباشرةً. لم تكن سولوخا بهذه القسوة، فضلاً عن أنها والشيطان كانا على وفاق، كما هو معلوم. فقد كانت تحب أن ترى حشداً من الناس يسير خلفها، ونادراً ما

تكون من دون صحبة. بيد أنها كانت تفكّر في أن تمضي هذا المساء بمفردها، ذلك أن كل وجهاء القرية كانوا مدعوين إلى بيت القس. إلا أن الأمور جرت على نحوٍ آخر، فما إن أعلن الشيطان عن طلبه حتى تناهى إليهما صوت المختار البدين، فهرعت سولوخا تفتح الباب، في حين اندسّ الشيطان في كيسٍ ملقى على الأرض.

قال المختار، وهو ينفض عنه الثلج ويتناول قدحاً من الفودكا من يد سولوخا، أنه لم يذهب إلى بيت القس بسبب العاصفة، وأنه لما رأى كوخها مضاءً انعطف في اتجاه بيتها بنيّة تمضية الأمسية برفقتها. ولم يكد المختار ينهي كلامه حتى سُمع طرقٌ على الباب وصوت القس، فهمس المختار:

– خبّئيني في أيّ مكان، فإني لا أريد أن ألتقي القس الآن.

فكّرت سولوخا طويلاً في مكانٍ تخبئ فيه هذا الضيف الجسيم، وفي آخر الأمر اختارت أكبر كيسٍ من أكياس الفحم، فأفرغت الفحم في برميل، ودسّ المختار البدين نفسه، مع شاربه ورأسه ومعطفه، في الكيس.

دخل القس وهو يتأوّه ويفرك يديه، وقال إنّ أحداً لم يلبِّ دعوته، وإنه ممتنّ لذلك لكي "يتسلّى" عندها قليلاً، وأنه لم يخف من العاصفة، ثم دنا منها، وسعل، وضحك، ولمس بأصابعه الطويلة ذراعها العارية المكتنزة، ثم أخذ يقول بنبرةٍ لاح فيها الدهاء والتفاخر كلاهما: "ما هذا الذي لديكِ يا سولوخا الرائعة؟" وبقوله هذا، ارتدّ قليلاً إلى الخلف.

أجابت سولوخا: ماذا تعني؟ إنها يدي يا أوسيب نيكيفورفيتش!

فقال القس وهو راضٍ كل الرضا عن طريقته في استهلال الحديث:

"همم! يدك! هئ هئ هئ!" وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. ثم دنا منها ثانيةً ولمس عنقها برقّة وقال بالنبرة نفسها: "وهذا ما هو يا سولوخا الأعزّ على قلبي؟" ومرة أخرى ارتدّ عنها إلى الخلف.

أجابت سولوخا: كأنك لا ترى يا أوسيب نيكيفوروفيتش! إنه عنقي، وفي عنقي قلادة.

– همم! في عنقك قلادة! هئ هئ هئ!

ومن جديد أخذ القس يذرع الغرفة وهو يفرك يديه.

– وهذا ماذا يكون يا سولوخا التي لا مثيل لها؟...

ولا ندري ماذا أيضاً كان القس سيلمس بأصابعه الطويلة حين سمع فجأةً طرقاً على الباب وصوت القوزاقي تشوب، فصاح في فزع:

– آه، يا إلهي، شخص دخيل! ماذا الآن لو ضُبط شخص في مكانتي هنا؟... لسوف يصل الخبر إلى مسامع الأب كوندرات!...

لكن مخاوف القس كانت من نوع آخر، إذ كان أكثر ما يخشاه أن تعلم بالأمر زوجته التي، حتى من دون ذلك، ستجعل رقبته الغليظة أضيق رقبة بيديها المخيفتين. فقال وجسده كله يرتعش:

– لأجل الله يا سولوخا الفاضلة، إن طيبتك كما يقول إنجيل لوقا في الأصحاح الثالث... الثالث... إنهم يقرعون الباب، والله يقرعون الباب! اوخ، خبيئيني في أي مكان.

أفرغت سولوخا كيس فحم آخر في البرميل، واندسّ فيه القس الذي لم يكن جسيماً جداً وجلس في قعره تماماً بحيث كان في الإمكان وضع نصف كيس من الفحم فوقه.

قال تشوب وهو يدخل الكوخ: "مرحباً سولوخا! أظنك لم تكوني تتوقعين قدومي، هه؟ لم تكوني تتوقعين، أليس كذلك؟ لعلّي

أزعجتك؟" ثم أردف راسماً على وجهه تعبيراً مرحاً موحياً جعل سولوخا تعرف مسبقاً أن عقله البليد يجاهد ويستعد لإطلاق نكتة لاذعة ومبتكرة: "لعلك كنت سهرانة مع أحدهم؟ بل لعلك خبّئتِ أحدهم أيضاً، هه؟" وضحك مبتهجاً بقوة ملاحظته ومغتبطاً في داخله لكونه الوحيد الذي يحظى باهتمام سولوخا. "هيّا يا سولوخا، قدّمي لي الفودكا، إذ أحسب أن حلقي قد تجمّد من البرد اللعين... يا لليلة التي أرسلها الله قبل عيد الميلاد! أرأيتِ كيف هبّت العاصفة يا سولوخا، أرأيتِ... آخ، لقد تجمّدت يداي. لا أستطيع حتى فكّ أزرار معطفي! أوه كيف هبّت العاصفة...".

"افتحي!" دوّى صوت في الشارع رافقته دفعة على الباب.

قال تشوب متسمّراً مكانه: ثمة من يقرع الباب!

صاح الصوت أعلى من ذي قبل: افتحي!

قال تشوب وهو يلتقط قبّعته: إنه الحداد! اسمعي يا سولوخا، خبّئيني أينما شئت، فإني لا أريد لقاء أيّ شيءٍ كان أن يراني هذا المهووس اللعين، ألا فليبلوه الله، ابن الشيطان هذا، بثؤلولَين تحت عينيه كل منهما بحجم كدسٍ من الدريس!

سولوخا، التي استبدّ بها الفزع هي نفسها، أخذت تتخبّط كمن يحترق، وأشارت لتشوب أن يندسّ في الكيس الذي يقبع فيه القس ناسيةً أنه يقبع فيه. لم يجرؤ القس المسكين أن يعرب عن ألمه حتى بالسعال أو الأنين عندما جلس فوق رأسه تماماً رجلٌ ثقيلِ الوزن وحشر جزمتيه المتجمدتين في كلا جانبي صدغيه.

دخل الحداد وارتمى على الأريكة دون أن ينبس بكلمة ودون أن يخلع قبّعته. واضح أنه كان متكدّر المزاج. وبينما كانت سولوخا تغلق

الباب وراءه طرق أحدهم الباب من جديد. كان القوزاقي سفيربيغوز، وهذا كان يستحيل حشره في كيس، إذ لم يكن في الإمكان إيجاد كيس يتّسع له، فقد كان أضخم جثةً من مختار القرية وأطول قامةً من إشبين تشوب. لذا قادته سولوخا إلى حاكورة الخضار لكي تسمع منه ما يريد قوله.

أخذ الحداد يرنو ساهماً إلى أركان كوخه منصتاً من حين لآخر إلى أناشيد الكوليادكي القادمة من بعيد، واستقرت عيناه آخر الأمر على الأكياس: "لِمَ هذه الأكياس ملقاة هنا؟ إذ كان يجب نقلها من هنا منذ وقت طويل. لقد فقدت عقلي تماماً جرّاء هذا الحب الأحمق. سوف يحلّ العيد غداً وما زالت شتى النفايات في الكوخ. فلأنقلها إلى ورشة الحدادة!" وانحنى على الأكياس الضخمة، وأحكم ربطها، وهَمّ برفعها على كتفيه. لكن يظهر أن أفكاره كانت شاردة الله أعلم أين، وإلا لكان سمع همس تشوب عندما التفّ الحبل الذي ربط به الكيس حول شعره، وعندما بدأ المختار البدين يحزق بصوتٍ مسموع بما فيه الكفاية.

أخذ الحداد يقول لنفسه: "أيُعقل أنني لا أستطيع أن أُخرج أكسانا الشقية من بالي؟ لا أريد أن أفكّر فيها، لكنها لا تغادر فكري، وإني لا أفكر إلاّ فيها، كأنما نكايةً. ما الذي يجعل الأفكار تتسلل إلى رأس المرء رغماً عنه؟ تبّاً، كأنما الأكياس صارت أثقل من ذي قبل! لا شك أنّ شيئاً آخر غير الفحم قد وُضع فيها. يا لي من أحمق! فقد نسيت أن كل شيء صار أثقل من ذي قبل. فيما سبق كان في مقدوري أن أثني ربع ليرة نحاسية أو حدوة حصان بيد واحدة ثم أعيدها كما كانت، في حين أنني أعجز الآن عن رفع كيس من الفحم. قريباً سوف توقعني

الريح أرضاً"، وصمت قليلاً ثم استعاد رباطة جأشه وصاح: "كلا، وهل أنا امرأة! لن أسمح لأحد أن يسخر مني! حتى لو كانت هناك عشرة أكياس كهذه، سأرفعها" ورفع على كتفيه بفتوّة الكيسين اللذين ينوء بحملهما اثنان من الرجال الأقوياء. "وسآخذ هذا أيضاً" أردف، ورفع الكيس الصغير الذي كان يقبع في أسفله الشيطان متكوراً على نفسه. "يبدو أنني وضعت عدتي في هذا الكيس" ثم خرج من الكوخ وهو يصفر بأغنية تقول:

"أنا وزوجتي لسنا على وفاق!"

كان الغناء والضحك يتعالى أكثر فأكثر في الطرقات، وازدادت حشود الناس أكثر بفضل القادمين من القرى المجاورة. عَبَثَ الفتيان وتزعرنوا حتى الشبع. وكثيراً ما كانت تُسمع وسط "الكوليادكي" أغنية مرحة ألّفها أحد القوزاق الشباب للتو. وفجأةً أخذ واحدٌ من الحشد يُنشد "شيدروفكا"[1] وراح يزعق بأعلى صوته:

يا جواد، يا كريم!
أعطني فطيرة،
طاساً من العصيدة
أو شريحة "كَلبَصّا"[2]!

كوفئ هذا المهرّج المبدع بالضحك. وكانت مصاريع النوافذ تُفتح

١ شيدروفكا: نوع من الأناشيد ينشده الأولاد والشبان عشية عيد رأس السنة، في حين أنّ "الكوليادكي" كانت تُنشد ليلة عيد الميلاد. (محرر النص الروسي)

٢ الكَلْبَصّا: عبارة عن قضبان من "المرتديللا" أو "السَلامي"، ولم نجد مقابلاً لها في العربية. (م)

وتمتد يد عجفاء لإحدى العجائز، اللواتي لم يبقَ إلاّ هنّ والآباء الوقورون في الأكواخ، بفطيرة أو شريحة من "الكَلبَصّا". في أحد الأماكن كان الفتيان والفتيات يتزاحمون ويتنافسون في تلقّف الغنيمة بأكياسهم. كان الشبان يتزاحمون من كل حدبٍ وصوب ويحيطون بحشد الفتيات، فيعلو الصخب والصراخ، ويلقي أحدهم كتلةً من الثلج، ويختطف آخر كيساً فيه شتى الأشياء. وفي مكان آخر أمسكت الفتيات بأحد الشبان، حيث اعترضته إحداهنّ بقدمها فتعثر وهوى هو وكيسه على الأرض. بدا أن الجميع كانوا على استعداد لقضاء الليل بطوله في المرح. وكان الليل، كأنما قصداً، خافت الإضاءة بصورة رائعة، وبدا ضوء القمر أشدّ سطوعاً بفضل بريق الجليد.

توقف الحداد مع أكياسه، فقد خيّل إليه أنه سمع صوت أكسانا وضحكتها الرنانة وسط حشد الفتيات. سرت القشعريرة في أوصاله كلها، فألقى بالأكياس على الأرض بقوة جعلت القس القابع في قعر أحدها يتأوّه من الألم، والمختار يحزق بشدّة، ثم مشى متثاقلاً، وعلى كتفيه الكيس الصغير، مع حشد الفتيان الذين كانوا يسيرون في إثر حشد الفتيات الذي كان يُسمع صوت أكسانا في وسطه.

"أجل، إنها هي! تقف كملكة، وعيناها السوداوان تتألقان! ثمة شاب وسيم يحكي لها شيئاً مضحكاً فيما يبدو لأنها تضحك. لكنها تضحك دائماً". شقّ الحداد طريقه وسط حشد الفتيان لا يدري كيف، كأنما لاشعورياً، ووقف إلى جوارها.

قالت الفتاة الحسناء وهي تبتسم الابتسامة نفسها التي كادت أن تُفقد فاكولا عقله:

– آه، فاكولا، أنت هنا! مرحباً! هل جمعت الكثير لقاء

الكولياد كي؟ عجباً! ما أصغر كيسك! هل حصلت على الحذاء الذي تنتعله الإمبراطورة؟ أحضره لي، أتزوجك!

ثم جرت مع حشد الفتيات وهي تضحك.

ظلّ الحداد واقفاً مكانه كأنما سُمِّر بالأرض، ثم قال أخيراً: "كلا، لا أستطيع، لم أعد أحتمل... لكن يا إلهي، لِمَ هي بهذا الجمال الساحر؟ إن نظرتها وكلامها وكل ما فيها، آه كم يحرق قلبي ويبرّح بي... لا، لم يعد في مقدوري أن أضبط نفسي أكثر! لقد حان الوقت لوضع حدّ لهذا كله: سأهلك روحي، سأذهب لأُغرق نفسي في بركة جليدية وأغدو أثراً بعد عين!".

ثم تقدّم إلى الأمام بخطى حازمة إلى أن بلغ الحشد، ولمّا حاذى أكسانا قال بصوتٍ صارم:

- وداعاً يا أكسانا! ابحثي لنفسك عن الزوج الذي ترغبين، واستغفلي من تشائين، أما أنا فلن تقع عليّ عينك بعد الآن في الدنيا.

بدت الدهشة على الفتاة الحسناء وأرادت أن تقول شيئاً، لكن الحداد لوّح بيده ومضى راكضاً.

صاح الفتيان إذ رأوا فاكولا يجري:

- إلى أين يا فاكولا؟

أجابهم الحداد صائحاً:

- وداعاً أيها الإخوة! نلتقي في ذاك العالم بإذن الله، أما هذا العالم فلن نمرح فيه ثانيةً معاً. وداعاً، واذكروني بالخير! قولوا للأب كوندرات أن يقيم جُنّازاً على روحي الآثمة. فقد أثمت ولم أرسم الشموع لأيقونة صانع المعجزات والسيدة العذراء لانشغالي بالأمور الدنيوية. كل ما تجدونه في صندوقي أهبه للكنيسة! وداعاً!

بعد قوله هذا انطلق الحداد يركض من جديد والكيس على ظهره.

قال الفتيان:

– لقد اختبل عقله!

غمغمت عجوز كانت مارة على مقربة في وَرع:

– نفسٌ ضالّة! سأذهب لأروي كيف شنق الحداد نفسه!

* * *

بعد أن اجتاز فاكولا بضعة شوارع توقف ليستردّ أنفاسه، وقال يحدّث نفسه: "إلى أين أركض هكذا في واقع الحال؟ كأنما قد ضاع كل شيء. دعني أجرّب وسيلةً أخرى: سأذهب إلى الزابوروجي باتسوك بُوزاتي[1]. يُقال إنه يعرف كل الشياطين، وأنه يفعل ما يريد. سأذهب إليه، فأنا هالك في كل الأحوال!".

الشيطان، الذي ظلّ طول الوقت قابعاً بلا حراك، عند سماعه ذلك قفز في الكيس من الفرح، لكن الحداد، الذي ظنّ أن يده علقت بالكيس على نحوٍ ما وأنه هو من تسبّب بهذه الحركة، ضرب الكيس بقبضته ضربةً قويةً وهزّه على كتفه، وانطلق إلى باتسوك بوزاتي.

من المؤكد أن باتسوك بوزاتي هذا كان يوماً ما زابوروجياً، لكن هل طُرِد من زابوروجيا أم أنه غادرها بمحض إرادته؟ هذا ما لم يكن يعرفه أحد. وكان يقيم في ديكانكا منذ أمدٍ بعيد، منذ عشر سنوات، أو ربما خمس عشرة سنة. في البداية عاش كزابوروجي حقيقي: لم يكن

١ البطين، الكَرِش، ذو الكرش.

يقوم بأي عمل، ويقضي ثلاثة أرباع النهار في النوم، ويأكل من الطعام قدر ما تحصده ست حصّادات، ويشرب في المرة الواحدة قرابة سطل من الفودكا. وبالمناسبة، كان هناك متّسع لهذا كله، ذلك أن باتسوك، بغضّ النظر عن أنه لم يكن طويل القامة، كان عريضاً جسيماً بما فيه الكفاية. كما أن السروال الذي كان يرتديه كان فضفاضاً إلى درجة أنّ قدميه لم تكونا تُلحظان مهما كانت خطواته واسعة، ويخال المرء أنّ برميلَ نبيذٍ يمشي في الطريق. ولعل هذا هو سبب إطلاق لقب "بوزاتي" عليه. ولم تمضِ سوى بضعة أيام على تواجده في القرية حتى علم جميع من في القرية أنه حكيم وساحر، فما أن يمرض أحدهم حتى يتم استدعاء باتسوك في الحال، وكان يكفي أن يهمس ببضع كلمات حتى يزول المرض كأنما انتزعه بيده. وكان يحدث أن يختنق سيد نبيل أمضّه الجوع بحسكة سمكة، فكان باتسوك يضربه على ظهره بقبضته بمهارة فتنطلق الحسكة إلى حيث ينبغي لها، دون التسبب بأي أذى للبلعوم النبيل. لكن قلّما يراه أحد في الآونة الأخيرة في أي مكان، ولعل سبب ذلك هو الكسل، أو ربما بات يتعذّر عليه أن يحشر نفسه في الباب عاماً بعد عام، مما اضطر القرويين الذهاب إليه بأنفسهم عندما يحتاجونه.

فتح الحداد الباب في شيء من التهيّب فرأى باتسوك يجلس متربعاً على الأرض وأمامه برميل صغير عليه قصعة من لقيمات القاضي، وكانت القصعة في مستوى فمه، كأنما عن عمد، فكان ينحني برأسه على القصعة، دون أن يحرّك أياً من أصابعه، ويرشف المرق، ويلتقط من حين إلى آخر بأسنانه لقيمة من لقيمات القاضي.

قال فاكولا بينه وبين نفسه: "لا، إنّ هذا الرجل أشدّ كسلاً من

تشوب نفسه، فذاك يأكل بالملعقة على الأقل، أما هذا فلا يريد حتى أن يرفع يديه!".

لا شك أن باتسوك كان منهمكاً جداً بلقيمات القاضي، فقد بدا أنه لم يلحظ قط دخول الحداد الذي انحنى له انحناءةً كبيرة ما أن اجتاز عتبة الباب.

قال فاكولا منحنياً من جديد:

– لقد جئت ألتمس منك مكرمة يا باتسوك!

رفع باتسوك البدين رأسه ثم عاد يلتهم اللقيمات من جديد.

قال الحداد مستجمعاً شجاعته.

– يقال إنك، ولا أقصد الإساءة، فإني لا أقول ذلك بهدف الإساءة إليك، تمتّ إلى الشيطان بصلة قربى نوعاً ما.

بتلفّظه بهذه الكلمات ارتاع فاكولا معتقداً أنه أساء التعبير وأنه بالكاد خفّف من وطء كلماته القاسية، وتوقّع أن يرفع باتسوك البرميل مع القصعة ويقذف بهما في وجهه مباشرةً، فتنحّى قليلاً وغطّى وجهه بردنه حتى لا يصيبه رشاش من مرق لقيمات القاضي الساخن. لكن باتسوك اكتفى بأن رفع إليه عينيه وعاد يلتهم لقيمات القاضي من جديد، فتشجّع الحداد وقرر أن يواصل حديثه.

– لقد قصدتك يا باتسوك، أنعم الله عليك بالكثير من شتى أنواع الأطايب ومن الخبز بنفس المقدار! (كان الحداد يجيد أحياناً أن يدسّ كلمةً منمقة في كلامه، وقد تطبّع بذلك أثناء إقامته في بلطافا عندما كان يطلي سور الضابط) يبدو أنني، أنا الخاطئ، على وشك الهلاك، وليس هناك ما ينجيني في هذه الدنيا! وإني لا أجد مناصاً من طلب العون من الشيطان نفسه، وليكن ما يكون. فما قولك يا باتسوك؟

حين رأى الحداد أن باتسوك ظلّ على صمته أردف:

– ماذا عليّ أن أفعل؟

أجاب باتسوك دون أن يرفع عينيه إليه ومواصلاً تلقّف لقيمات القاضي:

– ما دمت بحاجة إلى الشيطان فاذهب إليه!

فقال الحداد منحنياً أكثر:

– هذا هو سبب قدومي إليك. فإني أحسب أن ما من أحد في الدنيا يعرف الطريق إليه سواك.

لم ينبس باتسوك بكلمة وواصل تناول اللقيمات المتبقية.

أخذ الحداد يلحّ قائلاً:

– تكرّم عليِّ أيها الإنسان الطيب ولا ترفض طلبي! أأجلب لك لحم الخنزير أم "الكَلْبَصّا"، أم دقيق الحنطة الأسمر، أم الكتان أم الدخن، أو أي شيء آخر تحتاجه... كما جرت العادة بين الناس الطيبين... لن أبخل عليك بشيء. قل لي على الأقل كيف أجد الطريق إليه؟

فقال باتسوك من دون اكتراث ودون أن يغيّر وضعيته:

– من يحمل الشيطان على كتفيه لا يحتاج الذهاب بعيداً.

حملق إليه فاكولا كأنما تفسير هذه الكلمات مكتوب على جبينه، وتساءلت ملامحه دونما كلام: "ما هذا الذي يقوله؟" وفتح فمه نصف فتحة متأهباً لابتلاع أول كلمة يتلفظ بها باتسوك، كما يبتلع لقيمة من لقيمات القاضي، لكن باتسوك أخلد إلى الصمت.

وهنا لاحظ فاكولا اختفاء لقيمات القاضي وكذلك البرميل من أمام باتسوك، وأنّ قصعتين من الخشب حلّت مكانهما على الأرض، إحداهما مملوءة بالفطائر والأخرى بالقشدة، وتوجّهت أنظاره

وأفكاره لاإرادياً إلى هذه الأطايب، وقال بينه وبين نفسه: "لنرَ كيف يتناول باتسوك الفطائر. لا شك أنه لن يعمد إلى الانحناء كي يزدرد الفطائر كما فعل مع لقيمات القاضي، فهذا غير ممكن أصلاً، لأنّ عليه أن يغمسها في القشدة أولاً".

لكن ما كاد يقول لنفسه ذلك حتى فتح باتسوك فمه، وحدّق في الفطائر، ثم فتح فمه أكثر، فقفزت إحدى الفطائر من القصعة وهوت على القشدة بقوة، ثم انقلبت على الجانب الآخر، وطارت مندفعةً إلى فمه مباشرةً. أكلها باتسوك ثم فتح فمه ثانيةً، فحذت فطيرة أخرى حذو الأولى من جديد، وكان كل ما يبذله باتسوك من جهد هو أن يمضغ ويبتلع فقط.

"يا لها من أعجوبة!" قال الحداد في سرّه فاغر الفم، وفي تلك اللحظة نفسها لاحظ أن فطيرة تندسّ في فمه هو أيضاً، وأنها لطخت شفتيه بالقشدة فعلاً. دفع الحداد الفطيرة عنه ومسح شفتيه، وراح يتفكّر في عجائب الدنيا وفي الأضاليل التي يسوق الشيطان الإنسان إليها، ملاحظاً، في هذه الأثناء، أن ما من أحد يستطيع مساعدته سوى باتسوك. "سأنحني له مرةً أخرى لعلّه يوضح أكثر... لكن تباً! فاليوم يوم صيام، فيما هو يتناول الفطائر اللذيذة! يا لي من أحمق حقاً! أقف هنا وأرتكب المعاصي! فلأولينّ الأدبار!" وهرع الحداد الورع يغادر الكوخ في الحال.

إلا أن الشيطان، القابع في الكيس والسعيد مسبقاً، ما كان ليحتمل أن يفلت هذا الصيد الثمين من يده، وما إن أفلت الحداد الكيس من يده حتى قفز منه خارجاً واعتلى عنقه.

سرت قشعريرة باردة في بدن الحداد وامتقع لونه، ولشدة فزعه

لم يدرِ ماذا يفعل، وهمّ أن يرسم إشارة الصليب... لكن الشيطان مال على أذنه اليمنى بخطمه الكلبي وقال: "هذا أنا، صديقك، وسأفعل أي شيء لأجل رفيقٍ أو صديق"، ثم صأصأ في أذنه اليسرى قائلاً: "سأعطيك من المالً قدر ما تريد" ثم مال بخطمه على أذنه اليمنى ثانيةً وهمس: "ستصبح أكسانا لنا اليوم قبل الغد".

كان الحداد واقفاً وقد استغرق في التفكير، ثم قال أخيراً:

– حسناً. لقاء ثمنٍ كهذا أنا مستعدّ أن أكونِ عبداً لك!

صفق الشيطان بيديه وراح يرقص من الفرح على عنق الحداد، ثم قال في سرّه: "ها قد وقع الحداد بين يدي! الآن سأنتقم منك يا غندور على كل رسومك وأكاذيبك التي لفّقتها في حق الشياطين. ترى ماذا سيقول رفاقي حين يعلمون أن أتقى رجل في القرية قد وقع في يدي؟" وضحك فرحاً وهو يفكّر كيف سيعيّر في الجحيم كل قبيلة أصحاب الذيول، وكم سيستبدّ الغضب بالشيطان الأعرج الذي يُعدّ الأشدّ دهاءً بين الشياطين.

زقزقَ الشيطان، دون أن ينزل عن عنق فاكولا كأنما يخشى أن يهرب:

– لكنك تعلم يا فاكولا أن الأمور لا تتم من دون عقد.

فقال الحداد:

– أنا جاهز! وسمعت أنّ العقود عندكم توقَّع بالدم، فتمهّل ريثما أخرج مسماراً من جيبي!

ومدّ يده إلى الخلف... وهوب... أمسك الشيطان من ذيله. فصاح الشيطان ضاحكاً:

– يا لك من ممازح! لكن هيّا، كفاك عبثاً!

صاح الحداد:

– صبراً يا عزيزي! وما رأيك في هذا؟

وعند قوله هذا رسم إشارة الصليب فإذا بالشيطان يصبح وديعاً كالحمل، ثم قال الحداد وهو يجذبه من ذيله إلى الأرض:

– سأريك الآن وأعلّمك كيف توقع الناس الطيبين والمسيحيين الصادقين في المعصية!

ودون أن يفلت ذيله اعتلى ظهره ورفع يده ليرسم إشارة الصليب، فتأوّه الشيطان متوسّلاً:

– الرحمة يا فاكولا! سأفعل لأجلك كل ما تريد، فقط أبقِ على حياتي، ولا ترسم عليّ علامة الصليب.

– انظروا إلى الألماني الملعون كيف تغيّرت نبرة صوته! الآن أعرف ماذا أفعل بك. هيّا احملني على ظهرك في الحال وطِر بي كالطير!

سأل الشيطان مغموم البال:

– إلى أين؟

– إلى بيتمبورغ[1]، إلى الإمبراطورة رأساً.

وكاد أن يُغشى على الحداد من الرعب، إذ شعر أنه يرتفع في الجو.

* * *

وقفت أكسانا وقتاً طويلاً وهي تفكّر في أقوال الحداد الغريبة، وحتى

١ بطرسبورغ، أو بيتربورغ كما تُلفظ بالروسية.

في داخلها شعرت أنها عاملته بقسوة. ماذا لو أنه قرر فعلاً القيام بعملٍ فظيع؟ "إنه قد يفعل أيّ شيء! قد يخطر له، لشدّة حزنه، أن يهوى فتاةً أخرى، ويدعوها، جرّاء غضبه، أجمل فتاة في القرية! لكن لا، فهو يحبني، وأنا من الحسن والجمال بحيث أنه لن يهجرني لقاء أيّ شيءٍ كان. إنه يعبث، يتظاهر وحسب، ولن تمرّ عشر دقائق حتى يعود ويرنو إليّ. إنني قاسية حقاً. يجب أن أدعه يقبّلني بحيث يشعر أنه يفعل ذلك رغماً عني، فهذا سيسعده كثيراً!" وعادت الحسناء المتقلّبة تلهو مع صديقاتها.

قالت إحداهنّ:

– مهلاً. لقد نسي الحداد كيسيه. انظرنَ كم هما كبيران! لم يكن ينشد "الكوليادكي" علي طريقتنا، ولا شك أن المقانق والأرغفة في كيسيه لا تُعدّ ولا تُحصى. رائع! سنأكل حتى التخمة طول أيام العيد.

سألت أكسانا:

– هل هذان الكيسان للحداد؟ فلنحملهما إلى بيتي في الحال ونعاين جيداً ما في داخلهما.

استحسنت الفتيات جميعاً اقتراحها وهنّ يضحكنَ، ثم صحنَ وهنّ يحاولنَ تحريك الكيسين:

– لكننا لا نستطيع رفعهما.

فقالت أكسانا:

– تمهلنَ! فلنهرع لإحضار مزالج وننقلهما عليها!

وهرعت الفتيات لإحضار مزالج.

كان الأسرى قد ضاقوا ذرعاً ببقائهم في الكيسين، بغضّ النظر عن أنّ القس كان قد ثقب ثقباً لا بأس به بإصبعه، ولو لم يكن هناك أناس

لربما كان وجد وسيلةً للخروج من الكيس، لكن التسلّل من الكيس وجعل نفسه أضحوكة... هذا ما منعه ودفعه إلى الانتظار، وهو يتأوّه بصوتٍ خافت تحت جزمة تشوب الثقيلة. وتشوب نفسه لم يكن أقل رغبةً في الحرية، لا سيما مع إحساسه بأنه يجلس على شيء غير مريح. لكن فورِ سماعه قرار ابنته هدأ باله ولم يعد يريد الخروج من الكيس وهو يفكّر في أنه يبعد عن بيته قرابة مئة خطوة على الأقل، وربما مئتين. أما إن انسلّ من الكيس فعليه أن يزرّر معطفه ويَعقد حزامه - يا له من عمل كثير! فضلاً عن أنه ترك قبّعته عند سولوخا. لذا الأفضل أن تنقله الفتيات على المزلجة. إلا أن الأمور لم تجرِ مطلقاً كما توقّع تشوب. فبينما هرعت الفتيات لجلب المزالج، خرج قريبه النحيل باناس من الحانة متوتر الأعصاب وسيّئ المزاج، فقد رفضت صاحبة الحانة أن تقدّم له الخمر بالدَّين، وأراد أن يبقى في الحانة عسى أن يأتي سيّد نبيل يخاف الله فيقدّم له كأساً، لكن السادة النبلاء جميعاً ظلوا ملازمين بيوتهم، كأنما نكايةً به، وتناولوا العشاء مع أسرهم كما يفعل المسيحيون الصالحون. وبينما راح باناس يفكّر في ما أصاب أخلاق الناس من انحلال، وفي قلب اليهودية، صاحبة الحانة، القاسي، وقع على الكيسين وتوقف مشدوهاً.

قال وهو يتلفّت حوله:

- ترى من عساه يرمي كيسين كهذين في الطريق! لا بدّ أن فيهما شيئاً من لحم الخنزير أيضاً. يبدو أن الحظ ضحك لأحدهم فجمع أطايب شتى بإنشاده "الكوليادكي"! يا لهما من كيسين ضخمين! حتى لو كانا ممتلئين بالكعك والبقسماط، فهذا أيضاً نعمة. بل حتى لو لم يكن فيهما إلا أرغفة خبز، فهذا أيضاً كثير، فاليهودية، صاحبة

الحانة، تقدّم قدحاً من الفودكا مقابل كل رغيف. يجب أن أسرع بنقلهما قبل أن يراني أحد.

ورفع الكيس الذي فيه تشوب والقس على كتفيه، لكنه شعر أنه ثقيل جداً، فقال:

– كلا، إنهما أثقل من أن أحملهما بمفردي. آه، ها هو شابوفالنكو الحائك يمرّ. مرحباً اوستاب!

توقف الحائك وقال: مرحباً.

– إلى أين؟

– ليس إلى مكان محدّد. حيثما تقودني خطاي.

– ساعدني، يا طيّب، على نقل هذين الكيسين! يبدو أنّ أحدهم كان ينشد "الكوليادكي" ثم ألقى ما جمعه في الطريق. ساعدني وسنقتسم هذا الخير مناصفةً.

– وماذا فيهما، كعك أم فطائر.

– أظن أنّ فيهما كل الأطايب.

وهنا انتزعا بعض العصي من سياج ووضعا الكيسين فوقهما وحملاهما على أكتافهما.

سأل الحائك في الطريق:

– إلى أين نمضي بهما؟ إلى الحانة؟

– وأنا أيضاً كنت أفكّر في أخذهما إلى الحانة، لكن اليهودية اللعينة لن تصدق أننا عثرنا عليهما في الطريق وستعتقد أننا سرقناهما من مكانٍ ما، فضلاً عن أنني قادم من الحانة لتوي. لنأخذهما إلى بيتي، ولن يزعجنا أحد، فزوجتي ليست في البيت.

سأل الحائك الحذر:

– أأنت متأكد من أنها ليست في البيت؟

فقال باناس:

– إنني، والحمد لله، لم أخرف بعد. الشيطان وحده يستطيع أن يأخذني إلى حيث تكون. أحسب أنها ستتسكّع مع النساء الأخريات حتى الصباح.

"من هناك؟" صاحت زوجة باناس إذ سمعت الضجة التي أحدثها رجلان يحملان كيساً في الممر، وفتحت الباب.

تسمّر باناس في مكانه. وقال الحائك مستسلماً: تباً!

كانت زوجة باناس تحفةً من التحف التي لا يندر العثور على مثيلات لها في الدنيا. فقد كانت، كزوجها، نادراً ما تكون في البيت، وتمضي يومها كله في زيارة قريباتها والنساء العجائز الميسورات، تتملقهنّ وتتناول الطعام بشهية عظيمة، وتتشاجر مع زوجها في الصباح فقط، لأنها لم تكن تراه إلاّ في هذا الوقت أحياناً. وكان عمر كوخهما يبلغ ضعف عمر سروال كاتب الناحية، وكان سقفه بلا تبن في بعض المواضع، ولم تكن تُرى من السياج إلاّ بقايا، إذ لم يكن كل من يخرج من بيته يأخذ معه عصا لإبعاد الكلاب أبداً، على أمل أن يمرّ بحاكورة باناس فينتزع عصا من سياجه. كانوا لا يشعلون الموقد ثلاثة أيام متتالية أحياناً. وكانتِ الزوجة اللطيفة تخفي كل ما تحصل عليه من الناس الطيبين بعيداً قدر الإمكان عن متناول زوجها، وغالباً ما تنتزع منه غنيمته عنوةً إن لم يكن قد لحق أن يشرب بثمنها في الحانة بعد. ولم يكن باناس، رغم ما عُرف عنه من برودة دم، يذعن لها، ولهذا كان غالباً ما يخرج من بيته وعيناه متورّمتان، في حين تنطلق زوجته العزيزة لتخبر العجائز، وهي تئنّ وتتأوّه، عن قسوة زوجها وعن

الضرب الذي تحتمله منه.

الآن يمكننا أن نتخيّل ما أصاب باناس والحائك من الذهول والارتباك جرّاء ظهور الزوجة المفاجئ هذا. فقد أسقطا الكيس من أيديهما ووقفا أمامه وحاولا أن يخفياه - بذيلي ثوبيهما، ولكن كان قد فات الأوان، فقد لمحت الزوجة الكيس رغم ما أصاب بصرها من ضعف جرّاء الكبر في السنِّ. فقالت بنبرة باشقٍ سعيد بوقوعه على فريسة:

- مرحى لكما! وجميل منكما أنكما جمعتما هذا كله بإنشاد "الكوليادكي"! وهو ما يفعله الناس الطيبون دائماً، إلا أنني أظن أنكما قد سرقتماه من مكانٍ ما. هيا أرياني الكيس في الحال! أتسمعانني، أرياني كيسكما في الحال!

فقال باناس متصنّعاً الوقار:

- الشيطان الأصلع سيُريك، وليس نحن.

وقال الحائك:

- وما شأنك أنتِ؟ نحن من حصلنا عليه بإنشاد "الكوليادكي"، لا أنتِ.

فصاحت الزوجة: "بل سترينى أيها السكّير الذي لا ينفع لشيء!" ولكمت زوجها الطويل القامة لكمةً على ذقنه وراحت تشقّ طريقها إلى الكيس.

إلاّ أن باناس والحائك دافعا عن الكيس ببسالة وأجبراها على التراجع. ولكن لم يكادا يستردّان أنفاسهما حتى كانت الزوجة تخرج راكضةً من الكوخ وفي يدها مِسْعَر النار، فضربت زوجها بالمسعر على يده ببراعة، ثم ضربت ظهر الحائك، ووقفت بجوار الكيس.

قال الحائك حين ثاب إلى رشده:

– كيف تركناها تبلغ الكيس؟

أجاب باناس في برود:

– كيف تركناها نحن! وهل حرّكتَ ساكناً؟

قال الحائك بعد برهة من الصمت وهو يحكّ ظهره:

– يبدو أن مسعرك من الحديد! لقد اشترت زوجتي مسعراً من السوق العام الماضي بـ"بيفكوب"[1]، ولا بأس به... فهو لا يؤلم...

في هذه الأثناء وضعت الزوجة المنتصرة القنديل على الأرض وحلّتْ رباط الكيس وراحت ترنو إلى ما في داخله. لكن يبدو أن عينيها الواهنتين، اللتين لمحتا الكيس، قد خدعتاها هذه المرة، فقد صاحت وهي تصفّق بيديها:

– ايه، في الكيس خنزير بأكمله!

فقال الحائك لباناس:

– خنزير! أسمعت، خنزير بأكمله! الذنب كله ذنبك!

فقال باناس وهو يضغط كتفيه على جسمه:

– وماذا يمكننا أن نفعل؟

– كيف ماذا يمكننا أن نفعل! لننتزع منها الكيس، هيا!

ثم صاح وهو يتقدّم نحوها:

– هيا اغربي من هنا! انقلعي! إنه خنزيرنا.

وقال باناس وهو يقترب:

– تراجعي، تراجعي، أيتها المرأة الشيطانة، فهذا الكيس ليس لك.

---

١ كلمة مستقاة من مصطلحات السكّيرين وتعني "قدح نبيذ" الذي كان ثمنه آنذاك خمساً وعشرين قرشاً.

حملت الزوجة المسعر ثانيةً، ولكن في هذه اللحظة خرج تشوب من الكيس ووقف في وسط الممر وهو يتمطّى كمن استيقظ للتو من نوم طويل.

صرخت الزوجة، التي ضربت يدها بالأرض، وفغر الثلاثة أفواههم لاشعورياً. وقال باناس محملقاً بعينيه:

– ما لهذه الحمقاء قالت إنه خنزير! هذا ليس خنزيراً!

فقال الحائك وهو يتراجع القهقرى من الفزع:

– يا للهول! أرأيت أي رجل ألقوا به في كيس! قل ما شئت، ولكن هذا لم يحدث من دون قوة شريرة. فهو أضخم من أن يمرّ من النافذة!

– إنه قريبي! – هتف باناس بعد أن أنعم فيه النظر.

فقال تشوب وهو يتضاحك بسخرية:

– ومن ظننت؟ ماذا؟ إنها خدعة موفقة، أليس كذلك؟ وأنتم أردتم أن تأكلوني بدلاً من الخنزير؟ مهلاً، مهلاً، سوف أُعوّضكم: إذ ثمّة شيء آخر في الكيس، إن لم يكن خنزيراً، فعلى الأرجح خنّوص أو حيوان آخر، فقد كان هناك شيء تحتي لا يتوقف عن الحركة.

انقضّ باناس والحائك على الكيس، وتشبّثت ربّة البيت بالطرف الآخر، ولكان نشب العراك من جديد لو لم يتدحرج القس خارج الكيس بعد أن أدرك أنه لم يعد في مقدوره الاختباء.

تجمّدت الزوجة مكانها وأفلتت قدم القس التي كانت قد بدأت تجرّه منها إلى خارج الكيس. وصاح الحائك في فزع:

– وهذا واحد آخر أيضاً! الشيطان يعلم ماذا دهى العالم... فتل رأسي... صاروا يضعون الناس في الأكياس بدلاً من الكعك والمقانق!

قال تشوب الأشدّ ذهولاً من الجميع:

– عجباً! إنه القس! يا لدهائك يا سولوخا! وضع الناس في أكياس... وأنا أقول لنفسي لِمَ بيتها مملوء بالأكياس!... الآن أدركت كل شيء: إنها تضع رجلين في كل كيس. وكنت أظن أنني الوحيد الذي... يا لها من امرأة!

* * *

دهشت الفتيات بعض الشيء حين لحظنَ اختفاء أحد الأكياس. غمغمت أكساناً: "لا بأس، حسبنا هذا الكيس"، وتشاركت الفتيات جميعهنّ ورفعنَ الكيس ووضعنه على المزلجة.

قرّر المختار الركون إلى الصمت مفكّراً بينه وبين نفسه أنه إذا صرخ طالباً أن يفلتنَ الكيس ويحللنَ رباطه، فإن الفتيات الغبيات سيركضنَ هاربات في كل اتجاه ظناً منهنّ أن الشيطان يقبع في الكيس، وسيُترك مُلقى به في الطريق، ربما حتى الصباح.

أما الفتيات فقد أمسكنَ بأيدي بعضهنّ بعضاً وانطلقنَ بالمزلجة التي راحت تقرقع على الجليد منطلقةً كالسهم. بعضهنّ جلسنَ فوق المزلجة يلهون، وجلست أخريات على المختار مباشرةً. وقرّر المختار أن يتحمّل كل شيء. وصلنَ أخيراً، وفتحنَ الباب الخارجي على مصراعيه، وحملنَ الكيس إلى الكوخ وهنّ يضحكنَ.

انقضّت الفتيات جميعاً على الكيس يحللنَ رباطه وهنّ يهتفنَ:

– لنرَ ما فيه!

وفي تلك اللحظة اشتدّ على المختار الحزق الذي عذّبه بشدة طوال مدة قبوعه في الكيس، إلى درجة أنه راح يحزق ويسعل بكل كيانه.

صرخت الفتيات جميعاً في فزع وهنّ يهربنَ باتجاه الباب:

– آخ، ثمّة شخص يقبع في الكيس!

فقال تشوب الذي دخل لتوّه:

– ماذا يجري! ما بالكنَ تركضنَ هكذا كالمجانين؟

قالت أكسانا:

– آه يا أبي! ثمة من يقبع في الكيس!

– في الكيس؟ من أين جئتنّ بهذا الكيس؟

قلنَ جميعاً على الفور:

– ألقى به الحداد في وسط الطريق.

"هكذا إذنَ، ألم أقل..."، قال تشوب بينه وبين نفسه.

– ما لكنّ فزعتنّ هكذا؟ لنلقِ نظرة. هيّا اخرج من الكيس يا رجل، أيّاً كنت، وأرجو ألاّ يسوءك أننا لا نخاطبك باسمك وكنيتك!

انسلّ المختار خارج الكيس، فصاحت الفتيات "آخ!"، وقال تشوب في سرّه في ذهول وهو يتفحّص المختار من رأسه حتى أخمص قدميه: "والمختار أيضاً اندسّ في كيس! يا له من أمر عجيب!... إيه!..."، ولم يستطع قول المزيد.

المختار نفسه لم يكن أقل ارتباكاً ولم يدرِ كيف يبدأ الحديث، ثم قال مخاطباً تشوب:

– لا شكّ أن الجو بارد في الفناء، أليس كذلك؟

أجاب تشوب: ثمة صقيع. لكن اسمح لي أن أسألك بمَ تدهن حذاءك: بشحم الخنزير أم بالقطران؟

لم يكن تشوب يريد قول ذلك، بل كان يريد أن يسأل: "كيف اندسست، أنت مختار القرية، في هذا الكيس؟" لكنه، هو نفسه، لم

يدرِ لِمَ قال شيئاً مغايراً تماماً.

قال المختار: "القطران أفضل!" ثم أردف: "وإذن، طابت ليلتك يا تشوب!" وشدّ قبّعته على رأسه وغادر.

قال تشوب وهو يرمق الباب الذي خرج منه المختار:

– ماذا دهاني، أنا الأحمق، حتى أسأله بمَ يدهن حذاءه! آي نعم يا سولوخا! أن تضعي شخصاً كهذا في كيس!... يا لها من شيطانة! وأنا الأحمق... لكن أين ذاك الكيس اللعين؟

قالت أكسانا:

– ألقيت به في الركن، إذ لم يعد فيه شيء.

– إنني أعرف هذه الألاعيب. ليس فيه شيء! هاتيه إلى هنا، فثمة شخص آخر يقبع فيه! انفضيه جيداً... كيف ليس فيه شيء؟... يا لها من امرأة ملعونة! وعندما تنظر إليها تحسبها قدّيسة وأنها لم تفطر في يوم صيام قط.

لكن لندع تشوب يصبّ جام غضبه كما يشاء ولنعد إلى الحداد، فإن الساعة قد جاوزت الثامنة بكثير على الأرجح.

***

بدا الأمر مخيفاً لفاكولا في البداية، عندما ارتفع عن الأرض إلى علوٍّ مرتفع بحيث بات عاجزاً عن رؤية ما في الأسفل، وراح يطير كالذبابة تحت القمرِ مباشرةً لدرجة أنه لو لم يُحنِ رأسه لعلقت قبّعته بالقمر. إلاّ أنه استعاد رباطة جأشه بعد فترة وجيزة، بل وراح يمازح الشيطان ويسخر منه. وكان يُضحكه كثيراً كيف كان الشيطان يعطس ويسعل

حين ينزع الصليب المصنوع من خشب السرو من عنقه ويدنيه إليه. وكان يتعمّد رفع يده ليحكّ رأسه، فكان الشيطان يزيد من سرعة طيرانه ظناً منه أنه يريد رسم علامة الصليب عليه. كان كل شيء مشرقاً في الأعلى، وكان الهواء الملفّع بغلالة من الضباب الفضي شفافاً. كان كل شيء مرئياً للعين، حتى إن الفتى استطاع أن يلمح مشعوذاً جالساً في قِدْر مرّ بجوارهما كالإعصار، ورأى النجوم وهي تتجمّع معاً وتلعب لعبة "الغمّيضة"، ورأى صفّاً كاملاً من الأرواح ينجدل معاً ويرتقي في السماء، ورأى أحد الشياطين يرقص في ضوء القمر، وقد خلع قبّعته حين رأى الحداد يطير خبباً معتلياً ظهر شيطان آخر، ورأى مكنسةً تطير عائدةً إلى مكانها، ومن الواضح أنّ ساحرةً قد ترجّلت عنها للتو بعد أن بلغت مقصدها... لقد صادفا في طريقهما الكثير من المخلوقات البشعة، وكانت جميعها، حين ترى الحداد، تتوقف للحظة وتحدّق فيه ثم تواصل طريقها مبتعدةً لا تلوي على شيء.
واصل الحداد الطيران إلى أن لاحت أمامه بطرسبورغ فجأةً متألقةً كلها بالأنوار. (فقد كانت المدينة مزيَّنةً بالأنوار آنذاك لأجل مناسبةٍ ما). ولمّا عبر الشيطان سور المدينة اتّخذ شكل حصان، وألفى الحدادُ نفسه ينطلق خبباً في عرض الطريق على حصانٍ أصيل.

يا للهول! طَرْق، هدير، ألق؛ وعلى جانبي الطَّريق ترتفع جدران بعلوّ أربع طبقات، وكان وقع حوافر الخيل وقرقعة العجلات يتردد صداها من كل حدبٍ وصوب، وبدت البيوت كأنما تنبت من الأرض وتعلو في كل خطوةٍ، والجسور تهتز، والعربات تنطلق كالسهم، والحوذيّة وسائقو المزالج يصرخون، والجليد يصرصر تحت آلاف الزلاجات المنطلقة في كل الاتجاهات، والمارّة يتجمّعون ويتراصّون أسفل

المنازل المزيّنة بالمصابيح فتنعكس ظلالهم الهائلة على الجدران وتبلغ الأسطح وقِمم المداخن.

أخذ الحداد ينعم النظر في الاتجاهات كلها في ذهول، وبدا له أن البيوت كلها قد سلّطت عليه أنوارها التي لا تُحصى وراحت تنظر إليه. ورأى عدداً هائلاً من السادة في معاطف من الجوخ بحيث لم يعد يدري لمن منهم يخلع قبّعته، وراح يقول في سرّه: "يا للهول! ما أكثر الأعيان هنا! وأحسب أن كل من يمرّ في الشارع مرتدياً معطفاً رئيسَ دائرةٍ حكومية يتلو واحدهما الآخر! أما الذين يركبون تلك العربات الرائعة ذات النوافذ الزجاجية، إن لم يكونوا من العمداء، فهم قوميسارية على الأرجح، أو ربما أعلى مرتبةً". لكن حبل أفكاره قطعه سؤال الشيطان:

– هل آخذك إلى الإمبراطورة مباشرة؟

قال الحداد في سرّه: "كلا، هذا مخيف! ثمة في مكانٍ ما، لا أدري أين، زابوروجيون مرّوا بديكانكا في الخريف الماضي أثناء قدومهم من المعسكر يحملون أوراقاً لمقابلة الإمبراطورة، ويُستحسن أن أستشيرهم في الأمر".

– إيه أيها الشيطان، ادخل في جيبي وخذني إلى الزابوروجيين!

وفي لحظة تقلّص الشيطان وصغر حجمه بحيث اندسّ في جيبه بكل سهولة. ولم يكد فاكولا يتلفّت حوله حتى وجد نفسه أمام بيت كبير، فارتقى الدرج ودخل، لا يدري كيف، وفتح الباب، فتراجع قليلاً إلى الخلف مبهوراً بالضوء الساطع المنبعث من غرفةٍ حسنة الترتيب، إلاّ أنه تشجّع قليلاً عندما أبصر أولئك الزابوروجيين أنفسهم الذين مرّوا بديكانكا جالسين على أرائك من الحرير، وقد دسّوا تحتهم

أحذيتهم الملمّعة بالقطران، ويدخّنون أقوى أنواع التبغ الذي يسمّيه الناس عادةً جذور التنباك.

قال الحداد متوجّهاً نحوهم ومحيياً إيّاهم بانحناءة كبيرة:

- مرحباً يا سادة! الله يعطيكم العافية! انظروا أين التقينا!

سأل الرجل الجالس أمام الحداد مباشرةً رجلاً آخر يجلس على مبعدة منه:

- من يكون هذا الرجل؟

فقال الحداد:

- ألم تعرفني؟ هذا أنا، فاكولا، الحداد! لقد استضفناكم أثناء مروركم بديكانكا الخريف الماضي ليس أقل من يومين، متّعكم الله بالصحة وأطال في أعماركم. وقد ركّبتُ آنذاك طوقاً جديداً من الحديد على العجلة الأمامية لعربتكم!

فقال ذاك الزابوروجي نفسه:

- آها! إنه ذاك الحداد نفسه، الذي يجيد الرسم. أهلاً يا بلدياتنا، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- لا لسبب. أردت مشاهدة المدينة فحسب. يُقال إن...

فقال ذاك الزابوجوري نفسه باللغة الروسية متفاخراً وراغباً في إظهار أنه يتقن الروسية أيضاً:

- حسناً يا بلدياتنا. إنها مدينة كبيرة، أليس كذلك؟

الحداد أيضاً لم يرد أن يشين نفسه ويبدو غرّاً، فضلاً عن أنه كان يجيد القراءة والكتابة كما رأينا أعلاه، فأجاب بالروسية بطلاقة:

- إنها مدينة عظيمة! وإن اللسان ليعجز عن الوصف! فالمنازل هائلة الحجم، واللوحات المعلّقة شديدة الإتقان، والكثير من البيوت

مزخرفة بإسراف بحروف منقوشة بماء الذهب. ليس ثمة ما يُقال. إنها هندسة رائعة!

حين سمع الزابورجيين كيف يعبّر الحداد بطلاقة توصّلوا إلى استنتاج مفيد جداً بالنسبة إليه.

– سنواصل الحديث معك لاحقاً يا بلدياتنا، لأننا ذاهبون الآن لمقابلة الإمبراطورة.

– الإمبراطورة؟ اشملوني بعطفكم إذن يا سادة وخذوني معكم!

فقال الزابورجي بالطريقة التي يكلّم بها رجل بالغ ابنه الذي سأله أن يُجلسه على صهوة جوادٍ حقيقيٍّ كبير:

– نأخذك معنا؟ وما عساك تفعل هناك؟ كلا، غير ممكن. إننا، يا أخي، سنتحدث إلى الإمبراطورة في شؤوننا.

ألحّ الحداد: "خذوني معكم!" ثم همس للشيطان بصوتٍ خافت وهو يضرب جيبه بقبضته: اطلب منهم!

ولم يكد يقول ذلك حتى قال زابورجي آخر:

– لنأخذه معنا حقاً يا إخوان!

فقال آخرون: أجل، لنأخذه!

– البس إذن ملابس كالتي نرتديها.

وشرع الحداد يرتدي سترةً زرقاء في عجالة، وإذا بالباب فُتح فجأةً وقال الرجل الذي دخل، وكانت ثيابه موشّاة بالقصب، إنّ وقت ذهابهم قد حان.

تملّك الذهول الحداد مرةً أخرى حين أركبوه عربةً هائلة تتأرجح على زنبركات، وعندما أخذت المباني المؤلفة من أربع طبقات تركض

مسرعةً إلى الخلف، وبدا له الرصيف الحجري نفسه يتدحرج تحت حوافر الخيل هادراً.

قال يحدّث نفسه: "يا إلهي، كم الأنوار مبهرة! عندنا حتى في وضح النهار لا يبلغ النور هذا المبلغ".

توقفت العربات أمام القصر، وترجّل الزابوروجيون ودخلوا بهواً فخماً وشرعوا يرتقون درجاً يتلألأ بالأضواء.

همس الحداد بينه وبين نفسه: "يا له من درج رائع! من المؤسف أن يطأه المرء بقدميه. ويا لها من زخارف! يقال إن الحكايات تكذب! أي كذبٍ هذا! يا إلهي، ما أروع الدرابزين! كم هي متقنة الصنع! لا شك أن الحديد وحده كلّف خمسين روبلاً!".

بعد أن صعد الزابوروجيون الدرج عبروا إحدى القاعات، وتبعهم الحداد في تهيّب محاذراً أن تزلّ قدماه على الأرضية الخشبية الصقيلة (الباركيه) في كل خطوة. اجتازوا ثلاث قاعات، والحداد لا يزال يتملّكه الذهول، وما إن دخلوا القاعة الرابعة حتى توجّه الحداد لاشعورياً إلى اللوحة المعلقة على الجدار. كانت صورة العذراء البتول تحمل ابنها الرضيع على ذراعيها. أخذ الحداد يقول بينه وبين نفسه: "يا لها من لوحة! ويا له من رسم بديع! إنها تكاد تنطق! أما الابن المقدّس! إنه يضغط يديه، ويبتسمُ، المسكين! والألوان! يا إلهي، ما أروعها! أظن أنه لم يوضع هنا صباغ أصفر ولو بقيمة كوبيك واحد، كله أخضر وسماوي وأحمر، أما اللون الأزرق فيتلألأ متألقاً! عمل رائع! لا شك أن اللوحة تمّ تأسيسها بالجير الأبيض النقي"، ثم أردف مقترباً من الباب ومتحسّساً القفل: "لكن بقدر ما تثير روعة اللوحة الدهشة، فإن هذا المقبض النحاسي أجدر بالدهشة. يا للإتقان! أعتقد

أنّ هذا كله من صنع الحدادين الألمان لقاء أموالٍ طائلة...“

لعلّ الحداد كان استرسل أكثر في تأملاته لو لم يلكزه في ذراعه خادم بشرائط من القصب مذكّراً إيّاه بألاّ يتأخر عن رفاقه. اجتاز الزابورجيون قاعتين أخريين ثم توقفوا، فقد أُمروا أن ينتظروا هنا. احتشد في القاعة عدد من الجنرالات في أزيائهم الرسمية الموشّاة بالذهب. أخذ الزابوروجيون ينحنون في كل الاتجاهات ثم تكوّموا متراصّين.

بعد لحظة دخل القاعة رجل فارع الطول، بدين بما فيه الكفاية، يرتدي زيّ ضابط من القوزاق وينتعل جزمةً صفراء اللون، تواكبه حاشية كاملة، وكان أشعث الشعر، إحدى عينيه حولاء بعض الشيء، تعلو وجهه أمارات فخامةٍ متغطرسة، وكانت عادة إصدار الأوامر تُلحظ في كل حركة منٍ حركاته. كل الجنرالات، الذين كانوا يذرعون القاعة مزهوّين بحللهم الرسمية الموشاة بالذهب، دبّ فيهم الاضطراب وراحوا ينحنون راكعين كأنما يلتقطون كل كلمة يقولها وأدنى حركة من حركاته لكي يهرعوا لتنفيذ أوامره في الحال. لكن قائد القوزاق لم يعرهم أدنى اهتمام، وبالكاد يومئ برأسه، ثم توجّه نحو الزابوروجيين.

انحنى الزابوروجيون جميعاً إلى مستوى قدميه.

سأل في تمهّل، لافظاً الكلمات من أنفه بعض الشيء:

– أجميعكم هنا؟

أجاب الزابوروجيون وهم ينحنون مجدداً:

– جميعنا باتكو[1]!

---

١ باتكو (بلهجة الفلاحين)، وتعني "أيها الأب"، "يا أبانا". وسنرى بعد قليل أن الزابوروجيين يدعون الإمبراطورة "مامو" أي "أيتها الأم"، "يا أمنا". (م)

– لا تنسوا أن تتكلموا كما علّمتكم!

– كلا باتكو، لن ننسى.

سأل الحداد أحد الزابوروجيين:

– أهذا هو القيصر؟

أجاب ذاك:

– أنّى لك والقيصر! إنه بوتيومكين[1] بشخصه.

كانت تُسمع أصوات من غرفةٍ أخرى، ولم يعد الحداد يدري في أي اتجاه يدير بصره جرّاء حشد النساء الداخلات القاعة وهنّ في أثواب من الأطلس لها ذيول طويلة والنبلاء من رجال البلاط في سترات موشاة بالذهب بضفائر من الخلف. لم يكن يرى سوى هالةٍ من نور ولا شيء آخر.

فجأةً خرّ الزابوروجيون جميعاً على الأرض وهتفوا في صوتٍ واحد:

– الرحمة يا مامو، الرحمة!

الحداد، الذي لم يكن يرى شيئاً، كذلك خرّ على الأرض بكل غيرة وحماسة.

دوّى فوق رؤوسهم صوت آمر وودود في الوقت نفسه: "انهضوا"، وهرع بعض رجال البلاط وراحوا يلكزون الزابوروجيين. فصاح الزابوروجيون:

– لن ننهض يا مامو، لن ننهض! نموت ولا ننهض!

---

١ غريغوري ألكسندروفيتش بوتيومكين: قائد عسكري روسي ومن أشهر قائدة القوزاق، وكان رجلاً من رجالات الدولة في عهد الإمبراطورة يكاترينا الثانية. ضمّ شبه جزيرة القرم إلى روسيا سلمياً، واشتهر في حروبه ضد الأتراك العثمانيين. (م)

أخذ بوتيومكين يعضّ على شفتيه، وفي آخر الأمر توجّه نحوهم بنفسه وهمس بنبرةٍ آمرة في أذن أحد الزابوروجيين، فهبّوا واقفين.

وهنا تجرّأ الحدّاد أيضاً ورفع رأسه فرأى امرأةً قصيرة القامة تقف أمامه، بل وبدينة بعض الشيء، تغطّي وجهها المساحيق، زرقاء العينين، وبهيئةٍ باسمة بعظمة لا تتمتع بها إلا ملكة تجيد إخضاع الآخرين لشخصها.

قالت السيدة ذات العينين الزرقاوين وهي ترنو إلى الزابوروجيين بفضول:

– لقد وعدني سمو الأمير أن يعرّفني اليوم إلى من لم ألتقِهم بعد من أبناء شعبي.

ثم أردفت وهي تدنو منهم:

– أيعتنون بكم جيداً هنا؟

– شكراً لكِ مامو! إنهم يطعموننا جيداً، رغم أنّ لحم الضأن هنا لا يشبه في شيء ما لدينا في زابوروجي، ولا ندري لِمَ لا يعيش المرء كما ينبغي؟...

قطّب بوتيومكين حاجبيه إذ رأى أن الزابوروجيين يقولون كلاماً مغايراً تماماً لما لقّنهم إيّاه...

واتّخذ أحد الزابوروجيين هيئة الوقار، وهو يتقدّم إلى الأمام، وقال:

– أرجو عفوكِ مامو! لِمَ تُهلكين شعبك المخلص؟ بمَ أخطأنا؟ ترى هل وضعنا أيدينا في أيدي التتر الأنجاس، أو عقدنا أي اتفاق مع الترك، ترى هل خنّاك بالقول أو الفعل؟ لِمَ إذن فقدنا الحظوة لديك؟ سمعنا في البداية أنك أمرتِ ببناء الحصون في كل مكان لمقاومتنا،

ثم تناهى إلينا أنك تريدين حلّ كتائب القوزاق غير النظامية وإدراجنا في القوات النظامية، وها نحن اليوم نسمع بمصائب جديدة. أي ذنب اقترفته القوات الزابوروجية؟ ألأنها عبرت بجيشك بيريكوب وساعدت جنرالاتك على سحق أهل القرم؟...

ظلّ بوتيومكين صامتاً وكان ينظف بغير اكتراث أحجار الماس التي تزيّن يديه بفرشاة صغيرة.

سألت الإمبراطورة كاترينا باهتمام: فماذا تريدون؟

أخذ الزابوروجيون ينظرون إلى بعضهم بعضاً نظرات ذات دلالة.

"الآن هو الوقت المناسب! الإمبراطورة تسأل: ماذا تريدون!" قال الحداد في نفسه وخرّ ساجداً على الأرض فجأةً.

– لا تأمري بإعدامي يا صاحبة الجلالة، بل اشمليني برحمتكِ. وإني لا أقصد الإساءة يا صاحبة الجلالة، ولكن مِمَّ صُنع الحذاء الذي تنتعلينه في قدميك؟ فأنا أظنّ أنْ ما من صانع أحذية في كل ممالك العالم يستطيع أن يصنع حذاءً مثله. يا إلهي، ماذا لو انتعلت امرأتي واحداً مثله!

ضحكت الإمبراطورة، وضحك رجال البلاط أيضاً. تجهّم بوتيومكين وابتسم في الوقت نفسه. بدأ الزابورجيون يلكزون الحداد في مرفقه وهم يفكرون أنه ربما قد فقد عقله.

قالت الإمبراطورة بلطف:

– انهض! إن كنت ترغب في خفين كهذين إلى هذه الدرجة، فليس من العسير صنع مثلهما. اجلبوا له فوراً أغلى حذاء! موشّى بالذهب! الحق أنّ هذه السذاجة وسلامة الطويّة تعجبني جداً!

ثم أردفت الإمبراطورة محدقةً في رجلٍ متوسط العمر مكتنز الوجه

لكن شاحب قليلاً، كان يقف في منأى عن الآخرين ويرتدي سترة متواضعة ذات أزرار كبيرة من الصدف تشير إلى أنه ليس من رجال البلاط[1]:

– هاك مادة جديرة بقلمك اللاذع!

أجاب الرجل ذو الأزرار الصدفية وهو ينحني:

– إنكِ كريمة جداً يا صاحبة الجلالة، فهنا يلزم لافونتين على الأقل!

– أقول لك بصدق إنني ما زلت مذهولةً حتى من مسرحيتك الكوميدية "الآمر". إن كتاباتك مدهشة!

ثم التفتت إلى الزابوروجيين وقالت:

– لكني سمعت أنّ الرجال عندكم في سوتشي[2] لا يتزوجون مطلقاً.

أجاب ذاك الزابوروجي نفسه الذي تحدّث إلى الحدّاد:

– كيف ذلك مامو! فأنتِ نفسك تعلمين أنه يستحيل العيش من دون زوجة.

دُهش الحداد لكون هذا الزابوروجي، الذي يتقن الفصحى جيداً، يكلّم الإمبراطورة على هذا النحو، كأنما تعمّد التحدّث بلهجة الفلاحين الأشدّ فظاظةً، كما تسمّى عادةً[3]. وقال في سرّه: "شعب

---

١ هو الكاتب الروسي البارز د. إي. فونفيزين (١٧٤٥–١٧٩٢) مؤلّف "الآمر" (أي: قائد لواء، قائد فرقة) و"الفتى الجاهل" وغيرهما من المسرحيات الكوميدية. (محرر النص الروسي)

٢ يبدو أن مدينة سوتشي الحالية كانت معسكراً أو مخيّماً للقوزاق آنذاك. (م)

٣ ذلك أن نصف كلامه بالأوكرانية العامية والنصف الثاني خاطب فيه الإمبراطورة =

ماكر! لا شك أنه يتقصّد ذلك".

وتابع الزابوروجي يقول:

– إننا لسنا نسّاكاً، بل نحن بشرٌ آثمون، شهوانيون، مثلنا مثل كل المسيحيين المخلصين، بما في ذلك الوقور فينا. لدينا الكثير من المتزوجين، إلا أنّ الزوجات لا يعشنَ معهم في سوتشي. وهناك من لهم زوجات في بولندة، وبعضهم زوجاتهم في أوكرانيا، بل إن بعضنا لهم زوجات في بلاد الأتراك.

في هذه الأثناء جلبوا الحذاء للحداد، فاختطفه وصاح فرحاً:

– يا إلهي، ما أبدع زخرفته! يا صاحبة الجلالة! إن كان الحذاء الذي تنتعلينه بهذا الجمال، وأظن أن جلالتك تتزلجين به على الجليد، فكم يبلغ جمال قدميكِ والحال هذه؟ أعتقد أنهما، في أقل تقدير، من السكر الخالص.

الإمبراطورة، التي كانت تتمتع حقاً بقدمين في غاية التناسق والروعة، لم تستطع إلا أن تبتسم حين سمعت إطراءً كهذا من فم الحداد البسيط الذي يمكن عدّه وسيماً في ثوبه الزابوروجي، بغضّ النظر عن وجهه الأسمر.

سُرّ الحداد بهذا الاهتمام العطوف فأراد أن يستفسر من الإمبراطورة جيداً عن كل شيء: أصحيح أن القياصرة لا يأكلون إلاّ العسل وشحم الخنزير وما شابه ذلك؟ لكنه شعر أنّ الزابورجيين يلكزونه في مرفقه فقرر أن يلزم الصمت. وعندها توجّهت الإمبراطورة إلى الشيوخ وراحت تسألهم عن نمط عيشهم في سوتشي وعاداتهم، فتراجع

= بصيغة المفرد "أنتِ". (م)

الحداد إلى الوراء وانحنى على جيبه وقال بصوتٍ خافت: "انطلق بي من هنا بسرعة!" فإذا به خارج أسوار المدينة.

* * *

صاحت زوجة الحائك لاثغةً وهي تقف وسط جماعة من النساء الديكانكيات في الشارع:

– لقد غرق، والله غرق! وليمتني الله في مكاني هذا إن لم يكن قد غرق.

فقالت امرأة بنفسجية الأنف[1]، ترتدي سترة قوزاقية، وهي تلوّح بيديها:

– وي، وهل أنا كذّابة لعينة؟ ترى هل سرقتُ بقرة أحد؟ أم أنني أصبت أحداً بالعين حتى لا تصدّقنني؟ ألا فلتعف نفسي شرب الماء إن لم تكن بيربيرتشيخا العجوز قد رأت بأمّ عينها الحداد وهو يشنق نفسه!

قال المختار القادم من بيت تشوب: "شنق الحداد نفسه؟ يا لها من قصة!" ثم توقف واقترب أكثر من المتكلمين.

أجابت زوجة الحائك: "الأفضل أن تقولي: 'ألا فلتعف نفسي شرب الفودكا' أيتها السكّيرة العجوز! يجب أن يكون المرء في مثل جنونك حتى يشنق نفسه! لقد أغرق نفسه! أغرق نفسه في بركة في الجليد! وإنني أعلم ذلك كما أعلم أنك كنتِ في الحانة للتو.

١ أي إنها سكّيرة مدمنة. (م)

اعترضت المرأة ذات الأنف البنفسجي في حنق:

- أيتها الفاجرة! أترون علامَ تلومني! الأحرى بكِ أن تخرسي أيتها التافهة! أتظنينني لا أعلم أن القس يتردّد عليكِ كل ليلة؟

انفجرت زوجة الحائك.

- أيّ قس؟ على من يتردّد؟ ما هذه الكذبة؟

شقّت زوجة القس، التي كانت ترتدي معطفاً من القطن الأزرق مبطناً بفراء الأرانب، طريقها وسط الحشد نحو المرأتين المتشاجرتين، وزقزقت:

- القس! سأريكما كيف تحترمان القس! من قالت ذلك؟ القس؟

فقالت المرأة ذات الأنف البنفسجي مشيرةً إلى زوجة الحائك:

- هاكِ على من يتردّد القسّ!

فقالت زوجة القسّ وهي تخطو نحو زوجة النسّاج:

- إنها أنت إذن يا قحبة! أنتِ إذن، أيتها الساحرة، من يبلبل عقله ويسقيه عقاراً شيطانياً كي يذهبَ إليكِ؟

فقالت زوجة الحائك وهي تتراجع القهقرى:

- اغرب عنّي يا شيطان!

- آه منكِ أيتها الساحرة الملعونة! قصف الله عمركِ وجعلكِ لا ترين أولادكِ يا تافهة! تفو!... وبصقت زوجة القسّ في عيني زوجة الحائك مباشرةً.

أرادت زوجة النسّاج أيضاً أن تفعل مثلها وتبصق عليها، لكنها بدلاً من ذلك بصقت على ذقن المختار غير الحليقة، وكان يقف لصق النسوة المتشاجرات حتى يسمع بشكل أفضل.

صاح المختار وهو يمسح وجهه بطرف سترته ويرفع سوطه: "إيه

أيتها الفاجرة!". هذه الحركة جعلتهنّ يتفرّقن ويهرولنَ في مختلف الاتجاهات وهنّ يشتمنَ. وكرّر المختار مواصلاً مسح وجهه: "يا للدناءة! إذن فقد غرق الحداد! يا إلهي، كم كان رسّاماً بارعاً! وكم كانت السكاكين والمناجل والمحاريث التي كان يصنعها متينة! كم كان قوياً!"، ثم استغرق في التفكير وقال: "نعم، أمثاله قلّة في قريتنا. حتى وأنا قابع في الكيس الملعون لاحظت أن المسكين لم يكن على ما يرام مطلقاً. الحداد المسكين! كان حيّاً، وها قد فارق الحياة! وأنا كنت أنوي الذهاب إليه ليُنعِّل فرسي البلقاء!..." وتوجّه المختار إلى بيته وهو ممتلئ بهذه الأفكار المسيحية.

اضطربت أكسانا حين بلغتها هذه الأنباء، وكانت لا تثق كثيراً بعيني بيريبيرشيخا ولا بثرثرات النساء، فقد كانت تعلم أنّ الحداد أتقى من أن يُهلك روحه. ولكن ماذا إن كان بالفعل قد غادر بنيّة عدم العودة أبداً إلى القرية؟ إذ هيهات أن يوجد في أي مكان آخر فتى "جدع" كالحداد! فكم أحبّها! لقد احتمل نزواتها أكثر من أي شاب آخر. وأخذت الحسناء تتقلّب في فراشها تحت اللحاف طول الليل، من الجنب الأيمن إلى الأيسر، ومن الأيسر إلى الأيمن، وجافاها النوم. وكانت تارةً تلوم نفسها تقريباً، وهي مستلقية في الفراش بعريها الفاتن الذي كان ظلام الليل يحجبه حتى عنها هي نفسها، وتارةً تهدأ وتقرّر عدم التفكير في أيّ شيء، لكنها مع ذلك ظلّت تفكّر. كانت مضطرمة كلها، وفي الصباح كانت غارقة حتى أذنيها في حبّ الحداد.

لم يُبدِ تشوب لا الفرح ولا الحزن على مصير الحداد، وكانت أفكاره مشغولةً بأمرٍ واحد، فهو لم يستطع بأي شكل نسيان خيانة سولوخا، ولم يكفّ عن لومها حتى وهو غافٍ.

حلّ الصبح، وكانت الكنيسة قد امتلأت إلى آخرها بالناس حتى قبل انبلاج الفجر، وكانت النساء الطاعنات في السنّ، بمناديل بيض على رؤوسهن وسترات بيض من الكتّان، يرسمنَ علامة الصليب في ورع عند مدخل الكنيسة، وكانت تقف في مقدمتهنّ السيدات النبيلات في قفاطين خضر وصفر، وبعضهنّ في معاطف زرق موشّاة من الخلف بذيول ذهبية. أما الفتيات، اللواتي كانت على رؤوسهن ملء دكّان من الشرائط، وفي أعناقهن قلائد وصلبان وليرات ذهبية، فكنّ يحاولنَ الاقتراب أكثر من حائط الأيقونات. لكن في مقدمة الجميع كان يقف النبلاء والفلاحون البسطاء بشواربهم وسوالفهم ورقابهم الغليظة وذقونهم المحلوقة للتو، وقد ارتدى معظمهم عباءات ذات قلانس تظهر من تحتها ستراتهم البيض، وعند آخرين الزرق. وفي كل الوجوه، أينما نظرت، كان يُرى الفرح والابتهاج. كان المختار يتلمّظ بشفتيه متخيّلاً كيف سيفطر على "الكَلْبَصّا"، أما الفتيات فكنّ يفكّرن كيف "سيتزحلقنَ على الجليد" مع الفتيان، في حين كانت العجائز يتمتمنَ بالصلوات في اجتهاد أكثر من أي وقت آخر، وعبر الكنيسة برمتها كان يُسمَع صوت ركوع سفيربيغوز القوزاقي. كانت أكسانا وحدها تقف شاردةً، تصلّي ولا تصلّي. فقد تزاحمت في قلبها مشاعر شتى، كل منها أشدّ أسىً من الأخرى وأشد كآبةً، بحيث أنّ وجهها لم يكن يعكس إلاّ همّاً ثقيلاً، وكانت الدموع تترقرق في عينيها. لم تستطع الفتيات معرفة سبب حزنها، ولم يراودهنّ أي شك في أن يكون الذنب ذنب الحداد. بيد أنّ أكسانا لم تكن الوحيدة المشغولة بالحداد، فقد لاحظ القرويون جميعاً أنّ العيد خالٍ من بهجة العيد، وكأنما ثمة ما ينقصه. ومما زاد الطين بلّةً أنّ صوت القسّ، بعد رحلته في الكيس، كان مبحوحاً وراعشاً

ويُسمَع بالكاد. صحيح أنّ المرتّل الزائر كان يرتّل القرار بصورة رائعة، لكن الترتيل كان ليكون أجمل بكثير بوجود الحداد الذي كان عادةً، ما إن يبدأ إنشاد "أبانا" أو "تسابيح الكاروبيم"، يعتلي منصة المرنّمين ومن فوقها كان ينشد الأنشودة كما تُنشد في بلطافا. فضلاً عن أنه كان الوحيد الذي يصلح لمنصب سادن الكنيسة. انتهت صلاة الفجر، ثم انتهت صلاة الظهر أيضاً... لكن أين اختفى الحداد حقاً؟

* * *

عاد الشيطان بالحداد، في ما تبقى من الوقت في الليل، بسرعة فاقت سرعة ذهابهما، ووجد فاكولا نفسه أمام كوخه في لمح البصر. وفي تلك اللحظة صاح الديك.

صاح فاكولا ممسكاً الشيطان الذي أراد أن يهرب من ذيله:

– إلى أين؟ انتظر يا صاح، فالأمر لم ينتهِ بعد، فأنا لم أشكرك، وتناول عوداً يابساً وانهال عليه بثلاث ضربات، فانطلق الشيطان المسكين يعدو كفلاح جلده معاون القاضي للتو. وهكذا عدوّ الجنس البشري نفسه تعرّض للخداع، بدلاً من أن يخدع ويضلّ ويغوي الناس. بعد ذلك ولج فاكولا الكوخ واستلقى على القش في المدخل ونام حتى وقت الغداء. ولمّا استيقظ فزع حين رأى الشمس في كبد السماء، وقال لنفسه: "لقد فاتتني صلاة الصبح وقدّاس الظهيرة!" وأغرق الحداد الورع في الحزن لاعتقاده أنّ الله، على الأرجح، قد ألقى عليه غلالة النوم قصداً ومنعه حتى من التواجد في الكنيسة في هذا العيد المبارك عقاباً له على نيّته الآثمة في إهلاك

نفسه. إلاّ أنه أخذ يهدّئ من روعه بأنه سيعترف للقسّ بهذا كله في الأسبوع القادم، وأنه سيركع خمسين ركعة في اليوم عاماً كاملاً. ثم ألقى نظرة إلى داخل الكوخ فألفاه خالياً، يبدو أن سولوخا لم تعد من الكنيسة بعد. أخرج الحذاء من عبّه بعناية، وتعجّب مرة أخرى من إتقان صناعته ومن أحداث الليلة الماضية العجيبة، ثم اغتسل وارتدى أفضل ما لديه من ثياب، فقد ارتدى الثوب نفسه الذي حصل عليه من الزاباروجيين، وأخرج من الصندوق قبعةً جديدة من فراء أستراخان ذات قمة زرقاء، ولم يكن اعتمرها قط منذ أن اشتراها أثناء إقامته في بلطافا، وأخرج أيضاً حزاماً جديداً ملوّناً بكل الألوان، ووضع هذا كله مع سوط في منديل ومضى إلى تشوب مباشرةً.

جحظت عينا تشوب حين دخل عليه الحداد ولم يدرِ ممَّ يتعجّب أكثر: ألقيام الحداد من بين الأموات، أم لجرأته في القدوم إليه، أم لتأنّقه على هذا النحو البهيّ كزابوروجي حقيقي؟ لكنه تعجّب أكثر عندما حلّ فاكولا المنديل ووضع أمامه قبّعةً جديدة وحزاماً لم يُرَ له مثيل في القرية من قبل قط، في حين أن الحداد نفسه خرّ على قدميه وقال بصوتٍ ضارعٍ متوسّل:

– اغفر لي يا أبتِ! لا تحنق عليّ! هاك السوط، اضربني قدر ما تشاء نفسك، فإني مسلّم أمري لك وأُقرّ بكلّ شيء. اضربني، لكن فقط لا تحنق عليّ! فقد تآخيتَ والمرحوم أبي ذات يوم وأكلتما الخبز والملح معاً وتبادلتما كؤوس الشراب.

سرّ تشوب في قرارة نفسه إذ رأى الحداد، الذي لم يكن يحني هامته لأحد في القرية ويلوي بيديه قطع النقود وحدوات الخيل، جاثماً عند قدميه. ولكي لا يحطّ من قدر نفسه أكثر تناول تشوب السوط

وجلده به ثلاث جلدات على ظهره.

– هيا، يكفيك هذا، انهض! أطع كبار السنّ دائماً! فلننسَ كل ما جرى بيننا، والآن قل لي ماذا تريد؟

– زوّجني أكسانا يا أبتِ!

فكّر تشوب قليلاً، ورنَا إلى القبعة والحزام: كانت القبعة بالغة الروعة، ولم يكن الحزام أقل منها روعةً، وتذكّر سولوخا الخائنة، فقال جازماً:

– فليكن! أرسل الخُطّاب!

"آي!" صاحت أكسانا عندما اجتازت عتبة الباب ورأت الحداد، وراحت تحدّق في عينيه في دهشة وسرور.

قال فاكولا:

– انظري إلى الحذاء الذي جلبته لكِ! إنه نفس الحذاء الذي تنتعله الإمبراطورة.

قالت أكسانا وهي تلوّح بيديها ولا تحوّل ناظريها عنه:

– كلا، كلا، لا حاجة بي إلى حذاء، فأنا حتى بدون الحذاء... وتورّدت خجلاً ولم تزد.

دنا منها الحداد وأمسك بيديها، فأرخت الفتاة الحسناء بصرها. لم تكن يوماً بهذا الحسن والجمال. قبّلها الحداد المفتون قبلةً رقيقة، وازداد وجهها توهجاً، وازدادت فتنةً على فتنة.

* * *

مرّ الأسقف الطيب الذكر بديكانكا، فأثنى على موقع القرية، وأثناء

مروره بعربته في الشارع توقف أمام كوخ جديد.

سأل غبطته المرأة الجميلة التي تقفُ عند الباب وتحمل على ذراعيها طفلاً رضيعاً:

– لمن هذا الكوخ المطلي بهذه الصورة الرائعة؟

– إنه كوخ الحداد فاكولا! أجابت أكسانا منحنيةً له، لأن تلك المرأة لم تكن أحداً آخر سواها.

"بديع! عمل بديع!" قال غبطته وهو يعاين الأبواب والنوافذ. وكانت النوافذ كلها مؤطرة بطلاء أحمر اللون، وفي كل مكان على الأبواب كان ثمة قوزاق على صهوات جيادهم وغلايينهم بين أسنانهم.

لكن غبطته أثنى أكثر على فاكولا عندما علم أنه التزم بتوبته الكنسية وطلى مجاناً منصة المرتلين اليسرى كلها بطلاء أصفر وأزهار حمر. لكن هذا ليس كل شيء، فعلى الجدار من الجانب، بعد مدخل الكنيسة مباشرةً، رسم فاكولا الشيطان في الجحيم بمنتهى البشاعة بحيث أن كل روّاد الكنيسة كانوا يبصقون عليه عند المرور به، وكانت النساء ما إن يبكي أطفالهنّ بين أذرعهن حتى كنّ يجلبنهم ويرفعنهم إلى حيث اللوحة ويقلنَ: "تفرّج، شوف كيف الشيطان مرسوم!"[1] فكان الطفل ينظر مواربةً إلى الصورة، حابساً دموعه، ثم يندسّ في صدر أمه ملتصقاً بها.

[1] بالعامية الأوكرانية في الأصل. (م)

الانتقام الرهيب

– ١ –

كان ثمة صخب وهدير وهرج ومرج في طرف كييف، فالنقيب[1] غوروبِتس يحتفل بزفاف ابنه، وحلّ عدد كبير من الناس ضيوفاً على النقيب. وكان الناس في الأزمنة القديمة يحبون الأكل كثيراً، ويحبون الشراب أكثر، وأكثر من هذا وذاك كانوا يحبون المرح. وقد وصل ميتكا الزابوروجي على حصانه الكميت مباشرةً من حفلة شرب أقيمت في سهل برشلايا، حيث ظلّ يشرب النبيذ الأحمر الملكي البولندي سبعة أيام بلياليها. وحضر أيضاً دانيلو بورولباش، المدعو أخا النقيب، قادماً من الضفة الأخرى لنهر دنيبر، حيث تقع عزبته في وادٍ بين جبلين، برفقة زوجته الشابة كاترينا وابنهما البالغ عاماً واحداً من العمر. وقد أُعجب الضيوف بوجه السيدة النبيلة كاترينا الأبيض،

١ في الأصل "إساول" (ولعل من هنا جاءت رتبة "الصول" عند إخواننا المصريين)، وهي رتبة عسكرية قوزاقية تعني "قائد مئة"، تقابلها في الجيوش الحديثة رتبة النقيب. (م)

وبحاجبيها الأسودين كالمخمل الألماني، ومعطفها الأنيق المصنوع من الجوخ وثوبها الحريري الأزرق، وحذائها ذي الكعب الفضي. لكن دهشتهم كانت أكبر لعدم مجيء والدها الشيخ معها، فقد عاش عاماً واحداً فقط في إقليم "ما وراء الدنيبر"، ثم اختفى دون أن يترك أثراً ولم يُسمَع عنه أي خبر طوال واحدٍ وعشرين عاماً، وفقط بعد أن تزوجت ابنته وأنجبت ابناً عاد ليقيم عندها، ولا شك أن في جعبته الكثير من القصص العجيبة يرويها. كيف لا وقد عاش كل هذه المدة الطويلة في بلادٍ غريبة! فهناك كل شيء مختلف: الناس غير الناس، وليس ثمة كنائس مسيحية هناك... لكنه لم يأتِ.

قُدِّمت للضيوف فودكا مطيّبة مع الزبيب والخوخ وكعكة الزفاف على طبق ليس بصغير. أقبل الموسيقيون على الطبقة السفلى من الكعكة، المعجونة عجينتها مع قطع النقود، واضعين صنوجهم وكمنجاتهم ودفوفهم جانباً، متوقفين عن العزف لبعض الوقت. في هذه الأثناء مسحت السيدات الشابات والفتيات أفواههنّ بمناديلهنّ المطرّزة وبرزنَ من صفوف ذويهنّ، أما الشبان فكانوا يقفون مستعدين للقائهنّ وقد وضعوا أيديهم في خواصرهم وينظرون حولهم في خيلاء، وإذا بالنقيب الكهل يحمل أيقونتين لمباركة العروسين. وكان قد حصل عليهما من الراهب المخلص الأب بارثولومي، وكانتا أيقونتين بسيطتين متواضعتين، لا تتوهجان لا بالفضة ولا بالذهب، ولكن ما من قوة شريرة تجرؤ على الاقتراب ممّن هما في بيته. رفع النقيب الأيقونتين عالياً متهيئاً لتلاوة صلاة قصيرة، وإذا بالأطفال الذين كانوا يلعبون على الأرض يصرخون في فزع، وفي إثرهم أخذ الحضور يتراجعون القهقرى وهم يشيرون بأصابعهم في هلع إلى قوزاقيٍّ يقف

في وسطهم. لم يكن أحد يعرف الرجل، ولكنه كان قد أبدع في الرقص، ولحق أن يُضحك الجمهرة الملتفة حوله. ولكن ما إن رفع النقيب الأيقونتين حتى تغيّرت ملامحه كلياً: استطال أنفه ومال جانباً، وبدلاً من عينيه العسليتين أخذت تتقافز عينان خضراوان، وازرقّت شفتاه، واستدقّت ذقنه كرمح وراحت ترتجف، ونتأ في فمه ناب، وارتفع نتوء كبير في رأسه، واستحالَ قوزاقياً - شيخاً.

تعالت أصوات وسط حشد الناس: "إنه هو! إنه هو!" وراحوا يلتصقونَ ببعضهم بعضاً. وصاحت الأمّهات وهنّ يمسكنَ بأيدي أطفالهنّ: "لقد ظهر الساحر من جديد!".

تقدّم النقيب إلى الأمام بمهابة ووجاهة ورفع الأيقونتين في وجهه وهتف بصوتٍ هادر: "اغرب يا صورة الشيطان، فلا مكان لك هنا!"، فغمغم الساحرُ وطقطق بأسنان كالذئب واختفى.

ثار هرج ومرج وسط الحضور، كهدير البحر في يوم عاصفة، وتعدّدت الأقوال والتكهّنات.

تساءل الشبان وأولئك الذين لم يسبق لهم أن سمعوا به: "من يكون هذا الساحر؟"

قال كبار السنّ وهم يهزون رؤوسهم: "ستحلّ مصيبة"، وتجمّع الناس من كل أرجاء فناء النقيب الفسيح وراحوا يصغون إلى قصة الساحر العجيب، لكن كلاًّ منهم كان يرويها رواية مختلفة، والأرجح أن أياً منهم لم يكن يعرف قصته الحقيقية.

ثم دحرجوا برميلاً من شراب العسل وعدداً لا بأس به من سطول النبيذ اليوناني، وأخذ الجميع يمرحون من جديد. هدرت الموسيقى، وانطلق الشبان والفتيات والقوزاق الجريئون في الرقص. وبعد أن ثمل

كبار السن الذين ناهزوا التسعين، بل المئة، كذلك انخرطوا في الرقص مستعيدين ذكرى السنين الخوالي التي لم تذهب سدى. استمر الحفل حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان حفلاً لا نجد له مثيلاً في أيّامنا هذه، ثم أخذ الضيوف يتفرقون، لكن لم يعد إلى بيته إلاّ قلّة منهم، إذ أخلد كثيرٌ منهم إلى النوم في فناء النقيب الواسع، بل إن معظم القوزاق غفوا، من دون دعوة، تحت الأرائك وعلى الأرض وبجوار خيولهم، فحيثما يترنّح الرأس القوزاقي الثمل بصاحبه يستلقي هناك ويشخر شخيراً يتردّد صداه عبر كييف برمتها.

- ٢ -

غمر ضوءٌ خافت الأرض كلها، فقد أطلّ القمر من خلف الجبل وغطّى ضفة الدنيبر الوعرة بغلالة بيضاء كالثلج، كأنها نسيج الدامسكو النفيس، وانحسر الظلّ بعيداً إلى عمق غابة الصنوبر.

كان قارب كبير يطفو في منتصف الدنيبر، وكان ثمة شابان يجلسان في مقدمته، وقد أمالا قبّعتيهما القوزاقيتين على رأسيهما، وكان رشاش الماء يتطاير من مجذافيها كالشرر من حجر الصوان.

ما بال هذين القوزاقيين لا يغنيان؟ لِمَ لا يتحدثان عن القساوسة البولنديين الذين يجولون أوكرانيا طولاً وعرضاً ويطوّبون الشعب القوزاقي كاثوليكاً، أو عن المعركة التي استمرت يومين مع قبائل التتر الرحّل قرب بحيرة "سَلونّايا[١]"؟ ولكن كيف لهما أن يغنيّا أو يتحدثا عن المآثر البطولية وسيدهما دانيلو مستغرق في التفكير وردن سترته القرمزية متدلٍّ من القارب ويضرب صفحة الماء، وسيدتهما كاترينا تهدهد طفلها بهدوء ولا تحول نظرها عنه، ورشاش الماء يُهيل على ثوبها الأنيق المصنوع من الجوخ الخالص غباراً رمادياً.

---

١ البحيرة المالحة. (م)

إنها لمتعة أن يتأمل المرء من وسط الدنيبر الجبال العالية والمروج الرحبة والغابات الخضر! ولم تكن تلك الجبال جبالاً حقاً، إذ لا سفوح لها، وفي أسفلها، كما في أعلاها، قمم حادّة، وتحتها وفوقها السماء العالية. وتلك الغابات، القائمة على التلال، ليست غابات حقاً، بل هي أقرب إلى الشعر النامي على رأس شيخ الغابة الأشعث الذي تغسل مياه النهر لحيته في الأسفل وتعلو رأسه السماء. وتلك المروج ليست مروجاً حقاً، بل حزامٌ تتمنطق به السماء المدوّرة، التي يتنزّه القمر في نصفيه الأعلى والأسفل.

لا يتأمل السيد[1] دانيلو في ما حوله، وإنما يرنو إلى زوجته الشابة.

– ما لكِ يا زوجتي الصغيرة، يا كاترينتي الذهبية، مستسلمةً للحزن؟

قالت كاترينا وهي تتناول منديلاً مطرّزاً بأوراق الشجر وثمار التوت بخيوط من الحرير الأحمر وتمسح به وجه طفلها النائم على ذراعيها:

– لستُ مستسلمة للحزن يا سيدي دانيلو، وإنما أخافتني القصص العجيبة عن الساحر. يُقال إنه وُلد مخيفاً على هذا النحو... وإنّ أحداً من الأطفال لم يكن يريد اللعب معه منذ نعومة أظفاره. اسمع الكلام المخيف الذي يقولونه عنه يا دانيلو: يقولون إنه كان يُخيَّل إليه أنّ الجميع يسخرون منه، وأنه إذا صادف إنساناً في ليلةٍ ظلماء تهيّأ له في الحال أنه يفتح فمه ويكشّر له عن أسنانه. لقد شعرت بالذهول والخوف وأنا أسمع تلك القصص.

[1] يستبق غوغول اسم دانيلو بلقب "بان" البولندي الأصل الذي كان يُطلَق على الملاّكين الإقطاعيين النبلاء، وكذلك اسم كاترينا. لكننا سنعمد من الآن فصاعداً إلى الاكتفاء باسميهما المجردين. (م)

لم ينبس دانيلو بأي كلمة وراح يحدّق في الظلام حيث يلوح حاجز ترابي في البعيد، في ما وراء الغابة، يقوم خلفه قصرٌ قديم. ارتسمت على جبين دانيلو ثلاثة خطوط من التجاعيد دفعةً واحدة، وراحت يده اليسرى تمسّد شاربه الرجولي، ثم قال:

– ما هو مخيف أكثر من كونه ساحراً هو أنه ضيف خبيث. ترى أي نزوة دفعته للقدوم إلى هنا؟ سمعت أن البولنديين ينوون بناء حصن لقطع الطريق بيننا وبين الزابوروجيين. وقد يكون ذلك صحيحاً... لسوف أمحو عش الشيطان هذا ما إن يبلغ مسمعي أنه وكر للشياطين، ولأحرقنّ الساحر العتيق بحيث لا يتبقّى للغربان ما تنقره. أعتقد أن بيته لا يخلو من الذهب ومن كنوزٍ شتى... سنمرّ بعد قليل بجوار الصلبان، إنها مقبرة! هنا يرقد أجداده الأشرار. يقال إنهم كانوا مستعدين لبيع أنفسهم، مع أرواحهم وأسمالهم البالية، للشيطان لقاء المال. فإذا توفّر لديه الذهب حقاً، فلا داعي للتباطؤ، إذ لا يغنم المرء في الحرب دائماً...

إنني أعلم ما تخطّط له، وقلبي ينبئني بأن لقاءك به لن ينتهي على خير. لكن أنفاسك تتقطّع وتلوح القسوة في نظرتك وأراك تقطّب حاجبيك من شدة الغضب!...

قال دانيلو غاضباً:

– اصمتي يا امرأة! فكل رجل يخالطكنّ، أنتنّ معشر النساء، ينقلب هو نفسه امرأةً.

ثم التفت إلى أحد الشابين وقال:

– يا فتى، أعطني ناراً لغليوني!

فنفض الشاب رماداً حامياً من غليونه وراح يحشوه في غليون

سيده. وتابع دانيلو يقول:

– إنها تخيفني من الساحر! القوزاقي، والحمد لله، لا يخشى الشياطين ولا القساوسة الكاثوليك البولنديين. لما كنّا رأينا أي خير لو استمعنا إلى النساء. أليس كذلك يا فتى؟ فالقوزاقي متزوج بغليونه وسيفه الصارم!

صمتت كاترينا وأغضت من بصرها إلى المياه الغافية، وكان النسيم يُموّج صفحة الماء الرقراق، واتّشح الدنيبر بأكمله بالفضة كوبر الذئب في عتمة الليل.

انعطف القارب وراح يمخر النهر بمحاذاة الضفة حيث الغابة. لاحت المقبرة على الضفة، وكانت مكدّسة بالصلبان العتيقة، وما من شجيرة علّيق نامية بينها، ما من عشبٍ أخضر، فقط القمر كان يُدْفئها من علياء السماء.

قال دانيلو ملتفتاً إلى الشابين:

– أتسمعان الصرخات أيها الشابان؟ ثمة من ينادينا مستنجداً!

أجاب الشابان معاً وهما يشيران إلى المقبرة:

– أجل نسمعها، ويبدو أنها آتية من تلك الجهة.

لكن هدأ كل شيء فجأةً. انعطف القارب وأخذ يدور حول الضفة المحدّبة، وفجأةً ألقى المجذّفان مجذافيهما وراحا يحملقان أمامهما بلا حراك. نهض دانيلو أيضاً واقفاً، وسرت رعدة من الفزع والبرد في أوصال القوزاقي.

تزحزح الصليب على قبرٍ من القبور وخرج منه ميت أعجف الجثة بهدوء. كانت لحية الميت تبلغ خصره، وعلى أصابعه الطويلة أظافر أطول من الأصابع نفسها. رفع الميت يديه عالياً ببطء، وكان وجهه

كله يرتعش ويتلوّى، يبدو أنه كان يعاني عذاباً مهولاً، واشتكى بصوتٍ وحشيٍّ لا إنسانيٍّ مخيف: "إنني أختنق! أختنق!" بدا صوته كسكّينٍ يحزّ القلب، وغار في الأرض ثانيةً. ثم اهتزّ صليبٌ ثان، ومرة أخرى نهض ميتٌ من قبره، أطول قامةً من الأول وأكثر بشاعةً، الشعر يغطي جسمه كله، ولحيته تبلغ ركبتيه، وأظافره العظمية أطول من أظافر الأول، وبصوتٍ أشد هولاً ووحشية صرخ: "إنني أختنق!" وغار في الأرض. ثم تأرجح صليبٌ ثالث، ونهض من القبر ميتٌ ثالث، بدا أنّ هيكلاً عظمياً فقط يخرج من القبر. كانت لحيته تبلغ عقبيه، وكانت أظافره مغروسة في الأرض. رفع الميت يديه بشكل مخيف، كأنما أراد بلوغ القمر، وصرخ صرخةً كأنما ثمة من ينشر عظامه الصفر...

استيقظ الطفل النائم على ذراعي كاترينا وصرخ باكياً، وصرخت السيدة نفسها أيضاً. أوقع المجذّفان قبعتيهما في الدنيبر، وارتعش السيد أيضاً.

فجأةً اختفى كل شيء كأنما لم يكن، غير أنّ الشابين احتاجا وقتاً طويلاً ليعودا إلى التجذيف.

رنا بورولباش[1] بقلق إلى زوجته الشابة التي راحت تهدهد طفلها الباكي على ذراعيها في فزع، فضمّها إلى صدره وقبّل جبينها ثم قال مشيراً إلى ما حولهم:

– لا تخافي يا كاترينا! انظري: ما من شيء! إنه الساحر يريد إخافة الناس حتى لا يصل أحد إلى وكره الشرير. إلا أنه لا يخيف بذلك سوى النساء! أعطيني ولدي أحمله! (مع هذه الكلمات رفع دانيلو طفله إلى

---

١ كنية دانيلو. (م)

شفتيه.) ماذا يا إيفان، أتخاف السحرة؟ قل: "لا يا بابا، فأنا قوزاقي". كفى، توقف عن البكاء! إننا في طريقنا إلى البيت، وحين نبلغ البيت ستطعمك أمك السميد بالحليب وتضعك في مهدك وتغني لك:

لُولي، لُولي، لُولي!
لُولي، يا صغيري، لُولي!
هيّا! نم واكبر في اللعب!
لأجلِ مجد القوزاق،
كي تُنكل بالأعداء!

اسمعي يا كاترينا، يبدو أنّ أباكِ لا يريد العيش معنا في وئام، فقد قدم إلينا متجهماً، عابساً، كأنما هو غاضب... لِمَ قَدِم إلينا إن كان غير راضٍ؟ لم يشأ أن يشرب نخب استقلال القوزاق! ولم يؤرجح الطفل على ذراعيه! أردت في البداية أن أبوح له بكل ما يعتمل في قلبي، لكن الكلمات احتبست في حلقي. لا، قلبه ليس قلب قوزاقي! فالقلوب القوزاقية حين تلتقي تخفق بقوة للقاء بعضها بعضاً!... ماذا يا فتيَّي العزيزين، هل اقتربنا من الضفة؟ لسوف أهبكما قبعتين جديدتين. أنت يا ستيتسكو، سأعطيك قبّعة من المخمل مطرّزة بالذهب، انتزعتها من تتري مع رأسه. آلت إليّ ملابسه كلها، روحه وحدها أخليت سبيلها. هيّا، ارسُ بالقارب! ها قد وصلنا يا إيفان، وأنت ما زلت تبكي! خذيه يا كاترينا!

نزل الجميع. لاح سقفٌ من القشِ وراء التل: إنه بيت السيد الملاّك دانيلو الذي ورثه من أجداده. ثمة تلٌّ آخر خلفه، ثم يمتد سهلٌ منبسط، وهناك لن تجد قوزاقياً واحداً حتى لو سرت مئة فرسخ.

- ٣ -

تقوم عزبة دانيلو بين تلّين، في وادٍ ضيق ينحدر وصولاً إلى نهر الدنيبر. وكان بيته قليل الارتفاع، يشبه أكواخ القوزاق المتواضعة، وليس فيه سوى غرفة واحدة، لكنها تتسع له ولزوجته وخادمتهما العجوز وعشرة شبّان مختارين بعناية، وعلى الجدران ترتفع إلى السقف ألواح من خشب السنديان، تكدّست فوقها القصعات والقدور لأجل المائدة، وتوجد بينها كذلك كؤوس من الفضة وأقداح شراب مرصّعة بالذهب، مهداة إليه أو غنمها في الحرب. وأسفل الرفوف عُلِّقت بنادق وسيوف ومدافع هاون ورماح نفيسة. وقد أُخذت طوعاً أو كُرهاً من التتر والترك والبولنديين، لذا فهي مهترئة وفيها خدوش كثيرة. وكان الملاّك دانيلو حين يتأملها كأنما كان يتذكّر المعارك التي خاضها من خلال العلامات التي عليها. وثمة أريكتان من السنديان المصقول بعناية قرب الجدار، وإلى جوارهما، أمام أريكة الموقد، مهد معلّق بحبال تتدلى من حلقة في السقف، وأرضية الغرفة كلها مغطاة بطينٍ أملس مدقوق جيداً. كان دانيلو وزوجته ينامان على الأريكتين، والخادمة العجوز تنام على الدكّة، وفي المهد يلعب الطفل الصغير

ويُهَدهَد، وعلى الأرض يرقد الفتية صفاً واحداً. إلاّ أن القوزاقي يحلو له أكثر أن ينام على الأرض المنبسطة الملساء في الهواء الطلق، ولا يحتاج إلى فراشٍ أو حشيةٍ من الريش، فهو يكوّم تحت رأسه القش النضر ويتمدّد بحرية على العشب. يسرّه، حين يستيقظ في الليل، أن يرنو إلى قبّة السماء المرصّعة بالنجوم، وأن يرتعش من برودة الليل التي تنعش عظامه القوزاقية، ثم يدخن غليونه، وهو يتمطّى ويدمدم ناعساً، ويلتحف بمزيدٍ من الإحكام بغطائه الدافئ المصنوع من جلد الماعز.

لم يستيقظ بورولباش مبكراً بعد حفلة أمس، ولمّا استيقظ جلس على طرف الأريكة وأخذ يشحذ سيفاً تركياً جديداً حصل عليه مقايضةً. أما كاترينا فشرعت تطرّز منشفةً من الحرير بخيوطٍ من الذهب. وفجأةً دخل والد كاترينا حانقاً متجهماً، وبين أسنانه غليون أجنبي، واندفع نحو ابنته يستجوبها بصرامة عن سبب عودتهم إلى البيت في ساعة متأخرة الليلة الماضية.

قال دانيلو مواصلاً ما يقوم به:

– بخصوص مسائل كهذه، يا حماي، اسألني أنا، لا هي! فالزوج هو المسؤول، لا الزوجة. وأرجو ألاّ تغضب، فهكذا هي عاداتنا. ولعل الأمور في بلاد الكفار تجري على نحوٍ آخر، لست أدري.

تورّد وجه حميّه القاسي وتألقت عيناه ببريقٍ وحشي، وغمغم بينه وبين نفسه:

– ومن أولى برعاية البنت وحمايتها من أبيها! حسناً، إني أسألك أنت: أين كنتم تتسكّعون حتى ساعة متأخرة من الليل؟

– هكذا يكون الأمر يا حماي العزيز! ورداً على ذلك أقول إنني خرجت منذ زمنٍ بعيد من صف أولئك الذين تسوس قيادهم النساء.

فأنا أعرف كيف أعتلي صهوة الحصان، وأُجيد الإمساك بسيفٍ صارم بيدي، فضلاً عن أمورٍ أخرى أجيدها... فأنا أجيد أيضاً عدمَ إعطاء جواب بخصوص ما أفعل.

– أرى، يا دانيلو، وأعلم أنك ترغب في الشجار! فمن يكتم ما يفكّر فيه فإنه، بلا شك، يضمر شرّاً.

قال دانيلو:

– فكّر كما تشاء، وأنا أيضاً سأفكّر لنفسي، وإني أحمد الله على أنني لم أرتكب أي عمل مشين حتى الآن، بل دافعتُ دوماً عن عقيدتي الأرثوذوكسية وعن وطني، وليس كبعض المتشردين الذين لا يعلم إلاّ الله أين يجولون ويتسكّعون، في الوقت الذي يقاتل فيه الأرثوذوكس حتى الموت، يأتون هم ليحصدوا ما لم يزرعوه. إنهم ليسوا حتى مثل الأونيات[1]، فهم حتى لا يُعرِّجون على كنيسة الله. يجب استجواب أمثال هؤلاء بقسوة لمعرفة أين يهيمون على وجوههم؟

– إيه أيها القوزاقي! أتعلم أنني لا أجيد الرماية: فرصاصتي بالكاد تخترق القلب من مسافة مئة ساجين[2]. كما أنني لا أُحسَد على براعتي في السيف، إذ لا يتبقّى من غريمي سوى قطع من اللحم أصغر من حبّات السميد التي يصنعون منها العصيدة.

قال دانيلو: "أنا مستعد"، ورسم علامة الصليب بسيفه في الهواء

---

١ الأونيات: أتباع الكنيسة المشرقية القديمة، كالنساطرة واليعاقبة والموارنة والأقباط وغيرهم، وكانوا يدعون إلى توحيد الكنيستين الأرثوذوكسية والكاثوليكية تحت سلطة بابا روما، وهو ما كانت تعتبره الكنيسة الأرثوذوكسية السلافية هرطقة خطيرة. (م)

٢ الساجين = متر و١٣ سنتمتراً. (م)

بخفّة وجرأة، كأنما كان يعلم لأجل ماذا قام بشحذه.

ألقت كاترينا بنفسها على يد زوجها وتعلّقت بذراعه وصاحت:

– دانيلو! تذكّر، أيها المجنون، وانظر على من ترفع يدك! ويا أبتِ، شعرك أبيض كالثلج، في حين أنك احتددتَ كفتى أرعن!

صرخ دانيلو في زوجته متوعّداً:

– أيتها الزوجة! إنك تعلمين أنني لا أحب هذا. اهتمي بشؤونك النسائية!

صلصل السيفان صليلاً مخيفاً، وقارع الحديدُ الحديدَ، وأثار القوزاقيان الشرّر كأنه غبار. هرعت كاترينا إلى مخدعها وهي تبكي، وارتمت على سريرها، وسدّت أذنيها حتى لا تسمع قعقعة السيفين، لكن قتال القوزاقيين لم يكن بهذه الرداءة والوهن بحيث تستطيع إخماد صوت ضرباتهما. أوشك قلبها أن ينفطر مِزَقاً، وكانت تسمع صوت قعقعة السيفين يتخلل جسمها كله: توك، توك. "كلا، لن أحتمل، لن أحتمل... لعل الدم القاني يتدفق غزيراً من الجسد الأبيض. لعل زوجي العزيز قد خارت قواه الآن، بينما أنا أرقد هنا!" وعادت أدراجها ممتقعة الوجه متقطعة الأنفاس.

كان قتال القوزاقيين متعادلاً ورهيباً. لم يستطع أيٌّ منهما التغلّب على الآخر. يهجم والد كاترينا تارةً، فيتقهقر دانيلو، ثم يهجم دانيلو، فيتقهقر الأب الشرس، ثم تتعادل الكفّة بينهما. إنهما يغليان، يلوّحان بسيفيهما... اوخ! يصلصل السيفان... وطار النصلان مقعقعين من مقبضيهما جانباً.

قالت كاترينا: "الحمد والشكر لك يا رب!" لكنها صرخت من جديد حين رأت القوزاقيين يتناولان بندقيتين. لقّماها بحجري صوان،

ورفعا الزنادين.

أطلق دانيلو النار، لكنه أخطأ الهدف. صوّب الأب... إنه طاعن في السن، وبصره ليس حادّاً كبصر الشاب، إلاّ أن يده لا ترتجف... دوّت الطلقة... ترنّح دانيلو، وخضّب الدم الأحمر ردن السترة القوزاقية الأيسر.

صاح دانيلو:

- كلا! لن أبيع نفسي بهذا الرخص. فاليد اليمنى، لا اليسرى، هي القائد. لديّ مسدس تركي معلّق على الجدار، لم يخنّي في حياتي برمّتها قط. انزل عن الجدار أيها الرفيق القديم، وقدّم خدمة لصديقك!... ومدّ دانيلو يده.

تشبّثت كاترينا بيديه وارتمت على قدميه وصاحت في يأس:

- دانيلو! إنني لا أتوسّل لأجلي، فليس لي إلا نهاية واحدة: الزوجة التي تبقى على قيد الحياة بعد موت زوجها زوجة حقيرة ليست جديرة بالاحترام، الدنيبر، الدنيبر البارد، سيكون قبراً لي... لكن انظر إلى ابنك يا دانيلو، انظر إلى ابنك! من سيحنو على الطفل المسكين ويرعاه؟ من سيلاطفه؟ من سيعلّمه كيف يرمح على حصانٍ أدهم أصيل، وكيف يقاتل في سبيل العقيدة والحرية، وكيف يشرب ويلهوَ على الطريقة القوزاقية؟ لقد هلكتَ يا بني، لقد هلكت، فوالدك يريد أن يتنكّر لك! انظر كيف يدير وجهه. آه، لقد عرفتك الآن! أنت وحش، ولست إنساناً! قلبك قلب ذئب، وروحك روح شيطانٍ شنيع. كنت أظن أن في قلبك ذرة من الرحمة وأنّ في جسدك الصلد تضطرم مشاعر إنسانية. كنت، أنا الحمقاء، أخدع نفسي. إذ هذا سيفرحك، ولسوف ترقص عظامك في القبر ابتهاجاً حين تسمع الوحوش

البولنديين الأنجاس وهم يلقون بابنك في النار، وحين يصرخ ابنك من طعن السكاكين أو من الماء المغلي يُسكب عليه. آه، إنني أعرفك! لسوف يسرّك أن تقوم من قبرك وتُهوّي بقبعتك النار المستعرة من تحته!

– توقفي يا كاترينا! تعالَ يا قرّة عيني إيفان، دعني أقبّلك! كلا يا بني، لن يلمس أحد شعرة من رأسك، ولسوف تترعرع وتكبر من أجل مجد وطنك وعزّته، وستندفع كالإعصار أمام القوزاق، وعلى رأسك قبعة من المخمل، وفي يدك سيفٌ قاطع.

ثم قال لوالد كاترينا الذي ظلّ واقفاً مكانه لا يعبّر وجهه لا عن الغضب ولا عن المهادنة:

– هات يدك يا أبتِ، ولننسَ ما جرى ما بيننا. إنني نادم على ما بدر مني من إساءة تجاهك. ما لك لا تمدّ لي يدك؟

صاحت كاترينا وهي تعانق أبيها وتقبّله:

– لا تكن غليظ القلب يا أبتِ، واصفح عن دانيلو، فهو لن يسيء إليك ثانيةً أبداً!

قبّلها والدها وأجاب: "فقط لأجلك، يا ابنتي، سأصفح عنه!" ولمعت عيناه ببريقٍ غريب.

ارتعدت كاترينا قليلاً، فقد بدت لها قبلته غريبة، وكذلك بريق عينيه. استندت بمرفقها على الطاولة التي كان دانيلو يضمّد ذراعه المصابة عليها وهو يفكّر بأنه قد أخطأ ولم يتصرف كما ينبغي له كقوزاقي أن يتصرف حين طلب الصفح وهو لم يقترف أيّ ذنب.

– ٤ –

انبلج الفجر، لكنه لم يكن نهاراً مشمساً؛ فقد تلبّدت السماء بالغيوم وأخذ رذاذ المطر يتساقط على السهول والغابات وعلى نهر الدنيبر العريض. استيقظت كاترينا، لكن ليس بفرح، بل بعينين باكيتين، وقد تملّكها الكدر والقلق.

– يا زوجي العزيز، يا زوجي الغالي، لقد حلمتُ حلماً غريباً!

– أي حلم يا حبيبتي كاترينا؟

– حلمت حلماً غريباً، وكان حقيقياً كأنما في اليقظة. حلمت بأن أبي هو ذاك المسخ البشع الذي رأيناه عند النقيب. لكن أرجوك لا تصدّق هذا المنام، فالمرء يرى شتى الحماقات في أحلامه! رأيت أنني أقف أمامه، أرتعش كلّي، وقد تملكني الخوف، وكانت أوصالي تئنّ لكل كلمة من كلماته. آه لو سمعت ما قال...

– وماذا قال يا كاترينتي الذهبية؟

– قال: "انظري إليّ يا كاترينا، إنني وسيم، وعبثاً يقول الناس بأني دميم الخلقة. سأكون لكِ زوجاً صالحاً. انظري كيف أحدّق بعينَيّ!" ثم صوّب إليّ عينين ناريتين، فصرخت واستيقظت.

– أجل، فما أكثر ما تصدق الأحلام. ولكن أتعلمين أنّ الأوضاع في ما وراء الجبل ليست هادئة تماماً؟ فالبولنديون يكادون أن يظهروا في منطقتنا مرة أخرى. وقد أرسل إليّ غوروبتس بتوخّي اليقظة. لكنه عبثاً فعل ذلك، فأنا لا أنام حتى من دون توصيته. لقد أقام فتياني اثنَي عشر متراساً من الأشجار هذه الليلة. سنقدّم للجنود "البوسبوليت[1]" خوخاً من الرصاص، أما النبلاء البولنديون فسنحملهم على الرقص بالهراوات.

– وهل أبي على علم بذلك؟

– أبوكِ يجلس على ظهري، ولم أستطع حتى الآن معرفة ما في قرارة نفسه. لا شك في أنه قد اقترف خطايا كثيرة في البلاد الأجنبية. إذ ما باله حقاً؟ فهو يقيم عندنا منذ قرابة شهر، ولم يمرح مرة واحدة كأي قوزاقيٍّ صالح! أبى أن يشرب نبيذ العسل! أتسمعين يا كاترينا، أبى أن يشرب نبيذ العسل الذي انتزعته انتزاعاً من يهود بريست. – ثم صاح – هيه، يا فتى! اركض إلى القبو يا بني، وائتني بعسل اليهود! كما أنه لا يشرب الفودكا! ما هذا الهراء! يبدو لي، يا كاترينا، أنه حتى لا يؤمن بالسيد المسيح. فما رأيك، هه؟

– الله أعلم بما تقول يا دانيلو!

تابع دانيلو يقول وهو يتناول قدحاً فخارياً من القوزاقي:

---

١ بوسبوليت: كلمة مركّبة من "بولندة" و"ليتوانيا"، والمقصود المملكة البولندية – الليتوانية التي كانت قائمة آنذاك وكانت في عداء مع الأوكرانيين، إذ كان النبلاء البولنديون يعتبرون منطقة غرب أوكرانيا أرضاً بولندية، وما زال بعض القوميين البولنديين يدعون إلى استعادتها حتى اليوم، وكان الأوكرانيون القوزاق يعتبرون منطقة ما وراء الدنيبر أرضاً أوكرانية. وقد خصّص غوغول ملحمته "تاراس بولبا" لهذا النزاع. (م)

– عجيب يا زوجتي! فحتى الكاثوليك الأنجاس يضعفون أمام الفودكا. الأتراك وحدهم لا يشربون. ماذا يا ستيتسكو، هل شربت الكثير من العسل في القبو؟

– ذقته فقط يا سيدي!

– تكذب يا ابن الكلب! انظر كيف يهجم الذباب على شاربك! إنني أرى في عينيك أنك قد كرعتَ قرابة نصف سطل. إيه، يا للقوزاق! يا له من شعب أرعن! يقدّم كل شيء لرفيقه، إلاّ الخمر يحتفظ بها لنفسه. لقد مضى وقت طويل على آخر مرة سكرتُ فيها، أليس كذلك يا كاترينا؟

– وقت طويل! قبل...

– لا تخافي، لا تخافي، لن أشرب سوى قدح واحد! – ثم قال حين أبصر حماه ينحني كي يدخل الغرفة: – وها هو الشيخ التركي ينسلّ عبر الباب!

قال الأب وهو يخلع قبعته ويسوّي حزامه الذي كان يتدلّى منه سيف مرصّع بأحجار غريبة:

– ما هذا يا ابنتي؟ لقد بلغت الشمس كبد السماء ولم تعدّي الغداء بعد.

– الغداء جاهز يا أبي، سنقدّمه حالاً!

ثم قالت للخادمة العجوز التي كانت تمسح آنيةً خشبية:

– أحضري قدر لقيمات القاضي. مهلاً، الأفضل أن أحضره بنفسي، أما أنتِ فاذهبي ونادي الفتية.

جلس الجميع على الأرض في حلقة: الأب مقابل جدار الأيقونات، وعن يساره دانيلو، وعن يمينه كاترينا وعشرة من الفتيان الأوفياء في

سترات زرق وصفر.
تناول الأب القليل من الطعام ثم وضع ملعقته وقال:
- لا أحب لقيمات القاضي هذه، فلا طعم ولا نكهة فيها مطلقاً.
قال دانيلو في نفسه: "أعلم أنك تُفضّل حساء اليهود" ثم أردف بصوتٍ مسموع:
- ما لك تقول، يا حماي، أنْ لا طعم ولا نكهة في لقيمات القاضي؟ أهي مُعدّة بشكل سيّئ؟ إن لقيمات القاضي التي تعدّها كاترينتي لم يذق مثلها قائد القوزاق نفسه إلا نادراً. ولا داعي للتقزّز منها، فهي طعام مسيحي! فكل القديسين والأبرار كانوا يتناولون لقيمات القاضي.
لم ينبس الأب بكلمة، ودانيلو أيضاً لاذ بالصمت.
ثم قُدِّم لحم الخنزير بالكرنب والخوخ.
جَرَفَ والد كاترينا الكرنب جانباً بالملعقة قائلاً:
- لا أحب لحم الخنزير.
قال دانيلو:
- ولِمَ لا تحب لحم الخنزير؟ فقط الترك واليهود لا يأكلون لحم الخنزير.
ازداد تجهّم الأب، ولم يأكل سوى عصيدة الحنطة السوداء بالحليب، وبدلاً من الفودكا أخرج من عبّه زجاجة فيها سائل أسود.
بعد تناول الغداء نام دانيلو نوماً عميقاً ولم يستيقظ إلاّ قبل حلول المساء بقليل، وجلس يكتب إلى القوات القوزاقية. أما كاترينا فجلست على أريكة وراحت تهزّ مهد طفلها بقدمها. كان دانيلو، وهو جالس، يرنو بعينه اليسرى إلى ما يكتب، وباليمنى إلى النافذة. وعبر النافذة،

في البعيد، كانت تتلألأ التلال والدنيبر، تلوح خلفه زرقة الغابات. وفي الأعلى كانت تتألق السماء الصافية. لكن دانيلو لم يكن يتفرّج لا على السماء البعيدة ولا على الغابة الزرقاء، وإنما كان ينظر إلى اللسان[1] الذي يلوح عليه ظلّ الحصن القديم. وقد خُيّل إليه أنّ ضوءاً ومض في نافذة ضيقة من نوافذ الحصن. لكن السكون كان مخيّماً، والأرجح أن ذلك قد تهيّأ له فحسب. ولم يكن يُسمَع سوى هدير الدنيبر الأصمّ في الأسفل، ومن ثلاث جهات يتردّد صوت تكسّر الأمواج، الواحدة تلو الأخرى. لم يكن النهر ثائراً، وإنما كان يغمغم ويدمدم متذمّراً كشيخ هرم؛ لا يعجبه شيء، وتغيّر كل شيء من حوله؛ يتعارك بصمت مع التّلال والغابات والمروج على ضفتيه، ويحمل شكواه منها إلى البحر الأسود.

لاح قارب يمخر عباب الدنيبر العريض، ومرة أخرى بدا أنّ شيئاً ومض في الحصن. أطلق دانيلو صفيراً خافتاً فهرع الفتى المخلص على صوت الصفير.

– خذ، يا ستيتسنكو، سيفاً قاطعاً وبندقية بسرعة واتبعني!

سألت كاترينا: هل ستذهب؟

– أجل يا زوجتي. يجب تفحّص الأماكن كلها للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

– لكنني أخشى البقاء وحدي، وأنا نعسة جداً. ماذا إذا حلمت الحلم نفسه؟ حتى إنني لست متأكدة من أنه كان حلماً، فقد بدا حقيقيّاً جداً.

---

[1] بالمعنى الجغرافي، الجزء من اليابسة الممتد في النهر.

– ستبقى العجوز معك، والقوزاق نائمون في الأيوان والفناء.

– لقد نامت العجوز، ولأمرٍ ما لا ثقة لي بالقوزاق. اسمع يا دانيلو، أقفل عليّ باب الغرفة وخذ المفتاح معك، عندها لن أخاف كثيراً. أما القوزاق فليرقدوا عند الباب.

– فليكن! قال دانيلو وهو يمسح بندقيته من الغبار ويذرّ البارود على الرف.

كان ستيتسكو المخلص قد استعدّ ويقف مرتدياً عتاده القوزاقي بأكمله. اعتمر دانيلو قبعته الأستراخانية، وأوصد النافذة، وأغلق الباب بالمزلاج ثم أقفله وخرج من الفناء بهدوء، متلمّساً طريقه بين قوزاقه النائمين، وتوجّه إلى التلال.

كانت السماء كلها تقريباً قد صفت، وكان نسيمٌ عليل يهبّ برقّة من الدنيبر، ولولا أنين نورسٍ كان يُسمع من بعيد لبدا المكان برمّته أبكم. لكن فجأةً خُيّل لبورولبّاش أنه سمع خشخشة، فاختبأ مع خادمه المخلص خلف عِضاهة[1] كانت تخفي متراساً من الأشجار المقطوعة. ثمة شخص في سترة حمراء، يحمل غدارتين ويتمنطق بسيف، يهبط عن التل.

قال دانيلو معايناً إياه من وراء الشجيرة:

– إنه حماي! إلى أين يذهب في ساعة كهذه، ولماذا؟ كن يقظاً يا ستيتسكو وانظر بكلتا عينيك أي طريقٍ يسلك.

نزل الرجل ذو السترة الحمراء حتى بلغ الضفة تماماً، ثم انعطف متجهاً إلى اللسان الناتئ حيث الحصن. فقال دانيلو:

---

١ شجيرة شوكية.

– آها، إلى هناك إذن! انظر يا ستيتسكو، إنه يتّجه إلى جحر الساحر تماماً.

– لا شك في ذلك يا سيدي، وإلاّ كنا رأيناه على الجانب الآخر، لكنه اختفى على مقربة من الحصن.

– مهلاً! فلنخرج من مخبئنا ونقتفِ أثره بعد ذلك. ثمة ما يُدبَّر هنا. آه يا كاترينا، فقد قلت لك إن أباك إنسان شرير؛ فهو لم يكن يسلك مسلك المسيحي الصالح في كل ما يفعل.

عَبَرَ السيد دانيلو وفتاه المخلص لسان الأرض بسرعة، واختفيا عن الأنظار. حجبتهما الغابة الهاجعة. كان ضوء خافت ينبعث من النافذة العلوية. ووقف القوزاقيان في الأسفل يفكّران في طريقة للتسلل إلى الداخل. لم يريا أي بوابة أو باب، ولا شك أن ثمة باب في الفناء؛ لكن كيف الوصول إليه؟ ومن بعيد كان يُسمَع صوت صلصلة سلاسل وعَدْوِ الكلاب.

قال دانيلو حين رأى شجرة سنديان سامقة أمام النافذة:

– ما لي أُطيل التفكير! ابقَ هنا يا بني، سأتسلّق الشجرة كي أتمكّن من إلقاء نظرة عبر النافذة.

ثم نزع عنه حزامه ووضع سيفه على الأرض حتى لا يصلصل، وأخذ يتسلّق الشجرة متشبثاً بالأغصان. كانت النافذة لا تزال مضاءة. جلس دانيلو على غصن، قرب النافذة مباشرةً، متمسكاً بجذع الشجرة، وراح ينظر إلى داخل الغرفة: لم يكن في الغرفة حتى شمعة، ومع ذلك كانت مضاءة! وكانت على الجدران رموز غريبة، وثمة أسلحة معلّقة، لكنها عجيبة؛ فأسلحة كهذه لا يحملها التُرك، ولا أهل القرم، ولا البولنديون، ولا المسيحيون، ولا حتى الشعب السويدي المجيد.

وكانت الخفافيش تمرق بسرعة جيئةً وذهاباً تحت السقف، فكانت ظلالها تنعكس على الجدران والباب والأرضية. وها هو الباب يُفتح دون صرير، ويدخل شخص يرتدي سترةً حمراء ويتوجه مباشرةً إلى الطاولة المغطاة بسماط أبيض. "إنه هو، حماي!" وانزلق دانيلو هابطاً قليلاً والتصق أكثر بالشّجرة.

لكن لم يكن لدى حميه وقت ليرى إن كان ثمة من يختلس النظر عبر النافذة أم لا. فقد دخل الغرفة مغموماً متجهماً، ونزع السماط عن الطاولة، وفي الحال انساب عبر الغرفة بهدوء ضوء أزرق شفاف. وكانت أمواج الضوء الذهبي الباهت، الذي كان يغمر الغرفة من قبل، تنسكب وتغوص، كما في بحر أزرق، في الضوء الأزرق الشفاف دون أن تمتزج به وتمتد شرائحَ كأنما على سطح من المرمر. ثم وضع قِدراً على الطاولة وراح يلقي فيها بعض الأعشاب.

أخذ دانيلو ينعم النظر، ولاحظ أنه لم يعد يرتدي السترة الحمراء، ووجده قد ارتدى، بدلاً منها، سروالاً فضياً كالذي يرتديه الترك، ويتمنطق بمسدسات، وعلى رأسه قبعة عجيبة عليها نقوش لا هي بالحروف الروسية ولا بالحروف البولندية. رنا إلى وجهه، وإذا به يتغيّر: استطال أنفه وتدلّى على شفتيه، وامتدّ فمه فبلغ أذنيه في لحظة، وبرز في فمه ناب مالَ جانباً... وتمثّل أمامه ذاك الساحر نفسه الذي ظهر في حفل الزفاف عند النقيب.

قال بورولباش في سرّه: "لقد صدقت رؤياكِ يا كاترينا!".

أخذ الساحر يدور حول الطاولة، وصارت الرموز على الجدران تتغير بشكل أسرع، وازدادت سرعة طيران الخفافيش صعوداً وهبوطاً، وجيئةً وذهاباً، وبدأ الضوء الأزرق يخفت شيئاً فشيئاً حتى تلاشى تماماً

تقريباً، وانبعث في الغرفة ضوء وردي ناعم، وبدا هذا الضوء العجيب ينسكب مصحوباً برنينٍ خافت ويغمر أركان الغرفة كلها. وفجأةً انطفأ وأعتمت الغرفة، ولم يعد يُسمَع سوى صخب يشبه صخب هبوب الريح في هدأة الليل، فوق صفحة الماء، مُحنيةً أشجار الصفاف الفضية أكثر حتى تغوص في الماء. وخُيّل لدانيلو أن القمر يتلألأ في الغرفة، والنجوم تسبح، وتمرّ سريعاً السماء الزرقاء الداكنة، بل ولفحت وجهه برودة هواء الليل. كما خُيّل لدانيلو (وهنا أخذ يتلمّس شاربه ليستوثق من أنه ليس في منام) أنّ ما في الغرفة لم يعد السماء وإنما مخدعه هو: فعلى الجدران تتدلى سيوفه التترية والتركية، وعلى الجدران رفوف، وعلى الرفوف أواني الطعام ولوازم البيت، وعلى الطاولة خبز وملح، وثمّة مهد معلّق بالسقف... ولكن بدلاً من الأيقونات كانت تطل وجوه مخيفة على دكّة الموقد... إلاّ أنّ ضباباً أخذ يتكثّف شيئاً فشيئاً حتى حجب كل شيء، وراحت تُعتم شيئاً فشيئاً. ومن جديد أضاءت الغرفة كلها بضوءٍ ورديٍّ مصحوبٍ برنينٍ عجيب، ومرة أخرى ظهر الساحر واقفاً بلا حراك مُعمَّماً بعمامته العجيبة. ثم أصبحت الأصوات أقوى وأعمق، وصار الضوء الوردي الرقيق أشدّ سطوعاً، وأخذ شيء أبيض، أشبه بغيمة، يرفرف في الغرفة. وخُيّل لدانيلو أنّ الغيمة ليست غيمة، وإنّما امرأة؛ ولكن مِمَّ هي مصنوعة؟ أمن الهواء؟ وكيف لها أن تقف دون أن تلمس قدماها الأرض أو تستند إلى شيء، والضوء الوردي ينفذ منها، وتُرى الرموز على الجدران من خلالها؟ وها هي تحرّك رأسها الشفاف، وتلمع عيناها الزرقاوان الباهتتان لمعاناً خفيفاً، وشعرها يرفرف وينسدل على كتفيها، كأنه ضباب رمادي فاتح اللون، وتصطبغ شفتاها بحمرةٍ خفيفة كشقشقة ضوء الفجر الأرجواني الذي

يخترق السماء البيضاء الشفافة في الصبح ويُرى بالكاد، وحاجباها يرتسمان بلون أسودٍ باهت... آخ! إنها كاترينا! وهنا أحسّ دانيلو بأن أطرافه قد قُيّدت بالأغلال؛ وحاول جاهداً أن يتكلم، لكن شفتيه تحركتا دون أن تصدرا صوتاً.

كان الساحر يقف في مكانه بلا حراك.

– أين كنتِ؟ سأل هو، والواقفة أمامه ارتعشت وأنّتْ في خفوت:

– أوه، لِمَ استدعيتني؟ فقد كنت في غاية السعادة. كنت في المكان الذي ولدت فيه وعشت خمسة عشر عاماً. آه ما أروع المكان هناك! ويا للمرج الذي كنت ألعب فيه في طفولتي كم هو أخضر وفوّاح؛ وما زالت الأزهار البرية هي ذاتها، وكذلك بيتنا الخشبي وحاكورتنا! آه، كيف كانت أمّي الطيبة تحضنني، ويا للحب الذي في عينيها! كانت تدللني وتقبلني في شفتي وخدّي وتمشط شعري الأشقر بمشطٍ جميل...

ثم حدّقت في الساحر بعينيها الباهتتين وسألت:

– أبتِ! لِمَ ذبحتَ أمّي؟

هدّدها الساحر بإصبعه بشكل مخيف وقال: "هل طلبت منكِ التحدث في هذا الأمر؟"، فارتعدت الحسناء الهوائية، "أين سيدتكِ الآن؟"

– لقد نامت سيدتي كاترينا قبل قليل، فسررت لذلك ورفرفتُ وطرت. فأنا متشوقة لرؤية أمي منذ زمنٍ طويل. فجأةً عدت فتاةً في الخامسة عشرة، وصرت خفيفة كالعصفور. لِمَ استدعيتني؟

سأل الساحر بصوتٍ خافت يُسمَع بالكاد:

– أتذكرين كل ما قلتَه لكِ أمس؟

- أذكر، أذكر! ولكنني مستعدة لبذل الغالي والنفيس من أجل نسيانه. كاترينا المسكينة! إنها لا تعلم كثيراً مما تعلمه روحها.

"إنها روح كاترينا!" قال دانيلو في سرّه، إلا أنه لم يجرؤ على الإتيان بأيّ حركة.

- تُبْ يا أبي! أليس مخيفاً أن يقوم الموتى من قبورهم بعد كل جريمة قتل تقترفها؟

قاطعها الساحر مهدداً:

- ها أنت تعيدينها ثانيةً! سوف أبقى على موقفي، وسأرغمك على القيام بما أريد. ولسوف تقع كاترينا في غرامي!...

قالت متأوّهةً:

- آه، إنك وحش ولست أبي! كلا، لن تجري الأمور كما تريد! صحيح أنك بسحرك الشرير تمكنتَ من استحضار روحها وتعذيبها، ولكن الله وحده يستطيع أن يجبرها على القيام بما يشاء. كلا، لن تقدم كاترينا أبداً على القيام بهذا الإثم الذي يخالف إرادة الله ما دمتُ في جسدها. إن يوم الحساب قريب يا أبتِ! وحتى لو لم تكن والدي لما استطعت إرغامي على خيانة زوجي المحب والمخلص. ولو لم يكن زوجي مخلصاً لي وعزيزاً، حتى في الحالة تلك لن أخونه، لأن الله لا يحب النفوس الخائنة الناكثة بعهودها.

وهنا ركّزت عينيها الممتقعتين على النافذة التي كان دانيلو رابضاً تحتها، ووقفت ساكنةً بلا حراك...

صاح الساحر:

- إلى أين تنظرين؟ من ترين هناك؟

ارتعشت كاترينا الهوائية، لكن دانيلو كان قدر صار على الأرض

منذ وقتٍ طويل، وكان يحثّ الخطا مع خادمه المخلص ستيتسكو إلى تلالهً. "هذا مرعب، مرعب!" قال في نفسه، شاعراً برعدة ما تسري في قلبه القوزاقي، وسرعان ما عبر فناءه حيث كان القوزاق لا يزالون يغطّون في نومٍ عميقٍ، ما عدا واحد كان يقوم بالحراسة ويدخن الغليون. وكانت السماء مرصّعة بالنجوم.

- ٥ -

قالت كاترينا وهي تمسح عينيها بردن منامتها المطرزة وتحدّق في زوجها الواقف أمامها من رأسه إلى أخمص قدميه:

- أحسنتَ إذ أيقظتني. يا للحلم المخيف الذي رأيته! كنت أتنفس بصعوبة! اوخ... ظننتُ أنني أحتضر...

- كيف كان حلمكِ هل كان... وراح بورولباش يخبر زوجته بكل ما رأى.

سألت كاترينا في ذهول:

- كيف عرفت يا زوجي؟ ولكن لا، فإني أجهل الكثير مما حدثتني عنه. كلا، لم أرَ في المنام أنّ أبي قد قتل أمي، ولم أرَ الموتى أو أي شيء من هذا القبيل. لا يا دانيلو، إنك لا تخبرني بالحقيقة. آخ، كم أبي مخيف!

- لا عجب أنكِ لم تري كل شيء في المنام، فأنتِ لا تعرفين عُشر ما تعرفه روحك. هل تعرفين أن أباك عدو المسيح؟ فحتى في السنة الفائتة، حين كنت أتأهب للهجوم على أهل القرم مع البولنديين (كنت آنذاك لا أزال حليفاً لهذا الشعب الكافر)، قال لي رئيس دير

براتسكي (وهو، يا زوجتي، قدّيس) إن عدو المسيح يتمتع بسلطان على الأرواح وقادر على استحضار روح أي إنسان؛ ذلك أنّ الروح تهيم حيث تشاء حين يخلد المرء إلى النوم، وتطوف مع الملائكة حول عرش الله. إنني، للوهلة الأولى، لم يقع بصري على وجه أبيك، ولو كنت أعلم أن لك أباً كهذا لما كنت تزوجتك؛ كنت هجرتك، وما حمَّلتُ روحي وزر مصاهرة المسيخ الدجّال.

أخفت كاترينا وجهها بيديها وقالت باكيةً:

- دانيلو! أأذنبت بشيء في حقّك؟ هل خنتك يا زوجي الحبيب؟ ماذا فعلت حتى أثرتُ سخطك عليّ؟ ألم أخدمك بإخلاص؟ هل أسأتُ إليك بأي كلمة بذيئة حين تعود مترنّحاً من سهرة مع الشبان؟ ألم أنجب لك ابناً أسود الحاجبين؟...

- لا تبكي يا كاترينا، فلقد عرفتكِ الآن ولن أهجرك لقاء أي شيءٍ كان. الذنب كله ذنب أبيك.

- لا، تُسمِّه أبي، فهو ليس أبي، وليشهد الله أنني أتبرّأ منه، أتبرّأ من أبي! إنه مارق، مرتدّ، عدوّ الله! ولو رأيته يهلك أو يغرق لما مددتُ يدي لإنقاذه. ولو جفّ حلقه من عشبةٍ غريبة لما ناولته ماءً يشرب. بالنسبة إليّ، أنت أبي!

- ٦ -

في قبوٍ عميق، في دار دانيلو، وراء بابٍ موصد بثلاثة أقفال، يجلس الساحرُ مقيداً بسلاسل حديدية، وفي البعيد كان قصره الشيطاني المشرف على نهر الدنيبر يحترق، وأمواج النهر الحمراء، كالدم، تصطخب وتفور حول جدرانه العتيقة. ولم يكن الساحر يجلس في القبو العميق جزاءً له على سحره وعلى عصيانه الله؛ فالله سيحاسبه على ذلك؛ وإنما على خيانته وتآمره مع أعداء الأرض الروسية الأرثوذكسية؛ على بيعه الشعب الأوكراني إلى الكاثوليك وإحراقه الكنائس المسيحية. كان الساحر يجلس متجهّماً، تدور في رأسه أفكارٌ سود كالليل البهيم. فلم يبقَ له إلا يوم واحد يعيشه، وسيكون عليه توديع العالم في الغد. غداً ينتظره الإعدام. والإعدام الذي ينتظره ليس هيّناً تماماً: أرحم ما فيه حين يتمّ غليه حياً في مرجل أو حين يسلخون جلده الآثم. يجلس الساحر متجهّماً، منكس الرأس. لعله الآن يستغفر قبل أن يحين أجله، لكن ذنوبه ليست بالذنوب التي يغفرها الله. ثمة نافذة ضيقة فوق رأسه، مشبّكة بقضبان من الحديد. اقترب الساحر من النافذة، مصلصلاً بسلسلته، وتطلّع منها، لعل ابنته

تمرّ. إنها وديعة، غير حقود، كحمامة، ولعلّ قلبها يرقّ لأبيها... لكن ما من أحد. ثمة طريق أسفل النافذة، لكنها كانت مقفرة. وفي الأسفل يتسكّع الدنيبر غير عابئ بأحد؛ إنه يصخب، ويبلغ صوت هديره الرتيب مسامع السجين شجيّاً كئيباً.

وها هو أحدهم يظهر في الطريق - إنه قوزاقي! تنهّد السجين تنهّداً ثقيلاً. مرة أخرى أقفر المكان. وها هو أحدهم يهبط التل في البعيد... يرفرف قفطانه الأخضر... يتوهّج على رأسه غطاءٌ ذهبي على شكل سفينة... إنها هي! اقترب الشخص أكثر من النافذة، وها هو يقف أمامها تماماً...

- كاترينا! ابنتي! ارحميني، تصدّقي عليّ!...

إنها خرساء، ولا تريد أن تسمع، بل حتى لم تحوّل نظرها في اتجاه السجن، وها قد مرّت، واختفت. أقفرت الدنيا بأسرها. يهدر الدنيبر في كآبة. يخيّم الحزن على قلبه. لكن هل يعي الساحر هذا الحزن؟

بدأ المساء يحلّ، وأخذت الشمس تغرب. وها قد غربت، وحلّ المساء. الجوّ رطبٌ منعش، وثمة ثور يخور في مكانٍ ما، وثمة أصوات قادمة من مكانٍ ما. لا شك أن الناس يعودون من أعمالهم وهم يمرحون. يمخر قاربٌ سريع الدنيبر... من قد يعبأ بسجين البئر! تلألأ هلالٌ فضيّ في السماء. ها هو شخصٌ قادم من جهة الطريق الأخرى. يتعذّر تبيّنه في الظلام. إنها كاترينا تعود أدراجها.

- يا ابنتي، بحقّ المسيح! حتى صغار الذئاب المفترسة لا تُقدم على افتراس أمها! يا ابنتي، ألقي ولو نظرة على أبيك المجرم.

لكنها لم تصغِ إليه وأكملت طريقها.

- يا ابنتي، أستحلفكِ بأمكِ الشقية!...

توقفتْ.

– تعالي واسمعي كلمتي الأخيرة!

– لِمَ تناديني يا عدو الله؟ لا تُسمِّني ابنتك! ليس بيننا أيّ قرابة. ماذا تريد مني بحقّ أمي الشقية؟

– كاترينا! إنّ نهايتي قريبة. أعلم أن زوجك يريد أن يربطني بذيل فرس ويطلقها في البرية، أو لعله يفكّر في طريقة أشدّ فظاعةً لإعدامي...

– وهل في الدنيا إعدام يعادل خطاياك. لن يشفع لك أحد.

– ليس الإعدام ما يخيفني يا كاترينا، بل عذاب الآخرة... إنك طاهرة بريئة من كل ذنب يا كاترينا، ولسوف تحلّق روحك حول عرش الله، في حين أن روح والدك العاصي سوف تتلظى في النار الأبدية، التي ستضطرم أكثر فأكثر: لن يرشّها أحد بقطرة ندى، ولن تهبّ عليها أيّ نسمة...

قالت كاترينا: "لا سلطة لي للتخفيف من عذابك ذاك" وأولته ظهرها.

– مهلاً يا كاترينا، بقيت لي كلمة واحدة: إنك قادرة على إنقاذ روحي. إنك لا تعرفين بعد مدى سعة رحمة الله وكرمه. ألم تسمعي قصة بولس الرسول، وكم كان إنساناً كثير الخطايا، ثم، بعد أن تاب واستغفر، صار قدّيساً.

سألت كاترينا: وماذا يمكنني أن أفعل كي أنقذ روحك؟ أيمكنني، أنا المرأة الضعيفة، أن أفكّر في ذلك!

– لو أنني تمكّنت من الخروج من هنا لنبذت كل شيء. سأتوب، وألوذ بكهف، وألقي على جسدي قميصاً من الشعر الخشن، وأصلّي لله ليلاً نهاراً، ولن أصوم وحسب، بل ولن أضع حتى السمك في

فمي، ولن أفترش فراشاً حين أضطجع للنوم، وسأقضي الوقت كله في الصلاة. وإذا شاءت رحمة الله ألاّ تغفر من ذنوبي ولو جزءاً من مئة، فسأدفن نفسي حتى العنق في الأرض أو أدفن نفسي في جدارٍ حجري، وأمتنع عن الطعام والشراب حتى أموت، وأهب الرهبان كل ما أملك لكي يقيموا لي قدّاساً ويصلّوا عليّ أربعين نهاراً وأربعين ليلة.

طفقت كاترينا تفكّر.

– حتى لو أخرجتك فإنني لا أستطيع فكّ أغلالك.

– أنا لا أخشى الأغلال. أتظنين أنهم قد قيّدوا يدَي وقدَمي؟ كلا، فقد ألقيت على عيونهم غشاوة وبدلاً من يدَي مددتُ لهم قطعة خشب. هاكِ، انظري، لا تقيّدني أي قيود!

ثم خرج إلى وسط القبو وقال:

– وما كنت لأخشى هذه الجدران أيضاً ولكنتُ نفذت من خلالها، ولكن زوجك لا يعرف حقيقة هذه الجدران. لقد بناها ناسكٌ قدّيس، وما من قوة شريرة قادرة على إخراج سجين من هنا إلا إذا فتح القفل بالمفتاح نفسه الذي كان القدّيس يقفل به صومعته. ولسوف أبني لنفسي، أنا الخاطئ الذي لم يُسمَع له مثيل بين الخاطئين، صومعةً مثلها حين أخرج إلى الحرية.

قالت كاترينا واقفةً أمام الباب: اسمع، سأطلق سراحك؛ ولكن ماذا لو كذبت عليّ وبدلاً من أن تتوب تآخيت والشيطان ثانيةً؟

– كلا يا كاترينا، فلم يتبقَّ لي الكثير لأعيشه، فأجلي قريب حتى من دون الإعدام. هل تظنين أنني سأسلم نفسي بنفسي إلى العذاب الأبدي؟

دوّت الأقفال.

قال الساحر: "وداعاً! وليحفظك الله الرحيم يا بنيتي!" وقبّلها.

قالت كاترينا: "لا تلمسني أيها الآثم الزنيم، هيّا اذهب بسرعة!"، لكنه كان قد اختفى.

قالت كاترينا في فزع وراحت تنظر إلى الجدران بغرابة: "لقد أخليت سبيله، فماذا أقول لزوجي الآن؟ لقد هلكت. لم يبقَ لي إلاّ أن أدفن نفسي حية!" وأخذت تنتحب وكادت أن تسقط على الجذمور الذي كان السجين يجلس عليه، وقالت بصوتٍ خافت: "لكنني أنقذت نفساً، قمتُ بعملٍ يرضي الله. ولكن زوجي... إنها أول مرة أخدعه فيها. آه، كم أنا خائفة، وكم يصعب عليّ أن أكذب أمامه. ثمة شخص قادم! إنه هو، زوجي!" وصرخت صرخةً يائسة وهوت على الأرض فاقدة الوعي.

- ٧ -

"إنها أنا يا ابنتي العزيزة! إنها أنا يا قلبي!" سمعت كاترينا، وهي تثوب إلى رشدها، ورأت أمامها خادمتها العجوز. انحنت عليها المرأة، وبدا أنها تهمس لها بكلامٍ ما، وهي تمدّ فوقها يدها العجفاء وترشّ عليها ماءً بارداً.

سألت كاترينا وهي تنهض وتتلفت حولها: أين أنا؟ أمامي يصخب الدنيبر، ومن خلفي التلال... إلى أين أخذتِني يا امرأة؟

- لم آخذكِ، بل أخرجتك على ذراعي من القبو الخانق، ثم أقفلته بالمفتاح حتى لا يسيء إليك السيد دانيلو.

قالت كاترينا وهي تنظر إلى حزامها: وأين المفتاح، فإني لا أراه؟

- لقد أخذه زوجك ليلقي نظرة على الساحر يا بنيتي.

صاحت كاترينا: يلقي نظرة؟... لقد هلكت!

- فليحفظنا الله من هذا البلاء يا ابنتي! فقط لوذي بالصمت يا سيدتي الصغيرة، إذ لا علم لأحد بشيء!

قال دانيلو متوجهاً نحو زوجته: "لقد فرّ عدو المسيح الملعون! أتسمعين يا كاترينا؟ لقد هرب!". كانت عيناه تقدحان شرراً، وسيفه

يقعقع على خصره.

جمدت زوجته حَدَّ الموت، وقالت وهي ترتعد: هل ثمة من أطلق سراحه يا زوجي الحبيب؟

– أجل، هناك من أطلق سراحه؛ إنه الشيطان من أطلق سراحه. انظري، ثمة قرمة شجرة مصفّدة بالحديد مكانه. شاء الله ألاّ يخشى الشيطان براثن القوزاق! لو خطر لي مجرّد خاطر أنّ واحداً من رجالي قد قام بذلك... لما وجدت وسيلة أعدمه بها!

– وماذا لو كنتُ أنا؟... قالت كاترينا لا شعورياً، وإذ شعرت بالهلع لم تكمل.

– لو خطر لكِ ذلك، حينها ما كنتِ زوجتي، ولوضعتكِ في كيس وربطته وألقيت بكِ في عرض الدنيبر!...

تسارعت أنفاس كاترينا، وشعرت أن شعر رأسها يقف.

- ٨ -

كان البولنديون قد تجمّعوا في حانةٍ على طريقٍ حدودية، ومضى عليهم يومان وهم يحتفلون. ولم يكن عدد الأوباش بينهم قليلاً. لا شك أنهم قد اجتمعوا هنا لشنّ غارةٍ ما؛ فقد كان في حوزتهم بنادق، والمهاميز تجلجل، والسيوف تصلصل. كان النبلاء يمرحون ويتفاخرون، ويتحدثون عن مآثرهم التي لا مثيل لها، ويسخرون من الأرثوذوكس، ويسمّون الأوكرانيين بأنهم عبيدهم، ويفتلون شواربهم بخيلاء، ويرتمون على الأرائك شامخين برؤوسهم في غطرسة. وكان يرافقهم قسّ، ولكنه لم يكن يختلف عنهم في شيء؛ وحتى مظهره لم يكن يشي بأنه قسّ مسيحي؛ فقد كان يشرب ويلهو معهم ويفوه بلسانه النجس بأقوال شائنة. ولم يكن الخدم والحشم يتأخرون عن أسيادهم في شيء؛ فقد كانوا يتبخترون، مشمّرين أردان ستراتهم المهلهلة، وكأنهم يعملون صالحاً، ويلعبون الورق، ويرمي واحدهم الورق في وجه الآخر. وكانوا قد انتقوا لأنفسهم زوجات غيرهم. صراخ، شجار!... النبلاء يحتدّون ويمرحون ويقومون بشتى الألاعيب: يمسكون بلحية صاحب الحانة اليهودي، ويرسمون بالطلاء صليباً

على جبينه الدنس؛ يطلقون عيارات فارغة على النساء، ويرقصون رقصة "الكراكوفياك"[١] مع قسيسهم الفاجر. لم تشهد الأرض الروسية من قبل فجوراً كهذا حتى في أيام التتر. من الجليّ أنّ الله قدّر لها أن تعاني هذا الخزي والعار جرّاء ما اقترفت من آثام! وكان يُسمَع وسط الهرج والمرج كلامٌ عن عزبة دانيلو الواقعة وراء الدنيبر، وعن زوجته الحسناء... ليس لخير اجتمعت هذه العصابة!

---

١ رقصة شعبية بولندية سريعة الإيقاع. (م)

- ٩ -

يجلس دانيلو إلى الطاولة في مخدعه، مستنداً إلى مرفقه، ويفكّر. وعلى دكة الموقد تجلس كاترينا وهي تغني.

قال دانيلو: بي حزنٌ، لأمرٍ ما، يا زوجتي، وأشعر بوجعٍ في رأسي وألم في قلبي. أشعر بوهنٍ في جسمي، ويبدو أن منيّتي تتجوّل في مكانٍ ما غير بعيد.

فكّرت كاترينا: "أوه يا زوجي الذي لم تقع عين على مثيلٍ له! اسند رأسك عليّ! ما لك تستدعي هذه الأفكار السود؟"، لكنها لم تجرؤ على قوله، فقد كان يحزّ في نفسها، هي الآثمة، تلقّي مداعبات زوجها.

قال دانيلو: استمعي إليّ يا زوجتي! لا تتخلي عن ابننا بعد موتي، وليحرمك الله السعادة في الدنيا والآخرة إن فعلتِ. فلسوف تعاني عظامي المتفسّخة في الأرض الرطبة، وستعاني روحي أكثر.

- ما هذا الذي تقوله يا زوجي! ألم تكن أنت من يسخر منّا، نحن الزوجات الضعيفات؟ وها أنت نفسك الآن تتحدث كامرأةٍ ضعيفة. ما زال عليك أن تعيش طويلاً.

– كلا يا كاترينا، فنفسي تشعر بدنوّ أجلي. الحياة تزداد حزناً وكآبةً، وأمامنا أيامٌ تنذر بالسوء. آه، إنني أذكر، أذكر تلك السنوات؛ هيهات أن تعود! كان كوناشيفيتش العجوز[١]، فخر جيشنا ومجده، لا يزال على قيد الحياة! إنّ الألوية القوزاقية تمرّ أمام عيني كأنما الأمر يحدث الآن! لقد كان عهداً ذهبياً يا كاترينا! كان القائد العجوز يعتلي صهوة جواد كميت، والصولجان يتألق في يده، ومن حوله حرّاسه، ويسير على جانبيه بحرٌ أحمر من الزابوروجيين. ما إن يبدأ القائد بالكلام حتى يبدو الجميع كأنما سُمّروا في الأرض. كان الكهل يبكي ما إن يذكر لنا المآثر الماضية وحومات الوغى. آه، يا كاترينا، لو تعلمين كيف كنا نقاتل الترك في تلك الأيام! ما زال أثر جرح في رأسي ملحوظاً حتى الآن. نفذت في أربعة مواضع من جسمي أربع رصاصات، ولم يندمل أي جرح منها تماماً. ويا لكميات الذهب التي غنمناها آنذاك! كان القوزاق يغرفون الأحجار الكريمة بقبّعاتهم. ويا لتلك الجياد! آه يا كاترينا لو كنت تدرين أي جياد سقناها أمامنا! أوخ، لم أعد قادراً على القتال على ذاك النحو! لا أبدو طاعناً في السنّ، وما زال جسمي قوياً، لكن السيف يقع من يدَيّ، وأعيش متبطّلاً، وأنا نفسي لا أعرف لِمَ أعيش. الفوضى تعمّ أوكرانيا: قادة الأفواج والكتائب يتشاحنون ويتعاركون كالكلاب فيما بينهم، وما من رئيس مُهاب الجانب فوق رؤوسهم، واستبدل نبلاؤنا بعاداتهم عادات البولنديين وأخذوا عنهم المكر والدهاء... لقد باعوا أرواحهم واعتنقوا عقيدة "الأُونيات"، وصار اليهود يضطهدون الفقراء. آه لتلك الأيام! سقى الله تلك الأيام!

---

١ بيوتر كوناشيفيتش: قائد قوزاقي ذاع صيته عند انتصاره على الأتراك. توفي عام ١٦٢٢. (م)

أين ولّت سنين عمري؟... اذهب إلى القبو يا فتى وائتني بإبريق من نبيذ العسل! سأشرب نخب الماضي والسنوات البعيدة!

دخل ستيتسكو البيت وقال: بِمَ نستقبل ضيوفنا يا سيدي؟ البولنديون قادمون من جهة المرج.

نهض دانيلو واقفاً وقال: إنني أعلم سبب مجيئهم. أسرجوا الخيول يا خدمي الأوفياء، وارتدوا الدروع، وامتشقوا السيوف، ولا تنسوا أن تأخذوا معكم دقيق الشوفان الرصاصي[1]، فإن الواجب يقتضي أن نكرم ضيوفنا!

لكن لم يلحق القوزاق أن يمتطوا خيولهم ويحشوا بنادقهم حتى كان البولنديون يغطّون التل كما تغطي أوراق الشجر المتساقطة الأرض في الخريف.

قال دانيلو وهو يرنو إلى النبلاء البولنديين البدناء المتمايلين بفخامة على جيادهم ذات السروج الذهبية:

– إيه، ثمة من نواجهه هنا! يبدو أن علينا مرةً أخرى أن نلهو لأجل المجد! هيّا ابتهجي، أيتها الروح القوزاقية، مرةً أخيرة! ارمحوا أيها الفتيان، فقد أقبل عيدنا!

وبدأ اللهو على التلال، وأُولمتْ الوليمة: السيوف تمرح، والرصاص يتطاير، وتصهل الخيول وتضرب الأرض بقوائمها. الصراخ يذهب بالعقول، والدخان يعمي العيون، وكلّما أزّتْ رصاصة سقط فارسٌ مقدام عن حصانه، وكلّما قعقع سيف تدحرج رأسٌ على الأرض مغمغماً بكلمات غير مترابطة.

---

١ يقصد "البارود"، ساخراً. (م)

كانت تلوح وسط الحشود قمة قبعة دانيلو القوزاقية الحمراء، ويبرق سريعاً في العيون حزامه الذهبي على سترته الزرقاء، وعُرف حصانه الأدهم يخفق كالإعصار. كان دانيلو يمرق وسط الحشود في خفة الطائر، فيلوح هنا وهناك، صارخاً وملوِّحاً بسيفه الدمشقي مُقطِّعاً الأكتاف يمنةً ويسرة. قَطِّع أيها القوزاقي! امرح أيها القوزاقي! أطفئ نار قلبك الشجاع؛ ولكن لا تلتفت إلى السروج والسترات الذهبية، طأ الذهب والأحجار الكريمة بقدميك! إطعن أيها القوزاقي! امرح أيها القوزاقي! ولكن انظر خلفك، فقد شرع البولنديون الأنجاس بحرق الأكواخ وسَوق الماشية المرتاعة أمامهم. وعاد دانيلو إلى العزبة كالإعصار، وها هي ذؤابة قبعته الحمراء تظهر وتختفي قرب الأكواخ، وأخذ عديد المقاتلين من حوله يقلّ.

اقتتل البولنديون والقوزاق ساعةً بعد أخرى، ولم يبقَ الكثير لا من هؤلاء ولا من أولئك. لكن دانيلو لا يكلّ: كان يطعن برمحه الطويل من فوق سرجه، ويطأ بجواده الجسور المشاة. كان الفناء قد بدأ يتنظّف من البولنديين الذين بدأوا يفرّون، وكان القوزاق قد شرعوا ينزعون عن القتلى ستراتهم الذهبية وأعتدة الخيول الفاخرة، وكان دانيلو يتهيّأ لمطاردة الفارين، وتلفّت حوله لاستدعاء رجاله... لكنه أخذ كله يغلي من الغضب؛ فقد رأى والد كاترينا، وكان يقف فوق التل ويصوّب بندقيته نحوه. حثّ دانيلو حصانه نحوه مباشرةً... إنك تذهب إلى حتفك أيها القوزاقي!... دوّت البندقية، وتوارى الساحر خلف التل. إلا أنّ ستيتسكو المخلص تمكّن من رؤية الملابس الحمراء والقبعة العجيبة. ترنّح القوزاقي وهوى على الأرض. اندفع ستيتسكو المخلص نحو سيده: كان سيده ممدَّداً على الأرض، وعيناه

الصافيتان مغمضتين، والدم القاني يتدفق من صدره. لكن يبدو أنه شعر بوجود خادمه الأمين قربه ففتح جفونه ببطء ولمعت عيناه: "وداعاً يا ستيتسكو! قل لكاترينا ألاّ تتخلّى عن ابننا! وأنتم أيضاً، يا رجالي المخلصين، لا تتخلّوا عنه!" وهمد. صعدت الروح القوزاقية من الجسد النبيل، وازرقّت شفتاه. لقد نام القوزاقي نوماً أبدياً.

انتحب الخادم الأمين ولوّح بيده لكاترينا: "تعالي يا سيدتي، تعالي، فقد شرب سيدك الكأس حتى النهاية، وها هو يرقد على الأرض الرطبة ثملاً، ولن يفيق من السكر لأمدٍ طويل!".

ضربت كاترينا كفّاً بكفّ وارتمت كحزمةٍ من القش على الجثة. "أأنت، يا زوجي، من يرقد هنا مغمض العينين؟ هيا انهض يا صقري الذي لا مثيل له ومدّ يدك! انهض! ألقِ ولو نظرة واحدة على كاترينتك، حرّك شفتيك، قل ولو كلمة واحدة!... لكنك صامت، صامت يا زوجي العزيز! لقد ازرقّ لونك كلون البحر الأسود. قلبك لا ينبض! لِمَ أنت بارد هكذا يا سيدي؟ واضح أن دموعي الحارة عاجزة عن تدفئتك! يبدو أن بكائي غير عالٍ لذا فهو لا يوقظك! من سيقود كتائبك الآن؟ من سينطلق الآن على حصانك الأدهم الكميت، ومن سيهتف عالياً ويلوّح بسيفه في مقدمة القوزاق؟ أيها القوزاق، أيها القوزاق! أين شرفكم ومجدكم؟ ها هو شرفكم ومجدكم يرقد مغمض العينين على الأرض الرطبة. ادفنوني أنا أيضاً، ادفنوني معه! أهيلوا التراب على عينَي! ضعوا ألواح الإسفندان على صدري الأبيض! فلم أعد بحاجة إلى حسني وجمالي!".

بكت كاترينا وهيمن عليها الحزن، وفي البعيد غطّى الغبار الأفق: كان النقيب العجوز غوروبتس قادماً لتقديم المساعدة.

- ١٠ -

نهر الدنيبر ساحر في الطقس الهادئ؛ عندما تنساب مياهه بحرية وهدوء خلال الغابات والجبال فإنه يكاد لا يتحرك، وحين تنظر إليه لا تدري إن كان خضمّه العظيم يجري أم لا، ويُخيّل إليك أن مياهه من البللور، ويبدو هذا البساط الزجاجي الأزرق، الذي لا حدّ لاتساعه ولا تُدرك له نهاية، يشقّ طريقه في عالم أخضر. وحينذاك يحلو للشمس اللافحة أن تطلّ من عليائها وتُغطِّسَ أشعتها في برودة المياه البللورية، ويطيب للأجمات على ضفتي النهر أن تنعكس بألق في الماء، وتتزاحم الأشجار الكثيفة الأوراق مع الأزهار البرية منحدرةً إلى النهر، تحنو عليه ولا تشبع من النظر إليه ولا تملّ من صورتها المشرقة المنعكسة فيه، وتبتسم له وتحييه بإيماءةٍ من أغصانها. إلا أنها لا تجرؤ على النظر إلى عرض الدنيبر: لا شيء يجرؤ على ذلك سوى الشمس والسماء الزرقاء، ولا تستطيع بلوغ منتصف الدنيبر إلا قلّة نادرة من الطيور. نهرٌ مهيب لا مثيل له في العالم. الدنيبر ساحر حتى في ليالي الصيف الدافئة، حين يخلد الجميع إلى النوم - الإنسان والحيوان والطير؛ ولا يبقى إلاّ الله وحده يُشرف بجلاله على السماء والأرض ويهزّ عباءته

في مهابة وعظمة، فتتساقط النجوم من العباءة وتتألق ويسطع نورها على العالم، وتنعكس جميعاً معاً في الدنيبر، فيحتضنها كلها في حضنه المظلم، ولا تُفلت منه أي نجمة؛ إلا إذا انطفأت في السماء. الغابات السود، الممتلئة إلى آخرها بالغربان النائمة، والجبال المنشقّة شُعباً تحاول جاهدةً على كرّ الأيام أن تحجبه ولو بظلالها المديدة؛ لكن هيهات! ما من شيء في العالم يستطيع أن يحجب الدنيبر. إنه شديد الزرقة، وينساب بسلاسة، ويُرى، في الليل وفي النهار، من بعيد، إلى حيث يبلغ نظر الإنسان. منكمشاً ومنضغطاً أكثر إلى ضفتيه من برودة الليل، يتّخذ لنفسه مسيلاً فضياً، ويتوهّج كأنه نصل سيفٍ دمشقي، ويغفو، هو الأزرق، من جديد. والدنيبر ساحر حتى وهو غافٍ، وليس في العالم كله نهرٌ مثيلٌ له! أما حين تجري سُحبٌ زرق كالجبال في السماء، فإن الغابة السوداء تتمايل حتى الجذور، وترتعش أشجار السنديان، ويضيء البرق المتكسّر وسط الغيوم العالمَ برمّته – عند ذاك يكون الدنيبر مهولاً! تهدر كثبانه المائية وهي تتحطّم مصطدمةً بالجبال، ثم تتقهقر وامضةً وهي تئنّ، وتجري بعيداً. على هذا النحو تماماً تتحطّم أم القوزاقي العجوز حين تودّع ابنها الذاهب إلى الحرب. هو يمضي لاهياً متهوّراً على حصانه الكميت، متخصّراً ومُميلاً قبّعته برجولة، بينما هي تركض خلفه منتحبةً، تتعلق بركابه وتمسك بلجام حصانه، معتصرةً يديها وذارفةً دموعاً حرّى.

كانت جذامير الأشجار والأحجار المحترقة على الضفة النائية تلوح خَلَلَ الأمواج الصاخبة وحشيةً وغريبة. وكان القارب الراسي يعلو ويهبط مرتطماً بالضفة. تُرى مَنْ مِنْ القوزاق يجرؤ على التنزّه في الدنيبر العجوز وهو في ذروة هيجانه؟ يبدو أنه لا يدري أنه يبتلع

الناس كأنهم ذباب.

رسا القارب، ونزل منه الساحر. لم يكن مسروراً؛ فقد أزعجه المأتم الذي أقامه القوزاق لسيدهم القتيل. ولم يكن الثمن الذي دفعه البولنديون قليلاً، فقد تمّ تمزيق أربعاً وأربعين سيداً نبيلاً مع ستراتهم وأعتدة خيولهم وثلاثاً وثلاثين من أتباعهم إرباً إرباً، وأُسر البقية مع جيادهم ليتم بيعهم إلى التتر.

نزل الساحر الدرجات الحجرية، بين الجذامير المحترقة، إلى أسفل، حيث مسكنه المحفور عميقاً في الأرض. دخل بهدوء، محاذراً أن يصرّ الباب، ووضع على الطاولة المغطاة بسماط قدراً وراح يلقي فيه بيديه الطويلتين أعشاباً غريبة، ثم تناول إبريقاً مصنوعاً من خشبٍ عجيب وغرف منه الماء وأخذ يسكبه وهو يحرك شفتيه متمتماً بتعاويذ ما. انبعث ضوءٌ وردي في المسكن، وحينذاك كان من المخيف النظر إلى وجهه، فقد بدا أحمرَ دموياً، إلا من تجاعيد سود عميقة؛ أما عيناه فكانتا متقدتين كأنهما من النار. الآثم الزنيم! لقد كلّل الشيب لحيته منذ زمنٍ بعيد، ووجهه مخدّدٌ بالتجاعيد، وأعجفَ كلّه، ومع ذلك ما زال ممعناً في عصيانه لله. انبعثت سحابة بيضاء في الكوخ، ولاح شيء أشبه بالسعادة في وجه الساحر. ولكن ما باله يقف فجأةً بلا حراك، فاغر الفم، لا يجرؤ على الإتيان بحركة، ولِمَ وقف شعر رأسه؟ لقد أضاء أمامه، وسط السحابة، وجهٌ غريب حلّ ضيفاً عليه بلا دعوة ولا استئذان، وأخذ الوجه يتّضح شيئاً فشيئاً ويتفرّس فيه. كانت ملامحه كلها، حاجباه وعيناه وشفتاه، غير مألوفة له. لم يسبق له أبداً أن رآه في حياته. وكان الوجه مخيفاً جداً، وتملّك الساحر رعبٌ لا يقاوَم، وظلّ الوجه الشيطاني يحدّق فيه بلا حراك من

خلال السحابة. ثم انقشعت السحابة، وازدادت ملامح الوجه الغريب وضوحاً، والعينان الحادتان لم تكونا تحولان عنه. ابيضّ الساحر كلّه كالقطن، وصرخ بصوتٍ وحشي ليس صوته، وقلب القدر... واختفى كل شيء.

- ١١ -

أخذ النقيب الكهل غوروبيتس يقول:

- هدّئي من روعكِ يا أختي الحبيبة، فقلّما تصدق الأحلام.

وقالت خطيبة ابنه الشابة:

- استلقِ يا أختاه! سوف أستدعي عرّافةً عجوز لا تصمد أمامها أي قوة شريرة. ستلقي عليك تعويذةً تحميكِ.

وقال ابنه ممسكاً بسيفه:

- لا تخشي شيئاً. لن يسيء إليك أحد.

رنت كاترينا إلى الجميع بعينين غائمتين كدرتين، ولم تجد ما تقول. "أنا من سبّب الهلاك لنفسه، فأنا من أطلق سراحه". ثم قالت أخيراً:

- إنه لا يدعني وشأني! وها قد مرّت عشرة أيام وأنا عندكم في كييف، ورغم ذلك لم ينقص حزني ولو قطرة واحدة. ظننت أنني أستطيع أن أربّي ابني في صمت على الثأر لأبيه... لكنه ظهر لي في المنام مخيفاً شديد الفظاعة! وقاكم الله، أنتم أيضاً، شرّ رؤيته! ما زال قلبي يدقّ حتى الآن. صاح قائلاً: "سوف أُقطّع ابنك إرباً إرباً يا كاترينا

إن لم تتزوجيني!...»، وارتمت على المهد وهي تنتحب، فمدّ الطفل الفَزِع يديه الصغيرتين وبكى.

كان ابن النقيب يغلي ويضطرم من الغيظ وهو يسمع هذه الكلمات. وغوروبيتس نفسه ثارت ثائرته، وقال:

- فليجرّب عدو المسيح الملعون هذا أن يأتي إلى هنا. لسوف يرى هل ثمة قوة في يدي القوزاقي.

ثم تابع يقول رافعاً عينيه الثاقبتين إلى أعلى:

- يعلم الله أنني هرعت لنجدة أخي دانيلو، ولكنها مشيئة الله! لقد رقد الآن في الفراش البارد الذي رقد فيه الكثير من الشعب القوزاقي. ولكن ألم يكن مأتمه مهيباً؟ وهل تركنا بولندياً واحداً على قيد الحياة؟ اطمئني بالاً يا بنيتي، فلن يجرؤ أحد على الإساءة إليك ما دمنا أنا وابني على قيد الحياة.

بعد أن أنهى كلامه اقترب النقيب العجوز من المهد، وحين رأى الطفل غليونه الأحمر ذا الإطار الفضي وكيس القادح المتلألأ المتدليين من رقبته بسيرٍ من الجلد مدّ يديه الصغيرتين وضحك، فنزع النقيب العجوز الغليون من رقبته وأعطاه إيّاه وهو يقول:

- الولد سرُّ أبيه؛ ما زال في المهد وها هو يفكّر في تدخين الغليون.

تنهدت كاترينا بهدوء وراحت تهزّ المهد. اتفقوا على قضاء الليلة، وسرعان ما غفا الجميع. كاترينا أيضاً غفت.

كان السكون مخيماً في الفناء وفي الدار؛ القوزاق القائمون بالحراسة فقط لم يناموا. فجأةً صرخت كاترينا واستيقظت، واستيقظ الجميع في إثرها، وصرخت: "لقد قتله، لقد ذبحه!" واندفعت إلى المهد.

احتشد الجميع حول المهد، وجمدوا في أماكنهم من الهلع حين وجدوا الطفل راقداً فيه وقد فارق الحياة. لم ينبس أيٌّ منهم بكلمة، إذ لم يدروا ماذا يقولون عن هذه الجريمة الفظيعة التي لم يُسمَع بمثلها قط.

- ١٢ -

بعيداً عن أقاصي أوكرانيا، تقطع سلسلة من الجبال الشاهقة بولندة، مارّةً بمدينة ليمبرغ العامرة بالسكان، جبلاً تلو آخر، متناثرةً ذات اليمين وذات الشمال، كسلاسل حجرية تحيط بالأرض بسورٍ حجريٍّ ثخين لكي لا يمتصّها البحر الصاخب المضطرب، وتتوغل السلاسل الحجرية في فَلاخيا[١] وإقليم ترانسلفانيا، وتنتصب كحدوةٍ هائلة بين الشعبين الغاليسي والهنغاري. لا مثيل لتلك الجبال في بلادنا. لا تجرؤ العين على التطلّع إليها، ولم تطأ قدم إنسان قمم بعضٍ منها. ومنظرها أيضاً عجيب وساحر: لعلّ بحراً صاخباً أفلت في أثناء العاصفة من شواطئه الفسيحة وقذف بأمواجه العاتية عالياً فتحجرّت وظلّت معلقةً في الجوّ بلا حراك! أو لعل سحباً كثيفة انشقّت عن السماء وتموضعت على الأرض! إذ لها اللون الرمادي نفسه، وقممها البيض تومض وتبرق في ضوء الشمس. وقد يسمع المرء كلمات روسية حتى جبال الكاربات؛ وتتردّد في مكانٍ ما وراء الجبال كلمات تبدو شبيهة

١ فَلاخيا: إقليم يقع في رومانيا الحالية، وتُلفظ كذلك "فلاتشيا". وكانت فلاخيا وترانسلفانيا فيما مضى ضمن أراضي مملكة المجر. (م)

بكلماتنا. أما هناك فدينهم غير ديننا ولغتهم غير لغتنا. هناك يعيش الشعب الهنغاري الغفير، وهم يركبون الخيول ويقاتلون ويشربون ليس أسوأ من القوزاق، ولا يبخلون بالتشرفونتسات[1] يخرجونها من جيوبهم لشراء سروج خيولهم والقفاطين الثمينة. وتوجد بين الجبال بحيرات عظيمة مترامية الأطراف، وهي ساكنة كالزجاج وتعكس، كالمرآة، قمم الجبال العارية وسفوحها الخضراء.

لكن من هذا الذي يخبّ على حصانه الكميت وسط الليل سواء تلألأت النجوم أم خبت؟ ومن يكون هذا المارد العملاق الذي يرمح أسفل الجبال وفوق البحيرات وقد انعكست صورته وصورة حصانه الجبار على صفحه المياه الهاجعة وألقى ظلّه المهول اللامتناهي على الجبال، ودرعه الصقيل يلمع، وقد أسند رمحاً على كتفه، وسيفه يصلصل إلى جانب سرج حصانه، وخوذته مائلة على جبينه، ويلوح شاربه الأسود، وعيناه مغمضتان ورموشه مسدلة؟... إنه يغفو؛ وكان، وهو مستسلمٌ للنعاس، يمسك بعنان حصانه. وكان يجلس خلفه، على صهوة الحصان نفسه، غلام، وكان نائماً أيضاً ويتمسّك بالعملاق. ترى من يكون هذا الفارس، وإلى أين يذهب، ولماذا؟ لا ندري. منذ أيام وهو يعبر هذه الجبال. حين ينبلج الصبح، وتشرق الشمس، يغيب عن الأنظار؛ إلا أنّ الجبليين كانوا من حين إلى آخر يلحظون ظلاً ممدوداً يظهر ويختفي على الجبال، رغم أن السماء صافية خالية من السحب. وما إن يُرخي الليل سدوله حتى يظهر من جديد، فتنعكس صورته في البحيرات، يرمح خلفه ظلّه الراعش. لقد

---

١ تشرفونتس: ورقة مالية تعادل ١٠ روبلات. (م)

اجتاز جبالاً كثيرة، وكان الآن يعبر جبل كريفان. وهذا الجبل لا يدانيه علوّاً أي جبل من جبال الكاربات، وكان يشمخ فوق الجبال الأخرى كالإمبراطور. هنا توقف الحصان والفارس، الذي أغرق أكثر في النوم وغطّته السحب الهابطة.

- ١٣ -

"هسس... صه يا امرأة! كفّي عن الدقّ، فقد غفا ولدي. ظلّ وقتاً طويلاً يبكي، وهو نائم الآن. إنني ذاهبة إلى الغابة أيتها المربية! ما لكِ ترمقينني على هذا النحو؟ إنكِ مخيفة: تبرز من عينيك كلاّبتان من الحديد... اوخ، كم هما طويلتان! وتتوهجان كالنار! لا شك أنكِ جنيّة! اوه، إن كنتِ جنيّة فاغربي من هنا! فلسوف تسرقين ابني. كم هو غبي هذا النقيب، فهو يظن أنني مسرورة بالعيش في كييف؛ كلا، فزوجي وابني هنا، ثم من سيعتني بالبيت؟ لقد غادرت بهدوء بحيث لم تلحظ القطة، ولا الكلب، خروجي. أتريدين، أيتها المربيّة، أن تعودي شابة؟ هذا في منتهى السهولة: ما عليكِ إلاّ أن ترقصي؛ انظري كيف أرقص..." وما إن أتمّت كاترينا كلامها المبلبل هذا حتى راحت ترقص، وهي تتلفت في الاتجاهات كلها مضطربة العقل، واضعةً ذراعيها على خصرها. كانت تضرب الأرض بقدميها وهي تزعق؛ وكان كعباها الفضيان يقرقعان بلا إيقاع ولا نغم، وكانت ضفيرتاها غير المعقودتين تتأرجحان على عنقها الأبيض، وأخذت تحلّق كالطائر، بلا توقف، وهي تلوّح بيديها وتميل برأسها، حتى

خارت قواها وبدت أنها إما أن تهوي على الأرض أو تحلّق مغادرةً هذا العالم.

وقفت المربية العجوز حزينةً، وسال الدمع في تجاعيد وجهها العميقة، وجثم حجرٌ ثقيل على قلوب الشبان المخلصين وهم يرنون إلى سيدتهم. كانت قواها قد خارت تماماً، وكانت تدبدب بقدميها بوهن في الموضع نفسه من الأرض، ظانةً أنها ترقص رقصة "القُمرية"، ثم توقفت أخيراً وقالت: "عندي عِقْد أيها الشبان، أما أنتم فلا!..." ثم استلّت خنجراً تركياً من حزامها وصرخت: "أين زوجي؟ آه، إنها ليست السكين المناسبة"، وعندئذ انهمرت الدموع من عينيها ولاح الغمّ والحسرة على وجهها. "إن قلَب أبي يكمن بعيداً. وهذه السكين لن تبلغه، فقلبه قُدَّ من الحديد؛ طرقته ساحرة في نار الجحيم. ما له أبي لا يأتي؟ ألا يعلم أنّ أوان طعنه قد آن؟ يبدو أنه يريدني أن أذهب إليه بنفسي..."، وضحكت ضحكةً غريبة دون أن تنهي كلامها. "لقد خطرت لي قصة مسلّية: تذكّرت كيف دُفن زوجي، فقد دُفن حيّاً كما تعلمون... يا للضحك الذي استولى عليَّ!... اسمعوا، اسمعوا!" وبدلاً من الكلام راحت تغنّي:

عربةٌ مائلة تجري
يرقد فيها قوزاقي
مُصاباً برصاصة ومطعوناً
في يده اليمنى رمح
يسيل الدم من الرمح؛
يسيل كنهرٍ متدفق.

على الجدول تنتصب شجرة دلب
على الشجرة ينعب غراب.
الأم تبكي القوزاقي،
لا تبكي أيتها الأم ولا تحزني!
فقد تزوج ابنكِ
اتّخذ فتاةً كريمة المحتد زوجةً له
ويقيم في العراء
بلا أبواب ولا نوافذ.
ها قد بلغت الأغنية نهايتها
ورقصت سمكة مع سَرَطان...
ومن لا يحبني، فلتُصَب أمه بالحمّى![1]

على هذا النحو اختلطت الأغاني لديها. مضى يوم أو يومان وهي تعيش في بيتها ولا تريد أن تسمع شيئاً عن كييف، ولا تصلّي، وتهرب من الناس، وتتجول على غير هدى من الصباح إلى المساء في أدغال السنديان المظلمة. تخدش الأغصان الحادة وجهها وكتفيها؛ تُشعِّثُ الريح شعرها المرسل؛ تخشخش أوراق الأشجار المتساقطة منذ زمنٍ بعيد تحت قدميها – لكنها لا تحفل بشيء. وعند الغروب، وقبل أنْ تظهر النجوم ويضيء القمر، حيث يغدو التجوّل في الغابة مخيفاً؛ إذ يتسلّق الأولاد غير المعمَّدين الأشجار ويتعلّقون بأغصانها، وينوحون، ويضحكون، ويتدحرجون مثل كُبَبِ الخيطان في الدروب وفي حقل

١ يبدو أنهم آنذاك كانوا يختتمون الحكاية بهذه العبارة، كما يقال عندنا: "توته توته خلصت الحدوته". (م)

القرّيص الفسيح؛ وتتقافز من أمواج الدنيبر أفواج العذراوات اللواتي أهلكنَ أنفسهن، فتنساب شعورهن من رؤوسهن الخضر على أكتفاهن، ويقطر الماء، مخرخراً برنين، من شعورهن الطويلة على الأرض، وتتلألأ عذراءٌ خَلَلَ الماء كأنما من خلال قميصٍ زجاجيٍّ شفاف، شفتاها تفترّان عن ابتسامة فاتنة، وجنتاها مضطرمتان، وعيناها تخلبان الألباب... يُخيّل للمرء أنها ستهيم به عشقاً، وستقبّله... اهرب أيها المسيحي! فشفتاها جليد، وفراشها المياه الباردة، ولسوف تداعبك ثمّ تسحبك إلى النهر. كاترينا لا تنظر إلى أحد، المجنونةُ لا تخشى عرائسَ البحر، وتهيم في وقتٍ متأخر من الليل باحثةً عن أبيها وفي يدها سكين.

في الصباح الباكر وصل زائر، ممشوق القامة أهيف القدّ، يرتدي سترةً حمراء، وسأل عن السيد دانيلو. استمع إلى كل ما جرى، ومسح بردنه عينيه الباكيتين، وهزّ كتفيه. فقد حارب مع الراحل بورولباش جنباً إلى جنب، وقاتلا معاً أهل القرم والترك، ولم يكن يتوقّع أن تكون نهاية دانيلو على هذا النحو. وروى الضيف أموراً أخرى كثيرة، وطلب رؤية السيدة كاترينا.

لم تكن كاترينا تصغي إلى الضيف في البداية، ولم تسمع شيئاً مما قاله، لكنها فيما بعد، راحت تنصت إلى كلامه كامرأة عاقلة. أخذ الضيف يحدّثها كيف عاش مع دانيلو كأخوين، وكيف اختبأ من أهل القرم ذات مرة تحت الجسر... كانت كاترينا تستمع إلى كل ما يقول دون أن تحوّل نظرها عنه.

أخذ القوزاق يقولون في سرّهم: "سوف تتعافى! هذا الضيف سيشفيها! إنها تصغي إليه كإنسانٍ عاقل!"

في هذه الأثناء شرع الضيف يخبرها كيف أن دانيلو، في لحظة مكاشفة بينهما، قال له: "اسمع يا أخي كوبريان، حين تقضي مشيئة الله أن أرحل عن الدنيا، خذ كاترينا واتّخذها زوجةً لك..."

حدجته كاترينا بنظرة نفّاذة مرعبة وصرخت: "آه! إنه هو! إنه أبي!" وانقضّت عليه بالسكين.

صارع الضيف طويلاً، محاولاً انتزاع السكين من يدها، وأخيراً انتزعها، ورفعها ليطعنها... وحدث أمرٌ فظيع: لقد قتل الأب ابنته المجنونة.

هجم القوزاق المذهولون على الساحر، إلا أنه كان قد قفز على حصانه وغاب عن الأنظار.

– ١٤ –

في ما وراء كييف تراءت للناس أعجوبة لم يسمعوا بمثلها من قبل، واجتمع النبلاء وقادة القوزاق جميعاً لمشاهدة هذه الأعجوبة: فجأةً صارت الدنيا كلها إلى أقصى أطرافها مرئيةً للناس، ولاح في البعيد مصبُّ نهر الدنيبر أزرقَ، وفي ما وراء الخَوْر كان البحر الأسود يرغي ويزبد. الطاعنون في السنّ تعرّفوا القرم، بجبالها الصاعدة من البحر، وإقليم سيفاش[١] الممتلئة بالمستنقعات، وكان يُرى إلى جهة اليسار إقليم غاليسيا[٢].

سأل الناسُ المتجمهرون كبارَ السنّ وهم يشيرون إلى قممٍ رمادية وبيض تلوح بعيداً في السماء وأشبه بالغيوم: وتلك ما هي؟

قال كبار السنّ: تلك جبال الكاربات! توجد بينها جبال لا تفارقها

---

١ سيفاش: منطقة من شبه جزيرة القرم على بحر آزوف، مشهورة بمستنقعاتها وبحيراتها ذات القدرة الشفائية، مازال الكثير من المرضى يقصدونها حتى اليوم. (م)

٢ غاليسيا: إقليم يقع بين أوكرانيا وبولندة، وكان مثار نزاع بين ليتوانيا وبولندة، كانت مدينة "لفوف" الحالية عاصمته، وظل تابعاً للإمبراطورية النمساوية المجرية حتى عام ١٩١٨. (م)

الثلوج أبداً، تتوقّف السحب عندها وتقضي ليلتها عليها.

وفي هذه اللحظة حدثت أعجوبة أخرى: انقشعت السحب عن أعلى الجبال وظهر على قمّته فارسٌ مغمض العينين، بكامل عدّة الفرسان، على صهوة حصان، وكان مرئياً بوضوح كأنه واقف على مقربة.

عندئذٍ، من بين جمهرة الناس المصعوقين من الهلع، قفز رجلٌ على ظهر حصانه، وتلفّت حوله متوجّساً، كأنما يبحث بعينيه إن كان ثمة من يطارده، وانطلق بحصانه مسرعاً يسابق الريح. كان الساحر! ولكن ما الذي أفزعه على هذا النحو؟ إن الساحر حين أخذ ينظر في هلع إلى الفارس العجيب تعرّف فيه ذاك الوجه نفسه الذي ظهر له، من دون دعوة، عندما كان يستحضر روح كاترينا. وهو نفسه كان عاجزاً عن إدراك سبب اضطرابه الشديد عند رؤيته هذا المنظر. وانطلق بحصانه ينهب الأرض نهباً، متلفتاً حوله في وجل، قبل أن يحلّ الليل وتطلّ النجوم.

وهنا انعطف متوجّهاً إلى مسكنه، ربما ليسأل القوى الشريرة عن معنى هذه الأعجوبة. ولمّا همَّ أن يقفز بجواده من فوق جدول ماءٍ ضيّق المجرى يعترض طريقه، إذا بحصانه، وهو منطلق بأقصى سرعته، يتوقف فجأةً ويدير رأسه إليه و- يا للعجب! - يضحك! لمع صفان من الأسنان البيض لمعاناً مخيفاً في الظلام. قَبَّ شعر الساحر على رأسه، وأطلق صرخةً وحشية وبكى، كالمجذوب، وأطلق العنان لحصانه متوجهاً إلى كييف مباشرةً. خُيّل إليه أنّ كل شيء من حوله يطارده محاولاً الإمساك به: الأشجارُ، المحتشدةُ حوله غابةً سوداء وتبدو حيّةً، تومئ إليه بلحاها السود وتمدّ أغصانها الطويلة محاولةً

خنقه؛ وبدت النجوم كأنها تركض قدّامه مشيرةً للجميع إلى الآثم؛ بل خُيّل إليه أنّ الطريق نفسها تعدو في أثره.

طار الساحر اليائس إلى كييف لائذاً بالأماكن المقدّسة.

– ١٥ –

كان ناسكٌ يجلس في كهفه وحيداً، أمامه مصباح، ولا يرفع عينيه عن الكتاب المقدّس. كانت قد مضت سنوات كثيرة على عزلته في كهفه، وكان قد صنع لنفسه نعشاً من ألواح خشبية، ينام فيه بدلاً من الفراش. أغلق الشيخ المبارك كتابه وراح يصلّي... فجأةً دخل الكهف مسرعاً رجل غريب الهيئة مخيف المنظر. حين أبصر الناسك الورع الرجل بُهت في البداية وتراجع إلى الوراء. كان الرجل يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه، وعيناه زائغتان وحشيتان يتطاير منهما الشرر في هلع، وكان وجهه المخيف تقشعرّ له الأبدان.

صاح الرجل في يأس: "صلِّ يا أبتِ، صلِّ! صلِّ لنفسٍ هالكة!" وخرَّ على الأرض.

رسم الناسك الورع إشارة الصليب وتناول كتابه وفتحه، ثم تراجع مذعوراً وسقط الكتاب من يده.

– كلا، أيها الآثم الزنيم! لا غفران لك! وَلِّ من هنا! لا أستطيع أن أصلّي لأجلك!

– كلا؟ صاح الخاطئ كمن فقد عقله.

– انظر: إن حروف الكتاب المقدس تقطر دماً. لم يسبق أن وُجد في الدنيا خاطئٌ مثلك.

– إنك تسخر مني أيها الأب!

– اغرب أيها الخاطئ الملعون! إنني لا أسخر منك. لقد تملّكني الهلع. ليس خيراً للمرء أن يكون معك!

– كلا، كلا، إنك تسخر مني، لا تُنكر... إنني أرى كيف افترّت شفتاك، وها هو بياض صفّي أسنانك العتيقة يلمع!...

وانقضّ على الناسك، كثورٍ هائج، وقتله.

سُمعت أنّة فظيعة تردّد صداها عبر الحقول والغابات، ومن وراء الغابة ارتفعت أيدٍ عُجْفٌ يابسةٌ لها مخالب طويلة؛ فارتجفت ثم اختفت.

عندئذ لم يعد الرجل يشعر لا بالخوف ولا بأي شيء آخر. بدا له كل شيء ضبابياً كَدِراً، وكان ثمة طنين في أذنيه، وفي رأسه، كأنما من السَّكَر، وأظلَّ كلَّ شيء أمام ناظريه غشاوةٌ كأنها من نسيج العنكبوت. قفز الرجل على حصانه وانطلق رأساً إلى كانيف، عازماً أن يتوجّه إلى التتر في القرم مباشرةً عن طريق تشركاسي، لا يدري، هو نفسه، لماذا. وظلّ يسير يوماً، فآخر، ولم تَلُحْ كانيف. الطريق هي الطريق نفسها المؤدية إلى كانيف، وكان ينبغي أن يبلغها منذ وقتٍ طويل، لكنها لا تبدو للأنظار. في البعيد، كانت تتلألأ قباب كنائس، ولكنها ليست كانيف، بل تشُومسك. ذُهل الساحر حين رأى أنه قد سلك طريقاً مغايراً تماماً، فعاد أدراجه إلى كييف، مطلقاً لحصانه العنان، وبعد مسيرة يوم لاحت له مدينة، لكنها لم تكن كييف، وإنما غاليتش؛ وهي أبعد من تشومسك عن كييف، وقريبة من هنغاريا. لم يدرِ الساحر ماذا

يفعل، فلوى عنان فراسه وقفل راجعاً من جديد، لكنه شعر مرةً أخرى أنه يسير في الاتجاه المعاكس وأنه لا يزال يسير إلى الخلف. لم يكن لأي إنسان أن يخمّن ما يدور في نفس الساحر؛ ولو أنه ألقى نظرة على سريرته ورأى ما يعتمل في نفسه لما استطاع النوم بعد ذلك، ولما ضحك مرةً أخرى أبداً. لم يكن غيظاً، ولا خوفاً، ولا غضباً مريراً. ما من كلمة في الدنيا كان في مقدورها التعبير عنه. كان متّقداً، مضطرماً، ويودّ لو يدوس العالم كله بحصانه، وأن يحمل الأرض كلها، بناسها وبكل ما فيها، من كييف إلى غاليتش ويغرقها في البحر الأسود. ولم يكن يريد أن يفعل ذلك بدافع الحقد؛ كلا. هو نفسه لم يكن يدري لماذا. ارتعد بدنه كله حين لاحت أمامه على مقربة جبال الكارباتِ وجبل كريفان الشاهق، وقد غشيت قمته، كالقبعة، غيمةٌ رمادية قاتمة، وما زال حصانه منطلقاً، وكان الآن يخبّ مسرعاً عبر الجبال. انقشعت الغيوم فجأةً وظهر أمامه الفارس بقامته الرهيبة. حاول الساحر جاهداً أن يتوقف، وشدّ العنان بقوة؛ لكن الحصان صهل صهيلاً وحشياً واندفع، منتصب العرف، نحو الفارس. وهنا شعر الساحر أنّ كلّ ما فيه قد جمد، وخالَ أن الفارس الساكن يتحرّك ويفتح عينيه فجأةً، ورأى الساحرَ يندفع نحوه، فضحك. تردد صدى الضحكة الوحشية عبر الجبال كهدير الرعد ودوّت في قلب الساحر مُرجفةً كل ما في داخله. خُيِّل إليه أنّ كائناً قوياً تغلغل إلى أعماقه وراح يدقّ قلبه وعروقه بالمطارق... بهذا الرعب تردّد صدى الضحكة المخيفة في نفسه!

أمسك الفارسُ الساحرَ بيده المخيفة ورفعه في الهواء، فمات الساحر في الحال، وفتح عينيه بعد موته. لكنه كان قد قضى وينظر

كالموتى، وكانت نظرته مخيفة لا ينظر مثلها لا الكائن الحي ولا القائم من بين الأموات. تطلّع الساحر بعينيه الميتتين من حوله فرأى الموتى يقومون من قبورهم في كييف، وفي بلاد الغاليسيين، وفي الكاربات، وكانو يشبهونه كقطرتي ماء.

كان الموتى شاحبين ممتقعي الوجوه، واحدهم أطول من الآخر، واحدهم عظامه بارزة أكثر من عظام الآخر، وتجمّعوا حول الفارس الممسك بفريسته البشعة. ضحك الفارس مرةً أخرى وقذف بالساحر في هاوية، فقفز الأموات جميعاً في إثره وأمسكوا بالميت وأنشبوا أسنانهم فيه. حاول ميت آخر، أطول من الآخرين جميعاً وأشدّهم هولاً، أن يقوم من الأرض، لكن قواه لم تسعفه وعجز عن القيام بذلك؛ فقد كان مغروساً عميقاً في الأرض، ولو نهض لقلب الكاربات وبلاد غاليسيا وتركيا رأساً على عقب؛ فهو بالكاد تحرّك في مكانه فزلزل الأرض برمّتها وأطاح ببيوت كثيرة وسحق أناساً كثيرين.

كثيراً ما يتردّد صرير عبر جبال الكاربات، كأنما آلاف الطواحين تهدر بنواعيرها في الماء. وما هذا الصرير إلا صوت الموتى وهم ينهشون بأسنانهم جثةً في الهاوية التي لا مخرج منها، والتي لم يرَها، ولم يجرؤ على المرور قربها، إنسانٌ قط. ويحدث كثيراً أن تتزلزل الأرض برمّتها، من أقصاها إلى أقصاها، ويفسّر الناس المتعلمون ذلك بأن ثمة جبلاً على مقربة من البحر يتصاعد منه اللهب وتتدفق منه أنهارٌ تغلي. إلاّ أنّ كبار السنّ، الذين يعيشون في هنغاريا وبلاد غاليسيا، أعرَفُ من أولئك ويقولون إن ميتاً مارداً، استطال عميقاً في الأرض، حين يحاول أن يقوم من الأرض تتزلزل الأرض.

- ١٦ -

تجمهر الناس في مدينة غلوخوف حول كهلٍ يعزف على البَندورا، ومنذ ساعة وهم يستمعون إلى عزف الكهل الأعمى. لم يسبق لعازف بَندورا من قبل أن غنّى أغنيات رائعة كهذه تُغنّى بهذا الإتقان. غنّى الرجل أولاً عن حكم القوزاق فيما مضى، عن ساغدايجني وخميلّينسكي[١]. كان عهداً مختلفاً: كان القوزاق في عزّ مجدهم، كانوا يدوسون أعداءهم بخيولهم، ولم يكن أحد يجرؤ على السخرية منهم. غنّى الشيخ أيضاً أغنيات مرحة، وهو يمرّ بعينيه على الناس، كأنه بصير؛ وكانت أصابعه، المُركَّب عليها أظفار اصطناعية، تطير على الأوتار كذبابة، وبدا أن الأوتار تعزف من تلقائها، والناس من حوله - وقد طأطئ العجائز برؤوسهم، والشبان يحملقون في المغنّي الكهل - لا يجرؤون على مجرّد التهامس فيما بينهم.

قال المغنّي الكهل: مهلاً، سأنشد لكم حكايةً جرت منذ زمنٍ بعيد.

اقترب الناس منه أكثر واحتشدوا، وأخذ الأعمى يغنّي:

---

١ من قادة القوزاق العظام. (م)

في عهد الملك ستيبان، ملك غاليسيا، وكان ملك غاليسيا ملكاً على البولنديين أيضاً، كان يعيشان قوزاقيان: إيفان وبيترو، وكانا يعيشان كأخوين. قال بيترو لإيفان: "اسمع يا إيفان، فلنقتسم كل ما نجنيه مناصفةً؛ يفرح واحدنا لفرح الآخر، ويحزن لحزنه؛ وإن غنم غنيمةً شاطره إياها؛ وإن وقع أحدنا في الأسر باع الآخر كل ما يملك ليفتديه، أو يوقع نفسه بنفسه في الأسر". وفعلاً كان القوزاقيان يقتسمان كل ما يحصلان عليه؛ وسواء سرقا ماشيةً أو خيولاً، كانا يقتسمان مناصفةً.

* * *

اقتتل الملك ستيبان مع الترك، ومضت ثلاثة أسابيع وهو يقاتلهم، لكنه، رغم ذلك، لم يتمكّن من طردهم. وكان ثمة باشا تركي يستطيع بمفرده، مع عشرة جنود من الانكشارية، أن يُنكّل بكتيبة كاملة. فأعلن الملك ستيبان أنه سيمنح المقاتل الباسل الذي يأتيه بالباشا التركي، حيّاً أو ميتاً، راتباً يعادل رواتب الجنود جميعاً. قال إيفان لأخيه بيترو: "فلنذهب ونقبض على هذا الباشا يا أخي!" وانطلق القوزاقيان كلٌّ في اتجاه.

* * *

لا ندري إن كان بيترو سيمسك بالباشا أم لا، لكن ها هو إيفان يسوق الباشا، وقد طوّق عنقه بحبل، إلى الملك. "أحسنت يا فتى!" قال

الملك ستيبان وأمر بمنحه راتباً يعادل رواتب الجنود جميعاً، كما أمر أن توهب له من الأرض قدر ما يشاء، ومن الماشية قدر ما يتمنّى. ما إن تلقّى إيفان المال من الملك حتى اقتسمه مناصفةً بينه وبين بيترو. أخذ بيترو نصف هبة الملك، لكنه لم يستطع تقبّل أن يحظى إيفان بكل هذا التكريم من الملك، وأضمر في نفسه أن ينتقم.

* * *

توجّه كلا الفارسان إلى الأرض التي منحها الملك لإيفان، في ما وراء الكاربات. أركب القوزاقي إيفان ابنه خلفه على الحصان وشدّه إليه برباط. كان الليل قد بدأ يحلّ، وهم ما زالوا يسيرون. غفا الطفل، وإيفان نفسه بدأ ينعس. لا تنم أيها القوزاقي، فالدروب في الجبال خطرة!... ولكن لدى القوزاقي جواد يعرف الدروب كلها، لا يزلّ ولا يعثَر. وكانت ثمة هاوية بين الجبال لم يسبق لأحد أن رأى قرارها، ويبلغ عمقها بقدر المسافة بين السماء والأرض. وكان ثمة درب فوق الهوية بالكاد يمكن لشخصين متجاورين أن يعبراه، أما ثلاثة فمحال. أخذ الجواد يخطو بحذر بالقوزاقي الوسنان، وكان بيترو يسير إلى جواره مرتعشاً كله، متقطّع الأنفاس من الفرح. تلفّت حوله ثم دفع مَنْ يدعوه أخاه إلى الهاوية، فهوى الحصان مع القوزاقي والطفل إلى الهاوية.

* * *

فور موت بيترو، دعا الله روحي الأخوين، بيترو وإيفان، إلى الحساب.

قال الله: "هذا الإنسان عظيم الإثم. يا إيفان! سيمضي وقتٌ طويل قبل أن أختار له العقاب الذي يستحق، فاختر له عقاباً بنفسك!" فكّر إيفان طويلاً، وأخيراً قال: "لقد آذاني هذا الرجل أذىً عظيماً: خان أخاه، مثل يهوذا، وحرمني من ذريةٍ شريفة تخلفني في الأرض. والإنسان من دون ذرية شريفة وخلفٍ صالح مثله مثل بذرة يُلقى بها في الأرض فتذهب هباءً؛ وبما أنها لم تنبت فلن يعلم الناس أن ثمة بذرة أُلقي بها في الأرض.

لذا، يا إلهي، اكتب على ذريته كلها ألاّ ينعم أيٌّ منهم بالسعادة في الأرض، وأن يكون آخرُهم أشرَّ مَنْ في الدنيا قاطبةً، وألاّ يجد أجدادُه وأجدادُ أجداده الراحة في قبورهم كلّما ارتكب عملاً شريراً. حتى إذا ذاقوا من العذاب ما لا مثيل له في الدنيا، قاموا من قبورهم! أما اليهوذا بيترو، فأرجو أن يكون عاجزاً عن القيام من قبره، وأن يذوق جرّاء ذلك عذاباً أشدّ نكالاً؛ فيأكل التراب كالكلب المسعور، ويتلوّى من الألم تحت الثرى.

وعندما تبلغ شرور ذاك الرجل أقصاها أقمني، يا إلهي، من تلك الهاوية على حصاني وارفعني إلى قمة أعلى جبل، واجعله يأتِ إليّ فأُلقي به من قمة ذاك الجبل في أعمق هاوية، وليأتِ الموتى من أجداده وأجداد أجداده، أينما كانوا يعيشون في حياتهم، من كل أرجاء الأرض، فينهشونه بأسنانهم إلى الأبد، لقاء كل العذابات التي سبّبها لهم، وأن أُسرّ وأفرح وأنا أراه يتعذب. أما اليهوذا بيترو، فأرجو ألاّ يقوم من قبره، وأن يتحرّق شوقاً إلى النهش، فينهش نفسه، واجعل عظامه تنمو وتستطيل كي يتفاقم عذابه بمرور الزمن. فهذا سيكون أشدّ عذاباته هولاً؛ إذ ما من عذاب أشدّ من عذاب إنسانٍ توّاق إلى

الانتقام، لكنه عاجز عن ذلك.

* * *

قال الله: "ما أفظع العقاب الذي ابتدعته أيها الإنسان! فلْيَتُمَّنَّ كلُّ شيء كما قلت. ولكن أنت أيضاً ستبقى ممتطياً صهوة حصانك هناك إلى الأبد، ولن تدخل ملكوت السماء ما دمت جالساً هناك على ظهر حصانك!".

وهكذا تمّ كل شيء، كما قيل، ولا يزال الفارس العجيب جالساً على ظهر حصانه في الكاربات حتى الآن، ويرى كيف ينهش الموتى الجثة في الهاوية، ويحسّ بالميت الراقد تحت الثرى وهو يكبر وينمو، ويقضم عظامه وهو يعاني أشدّ العذاب وأفظعه، ويُزلزل الأرض كلها بشكل مخيف...

* * *

وهنا أنهى الأعمى أغنيته، وراح يُنغّم على الأوتار من جديد، وأخذ يُنشد حكايات هزلية مضحكة عن خُوما وييريما وعن ستكلار ستوكوزا... لكن الشيوخ والشبان لم يكونوا قد ثابوا إلى رشدهم بعد، وظلّوا واقفين وقتاً طويلاً، وقد طأطأوا بروؤسهم، وهم يتفكّرون في هذه القصة الرهيبة التي جرت في غابر الأيام.

إيفان فيودوروفيتش شبونكا

وخالته

لهذه الحكاية قصّة رواها لنا ستيبان إيفانوفيتش كوروجكا الذي قدم من غادياج. يجب أن تعلموا أن ذاكرتي... يتعذّر عليّ القول كم هي سخيفة: سيّان أقصصتم عليّ أم لم تقصّوا؛ كأنكم تسكبون ماءً في غربال. ولمعرفتي بعيبي هذا فقد طلبتُ منه عامداً أن يدوّنها في دفتر. وهكذا - الله يعطيه العافية، فقد كان دائماً كريماً معي - شمّر عن ساعده ودوّنها. وقد وضعتها في درج المنضدة الصغيرة القائمة في الركن، خلف الباب مباشرةً، أظن أنكم تعرفونها... آه، نسيت أنكم لم تدخلوا بيتي من قبل قط. ولا أخفيكم أنّ زوجتي العجوز، التي ها قد مرّت ثلاثون سنة على عيشنا معاً، لم تتعلم القراءة والكتابة منذ ولادتها. وقد لاحظت أنها تخبز الفطائر على ورقة ما. وهي، أيها القرّاء الأعزاء، تُعدّ فطائر مدهشة؛ لن تتناولوا ألذّ منها في أي مكان أبداً. وذات يوم نظرت إلى قاعدة الفطيرة فوجدت كلمات مكتوبة، فمضيت إلى الطاولة، كأنما قلبي أخبرني، فلم أجد إلا نصف الدفتر! كانت زوجتي العجوز قد خبزت الفطائر على بقية الأوراق. ماذا تريدونني أن أفعل؟ لن أتشاجر معها بالطبع في هذه السن!

وفي العام الماضي حدث أن مررتُ بمدينة غادياج. وقبل بلوغ المدينة تعمّدت أن أعقد عقدة في منديلي كي لا أنسى سؤال ستيبان إيفانوفيتش عن بقية القصة. وهذا ليس كل شيء، فقد عاهدت نفسي أن أتذكّر ذلك كلما عطستُ عطسةً في المدينة. لكن عبثاً. فقد عبرتُ المدينة، وعطست، وتمخّطتُ في المنديل، لكنني مع ذلك نسيت، ولم أتذكّر إلا بعد أن صرت على مبعدة حوالى ستة فراسخ عن بوّابة المدينة. ولم يعد في اليد حيلة، واضطررت إلى طبع القصة من دون خاتمة. ولكن إن كان لا بدّ لأحدكم أن يعرف بقية هذه القصة فليس عليه إلاّ أن يسافر خصيصاً إلى غادياج ويسأل عن ستيبان إيفانوفيتش، ولسوف يسرّه كثيراً أن يروي القصة، ومن أولها إلى آخرها على الأرجح. وهو يقيم غير بعيد عن الكنيسة الحجرية. ثمة زقاق صغير هناك، وما إن تنعطفوا فيه فإن بابه هو الثاني أو الثالث. ولكن الأفضل، إن رأيتم في الفناء عموداً عليه طائر من طيور السُّمانى، وخرجت للقائكم امرأة بدينة ترتدي مئزراً أخضر (لا بأس من القول إنه أعزب)، فهذا فناء داره. وبالمناسبة، لعلكم تلتقونه في البازار، حيث يتواجد كل صباح حتى الساعة التاسعة، ينتقي السمك والخضرة لمائدته ويتحدث إلى الأب أنتيب أو إلى يهوديٍّ ملتزم[١]. ولسوف تتعرّفونه حالاً، لأنه الوحيد الذي يلبس سروالاً من الكتّان الملون وسترةً قطنيةً صفراء. وهاكم علامة فارقة أخرى: إنه يلوّح بذراعيه دائماً حين يمشي. وكان دنيس بيتروفيتش، مساعد قاضي الناحية الراحل، كلّما رآه قادماً من بعيد، يقول: "انظروا، انظروا، ها هي الطاحونة الهوائية قادمة!".

١ الملتزم هنا هو الحاصل على وكالة حصرية من الحكومة لبيع الخمور في منطقة معينة. (م)

- ١ -

إيفان فيودوروفيتش شبونكا

مضت أربع سنوات على تقاعد إيفان فيودوروفيتش شبونكا، وهو يعيش الآن في قريته فيترينكي. عندما كان لا يزال فانيوشا[1]، التحق بمدرسة ناحية غادياج، ولا بد من القول أنه كان ولداً خلوقاً ومجتهداً. وقد اعتاد مدرّس قواعد اللغة الروسية، نيكيفور تيموفيفيتش ديبريجاستيه[2]، أن يقول إنه، لو كان التلاميذ جميعاً مجتهدين في دراستهم مثل شبونكا، لما حمل في الفصل معه المسطرة المصنوعة من خشب الإسفندان، التي - حسب اعترافه - تعب من الضرب بها على أيدي الكسالى والمشاغبين. كان دفتره نظيفاً دائماً، مسطّر الهوامش، وخالياً من بقع الحبر. كان دائماً يجلس هادئاً، مكتّف الذراعين، وعيناه مركّزتان على المدرّس، ولم يعمد يوماً إلى إلصاق قصاصات من الورق على

١ اسم تصغير التصغير من إيفان، أي عندما كان لا يزال غلاماً صغيراً. (م)

٢ تعني "الظرف"، ظرف الزمان أو المكان، في قواعد اللغة الروسية. (م)

ظهر زميله الجالس أمامه، أو أن يخدش المقاعد، أو يلعب قبل دخول المدرّس إلى الفصل المزدحم. وإن احتاج أحدهم سكيناً صغيرة يبري بها قلمه كان يلجأ فوراً إلى إيفان فيودوروفيتش، عارفاً أنه دائماً في حوزته سكين، فيخرجها إيفان فيودوروفيتش، الذي كان آنذاك فانيوشا وحسب، من جرابه الجلدي الصغير المربوط بعروة سترته الرمادية، ولا يطلب من السائل إلاّ عدم استخدام الحدّ المرهف من السكين، مؤكّداً له أنّ الطرف المثلوم مخصّص لذلك. خُلقه الحسن هذا سرعان ما استرعى كذلك انتباه مدرّس اللغة اللاتينية الذي مجرّد سعاله في الرواق، الذي يسبق دخوله الفصل بمعطفه المصنوع من الصوف الخشن ووجهه المزيّن بآثار الجدري، كان ينشر الخوف في الفصل كله. هذا المدرّس المخيف، الذي كان لديه دائماً على طاولته حزمتان من عصيّ الخيزران ونصف التلاميذ جاثين على ركبهم، جعل من إيفان فيودوروفيتش عريفاً للفصل، رغم وجود الكثير من التلاميذ ممن يتمتعون بمؤهلات أفضل منه بكثير.

وهنا لا يجدر بي أن أغفل حادثةً أثّرت في حياته كلها. أحد التلاميذ الموكل إليه الإشراف عليهم[1]، لكي يدفعه إلى أن يكتب أمام اسمه في السجل Scit[2]، في حين أنه لم يكن قد قرأ الدرس ولو مجرد قراءة، أحضر إلى الفصل فطيرة لحم مشبعة بالزيت وملفوفة بورقة. وعلى الرغم من أن إيفان فيودوروفيتش كان حريصاً على نزاهته وعدالته، إلاّ أنه كان جائعاً في تلك اللحظة ولم يستطع

١ كان عريف الفصل يختبر التلاميذ ويضع لهم العلامات، وأحياناً كان يساعد المدرّس في تصحيح أوراق الامتحانات. (م)

٢ باللاتينية في الأصل، وتعني "يعرف"، أي حافظ درسه. (م)

مقاومة الإغراء، فأخذ الفطيرة ورفع كتاباً أمام وجهه وراح يأكل، وقد انهمك في ذلك إلى درجة أنه لم يلحظ أنّ الفصل قد خيّم عليه صمت القبور، ولم يفق إلى نفسه مرعوباً إلاّ حين امتدت اليد المخيفة من المعطف الصوفي الخشن وأمسكته من أذنه وجرّته إلى وسط الصف. "هات الفطيرة! هاتها أقول لك يا سافل!" قال المدرّس المخيف واختطف الفطيرة الدهنية بأصابعه ورماها من النافذة، ناهياً في حزم التلاميذ الراكضين في باحة المدرسة من رفعها عن الأرض، ثم أخذ يضرب إيفان فيودوروفيتش على يديه ضرباً مبرحاً، وكان محقّاً؛ فالذنب ذنب اليدين، إذ لماذا هما بالتحديد أخذتا الفطيرة وليس أي عضو آخر من أعضاء الجسد. على أية حال، لقد ازداد وجلاً منذ ذلك الحين، وكان الوجل صفة ملازمة له أصلاً. ولعل هذه الحادثة هي السبب في عدم رغبته أبداً في الالتحاق بوظيفة حكومية، بعد أن رأى، من خلال التجربة، أنّ المرء لا يفلح دائماً في إخفاء عيوبه.

كان الفتى في قرابة الخامسة عشرة عندما انتقل إلى الصف الثاني حيث، بدلاً من كُتيب "التعليم المسيحي" المختصر وقواعد الحساب الأربع، أخذ يدرس علوماً أرفع، ككتاب واجبات الإنسان والكسور الرياضية. لكنه، إذ رأى أنه كلما أوغل في الغابة ازداد التحطيب[١]، وتلقّى نبأ أنّ أباه قد فارق الحياة، بقي في المدرسة سنتين أخريين ثم، وبموافقة أمه، التحق بالفرقة (ب) للمشاة.

لم تكن فرقة المشاة (ب) فرقة مشاة عادية. فرغم أنها كانت

١ مثل شعبي روسي يُضرب للدلالة على التنافر وعدم الوفاق. (م)

تعسكر في القرى معظم الوقت، إلا أنها لم تكن أقلّ شأناً من كثيرٍ من فرق الخيّالة؛ فمعظم الضباط كانوا يشربون الخمور المبرّدة الثقيلة ويجيدون جرّ اليهود من جدائلهم ليس أسوأ من الفرسان. بل إن بعضهم كان يرقص "المازوركا" حتى، ولم يكن قائد الفرقة (ب) يفوِّت أبداً فرصة الإشارة إلى ذلك عند حديثه مع أحدٍ من عليّة القوم، فكان يقول عادةً وهو يربت على كرشه بعد كل كلمة: "كثيرٌ من عناصري يرقصون المازوركا؛ كثيرٌ منهم، كثير جداً". ولكي نظهر أكثر للقرّاء مدى ثقافة فرقة المشاة (ب) نضيف أن اثنين من الضباط كانا مقامرين فظيعين وخسرا بزّتيهما الرسميتين وسِدارتيهما ومعطفيهما وحمّالتي سيفيهما بل وملابسهما الداخلية، وهذا لا نجده في أي مكان حتى بين الخيّالة.

بيد أن عِشرة رفاق كهؤلاء لم تقلّل من حياء إيفان فيودوروفيتش مطلقاً. وحيث أنه لم يكن يشرب الخمور المبرّدة، مفضّلاً عليها قدحاً صغيراً من الفودكا قبل الغداء والعشاء، ولا يرقص "المازوركا" ولا يلعب الورق، فمن الطبيعي أنه كان يبقى وحده دائماً. وهكذا، بينما كان رفاقه يذهبون لزيارة المزارعين الصغار على ظهور الخيول المستأجرة، كان هو يجلس في غرفته منشغلاً بشؤونه التي لا تلائم إلا النفوس الوديعة الطيبة، فكان إما ينظّف أزراره، أو يقرأ كتاباً في التنجيم، أو ينصب مصائد الفئران في زوايا غرفته، أو، في آخر الأمر، يلقي عنه زيّه الرسمي ويستلقي في السرير. لكن في المقابل لم يكن في الفرقة من هو أكثر مواظبةً من إيفان فيودوروفيتش، وكان يُدير فصيلته على نحو بحيث أن قائد السرية كان دائماً يستشهد به كمثالٍ يحتذى. لذا في فترة قصيرة، بعد مضي أحد عشر عاماً على تلقّيه رتبةً

مساعد أول، تمّت ترقيته إلى رتبة ملازم ثانٍ.

خلال هذه الفترة تلقى نبأ وفاة أمه، وأن خالته، شقيقة والدته التي لم يعرف عنها سوى أنها جلبت له في طفولته، بل وأرسلت له في غادياج، كمثرى مجففة وكعكات دبس لذيذة صنعتها بنفسها (ولم تكن على وفاق مع أمّه، لذا لم يرها إيفان فيودوروفيتش بعد ذلك) - هذه الخالة، بقلبها الطيب، أخذت على عاتقها الاعتناء بضيعته الصغيرة، الأمر الذي أخبرته به في رسالتها في حينه. وقد ظلّ إيفان فيودوروفيتش، الواثق من حصافة خالته، يقوم بوظيفته كسابق عهده. ولو أنّ أحداً آخر في مكانه تلقّى الترقية التي تلقّاها لكان تملّكه الغرور، إلا أن الغرور كان غريباً عليه تماماً، وبعد أن صار ملازماً ثانياً ظلّ إيفان فيودوروفيتش نفسه الذي كانه عندما كان برتبة مساعد أول. وبعد مرور أربع سنوات على هذا الحادث الذي كان رائعاً بالنسبة إليه، أخذ يستعدّ للانتقال مع فرقته من مقاطعة موغيليوف إلى روسيا العظمى، وإذا به يتلقّى الرسالة التالية:

ابن أختي الحبيب إيفان فيودوروفيتش،

أرسلت إليك قطنيات: خمسة أزواج من الجوارب وأربعة قمصان من الكتّان الناعم؛ كما أنني أريد مفاتحتك في أمر: بما أنك قد نلت رتبةً ليست قليلة الشأن، وأظنك تدرك أنك بلغت سنّاً بحيث تتولّى شؤون مزرعتك، لذا لم يعد هناك سبب لبقائك في الخدمة العسكرية. فقد كبرتُ في السنّ ولم أعد قادرة على رعاية مزرعتك، فضلاً عن أن لديّ، بالفعل، الكثير مما أريد مكاشفتك

به شخصياً. تعالَ يا فانيوشا! وإلى أن أُسعد بلقائك، أبقى خالتك التي تحبّك كثيراً.

فاسيليسا تسوبجِفسكا

ملاحظة: لقد نبت في بستاننا لفت عجيب، أشبه بالبطاطا منه باللفت.

بعد أسبوع على تلقّيه هذه الرسالة كتب إيفان فيودوروفيتش الجواب التالي:

سيدتي الكريمة، الخالة فاسيليسا كاشبوروفنا
أشكرك جزيل الشكر على إرسال القطنيات؛ فجواربي بالذات صارت عتيقة جداً، إلى درجة أن مراسلي رَفَأها أربع مرات، الأمر الذي جعلها ضيقة جداً. أما فيما يتعلق برأيك بخصوص خدمتي، فإني أتفق معك تماماً وقد قدّمت استقالتي منذ ثلاثة أيام، وما إن أتلقّى أمراً بصرفي من الخدمة حتى أستأجر عربة. أما اقتراحك السابق، بخصوص شراء قمح سيبيري، فلا أستطيع تلبيته، ففي مقاطعة موغيليوف كلها لا وجود لهذه النوعية من القمح. أما الخنازير هنا فتتغذى على الجعة البيتية الممزوجة بقليل من الجعة الفائزة[١].

---

١ الجعة الفائزة هي التي تفوز في مسابقة من مسابقات الجعة (البيرة) التي كانت تُقام بصورة موسمية، وكانت عالية الجودة. (م)

مع فائق احترامي يا سيدتي الكريمة وخالتي العزيزة.

ابن أختك المخلص **إيفان شبونكا**

أخيراً، تلقى إيفان فيودوروفيتش الأمر بإحالته على التقاعد برتبة ملازم، فاستأجر حوذياً يهودياً بأربعين روبلاً لينقله بعربته من موغيليوف إلى غادياج، وركب العربة المسقوفة في الوقت الذي بدأت فيه الأشجار تكتسي بالقليل من الأوراق الفتيّة، وكانت الأرض كلها تتألق بخضرةٍ يانعة، والحقول كلها تعبق بعبير الربيع.

- ٢ -

الطريق

لم يحدث شيء ذو بال في الرحلة التي استغرقت أسبوعين ونيّف. وكان يمكن لإيفان أن يصل حتى أسرع من ذلك، لكن اليهودي الورع كان يستريح[١] كل سبت، فيغطّي رأسه بجُلِّه ويصلّي طول اليوم. على أنّ إيفان فيودوروفيتش لم يكن شخصاً يستسلم للملل، كما سبق أن ذكرت. ففي هذه الأثناء كان يفتح حقيبته ويخرج ملابسه الداخلية ويتفحصّها جيداً ليرى إن كانت مغسولة جيداً ومطوية كما ينبغي، وينزع الزغب بعناية عن حلّته الرسمية الجديدة المخيطة من دون كتّافيات هذه المرة، ثم يعود فيوضّب ذلك كله في الحقيبة على أحسن وجه. أما الكتب، فعلى العموم لم يكن يحب قراءتها، فإن طالع أحياناً

١ يستخدم غوغول مفردة طريفة هنا هي "شاباش"، لكن بصيغة الفعل، فيقول: "كان يُشَوبِشُ كل سبت". وهي الكلمة التي كان يستخدمها عرفاء حفلات الزفاف في قرانا عند دعوة الناس لتقديم هداياهم النقدية للعرسان. والكلمة في الأصل تعني "كفى" و"مجاناً". (م)

كتاباً في التنجيم فذلك لأنه كان يحب أن يصادف فيه ما سبق أن قرأة وتعرّف إليه عدة مرات. وهو ما يفعله ساكن المدينة الذي يذهب إلى النادي كل يوم، لا لكي يسمع شيئاً جديداً وإنما ليلتقي أصحابه الذي ألف مجاذبتهم أطراف الحديث منذ زمنٍ بعيد. كذلك الموظف الذي يقرأ دليل العناوين عدة مرات في اليوم بمتعةٍ كبيرة؛ فهو لا يفعل ذلك من أجل تدابير دبلوماسية ما، وإنما لأن الأسماء المطبوعة تُسلّيه وتُطربه إلى أقصى الحدود. إنه يغمغم بينه وبين نفسه قائلاً: "آ! ها هو إيفان غافريلوفيتش!... وها هو اسمي! همم!" وفي اليوم التالي يعود فيقرأ الدليل من جديد بالدهشة وصرخات التعجّب نفسها.

بعد مسير أسبوعين بلغ إيفان فيودوروفيتش قريةً صغيرة تبعد عن غادياج مسافة مئة فرسخ. كان ذلك يوم الجمعة. كانت الشمس قد غربت منذ وقتٍ طويل حين وصل، هو والعربة واليهودي، إلى أحد الخانات.

لم يكن هذا الخان يختلف في شيء عن غيره من الخانات القائمة في القرى الصغيرة. حيث يُقدَّم فيها للمسافر الدريس والشوفان بحميّة وحماسة كأنه جواد من جياد البريد. لكن إن أراد النزيل أن يتناول فطوراً لائقاً كما يفعل الناس المحترمون، عادةً، فعليه الإبقاء على شهيته دون مسّ إلى أن تحين له فرصة أخرى. وكان إيفان فيودوروفيتش يعلم ذلك، لذا فقد احتاط مسبقاً بربطتين من الخبز المدوّر وشرائح من "الكَلْبَصّا"، وطلب قدحاً من الفودكا التي لا يخلو منها أي خان، وراح يتناول عشاءه، جالساً على أريكة أمامها طاولة من السنديان مثبّته بالأرضية الطينية بإحكام.

في هذه الأثناء سُمعت قرقعة عربة. صرّت البوابة الخارجية،

لكن مضى وقتٌ طويل قبل أن تدخل العربة الفناء. ثم سمع إيفان فيودوروفيتش صوتاً جهورياً يوبّخ العجوز، صاحبة الحانة، متوعِّداً: "سأنزل، ولكن إن لسعتني بقّة واحدة في خانكِ فقسماً بالله سأضربكِ أيتها الساحرة الشمطاء، ولن أعطيكِ شيئاً مقابل الدريس!"

بعد لحظة انفتح الباب ودخل، أو الأفضل القول حشر نفسه حشراً، رجل بدين يرتدي سترةً خضراء، استقرّ رأسه في ثبات على عنقه القصير الذي بدا أغلظ مما هو عليه بسبب ذقنه ذي الطبقتين. وكان مظهر الرجل يدلّ على أنه من أولئك الذين لم يصدعوا رؤوسهم قط بتوافه الأمور وتمرّغوا طوال حياتهم في الزبدة.[1]

قال الرجل حين رأى إيفان فيودوروفيتش:

– السلام عليكم، سيدي الكريم!

أحنى له إيفان فيودوروفيتش رأسه في صمت، فتابع الوافد البدين قائلاً:

– هل لي أن أسأل، من الذي أتشرّف بالتحدث إليه؟

عند سماعه هذا السؤال اضطر إيفان أن ينهض من مكانه ويقف باستعداد، كما اعتاد أن يفعل عندما كان قائد الفرقة يوجّه إليه سؤالاً، ويجيب قائلاً:

– الملازم المتقاعد إيفان فيودوروفيتش شبونكا.

– وهل تسمح لي بالسؤال أيَّ قريةٍ تقصد؟

– إلى ضيعتي، فيترينكي.

"فيترينكي!"، هتف المحقق الصارم، ثم قال وهو يتجه نحوه

---

١ مأثور شعبي يدلّ على يسر الحال وعدم التعب في الحياة، كما يقال عندنا: "وُلِد وفي فمه ملعقة من الذهب". (م)

ملوّحاً بيديه، كأنما ثمة من لا يسمح له بالمرور أو كأنما يشقّ طريقه وسط حشدٍ من الناس: "اسمح لي يا سيدي الكريم، اسمح لي!" ودنا منه وعانقه وقبّله من خدّه الأيمن أولاً ثم من الأيسر. سُرّ إيفان فيودوروفيتش كثيراً بهذه التحية، لأن خدّي الغريب الممتلئين بدتا لشفتيه كودساتين ناعمتين. تابع البدين يقول: "اسمح لي، يا سيدي الكريم، أن أعرّفك بنفسي. إنني ملاّك من ناحية غادياج نفسها وجارك، أقيم على مسافة لا تتجاوز خمسة فراسخ عن ضيعتك فيترينكي، في قرية خورطيش، واسمي غريغوري غريغوريفيتش ستروجنكو. وحتماً، حتماً، يا سيدي العزيز، سأزعل منك إن لم تأتِ لزيارتي في خورطيش. إنني في عجلة من أمري الآن... ما هذا؟"، سأل بصوتٍ رقيق سائس خيوله الذي دخل للتو - وكان غلاماً يرتدي سترة قوزاقية رُتقت عند المرفقين - وأخذ يضع البقج والصناديق على الطاولة والحيرة بادية على ملامحه، "ما هذا؟ ماذا؟"، وأخذ صوت غريغوري غريغوريفيتش يزداد تهديداً ووعيداً شيئاً فشيئاً. "أطلبت منك أن تضعها هنا يا عزيزي؟ أأنا قلت لك أن تضعها هنا يا وغد؟ ألم أقل لك أن تُسخّن الدجاجة أولاً أيها اللئيم؟"، ثم صاح وهو يضرب الأرض بقدمه: "اغرب! مهلاً يا وجه القرد! أين صندوق القناني؟"، ثم قال وهو يصبّ قدحاً من النبيذ الحلو: "إيفان فيودوروفيتش! أرجو مشاركتي هذا الشراب المنعش!".

قال إيفان فيودوروفيتش في تردد:

- والله لا أقدر... فقد سبق لي أن...

رفع الملاّك صوته قائلاً:

- لا أريد أن أسمع ذلك مجرّد سماع يا سيدي العزيز، ولن أغادر

مكاني حتى تتذوّقه...

حين رأى إيفان فيودوروفيتش أنه لا يستطيع أن يرفض، جرع القدح، وليس من دون استمتاع.

تابع غريغوري غريغوريفيتش يقول وهو يقطّع الدجاجة في صندوق خشبي:

- لا أخفيك، يا سيدي الكريم، أن طاهيتي يافدوخا تحب أحياناً أن تحتسي القليل من الخمر من حين إلى آخر وهي تطهو، ولهذا كثيراً ما يكون طهوها ناشفاً.

ثم التفت إلى الفتى ذي السترة القوزاقية، وكان يحمل وسادة وفراشاً من الريش، وقال:

- هيه يا فتى! مُدَّ لي الفراش في وسط الغرفة! اسمع، ضع المزيد من القش تحت الوسادة واجعلها عالية، وانزع من مغزل المرأة قطعة من القنّب أسدّ بها أذني في الليل! لا أخفيك، يا سيدي الكريم، أنني اعتدت أن أسدّ أذني في الليل منذ تلك الحادثة الملعونة، عندما تسلل صرصور إلى أذني اليسرى في خانٍ روسي. علمت فيما بعد أنّ الروس الملاعين يتناولون حتى الحساء مع الصراصير. إنني عاجز عن وصف ما جرى لي، فقد راح الصرصور يدغدغني في أذني، يدغدغ يدغدغ حتى كدت أضرب رأسي بالجدار! ثم شفتني عجوز بسيطة من منطقتنا. وهل تدري كيف؟ فقط بالهمس في أذني. فما قولك، يا سيدي الكريم، في الأطباء؟ أعتقد أنهم يخدعوننا ويسخرون منا فحسب. إنّ عجوزاً كتلك تعرف أكثر من هؤلاء الأطباء جميعاً بعشرين مرة.

- لعمري إنّ ما تقوله هو عين الحق. وبالفعل ثمة... وهنا أمسك

إيفان عن الكلام كأنه لا يجد الكلمة المناسبة.

لا غضاضة من القول هنا أن إيفان لم يكن سخياً في الكلام بصورة عامة، ولعل ذلك يعود إلى حيائه أو إلى رغبته في التعبير بشكل أجمل.

"هزّه جيّداً، هزّ القش جيداً. إن القش هنا رديء جداً إلى درجة أنك لا بد أن تصادف فيه عوداً يابساً"، قال غريغوري غريغوريفيتش لخادمه. "اسمح لي، يا سيدي الكريم، أن أتمنى لك ليلةً هانئة، إذ لن نرى بعضنا بعضاً غداً، فسوف أنطلق قبل بزوغ الفجر. يهوديك سيتفرّغ للعبادة غداً، فغداً السبت، وما من حاجة تدفعك إلى الاستيقاظ مبكراً. لا تنسَ دعوتي، وإلا زعلت منك إن لم تزرني في قريتي خورطيش".

وهنا قام خادم غريغوري غريغوريفيتش بنزع سترة سيّده وجزمته عنه وألبسه منامته، وارتمى غريغوري غريغوريفيتش على الفراش فبدا كأن فراشاً ضخماً من الريش قد استلقى على فراشٍ آخر.

– هيه يا ولد، إلى أين تذهب أيها الوغد! تعالَ وسوِّ لحافي! هيه يا ولد، ضع مزيداً من القش تحت رأسي! وهل سقيت الخيول؟ هات المزيد من القش، هنا، تحت هذا الجانب! سوِّ اللحاف جيداً أيها الوغد! نعم هكذا! أف!...

وتنهّد غريغوري غريغوريفيتش مرتين أخريين ثم أطلق من أنفه صفيراً رهيباً تردّد صداه في الغرفة كلها، وكان يشخر من حين إلى آخر شخيراً عالياً بحيث أن العجوز الراقدة على الدكّة كانت تستيقظ وتجول بعينيها في الأرجاء كلها فجأةً، وحين لا ترى شيئاً تهدأ وتغفو من جديد.

عندما استيقظ إيفان فيودوروفيتش صبيحة اليوم التالي وجد أن

الملاّك البدين قد رحل. كان هذا الحادث هو الحادث الرائع الوحيد الذي جرى له في الطريق، وفي اليوم الثالث كان إيفان يقترب من مزرعته الصغيرة.

هنا شعر بقلبه يدق بقوة عندما لاحت له الطاحونة الهوائية وهي تخفق بأجنحتها، وحين لاح له صفٌّ من أشجار الدلب عندما ساق اليهودي جياده الهرمة صاعداً التل. تلألأت بركة الماء خلل الأشجار في ألقٍ وانتعاش، وهبّ منها نسيمٌ عليل. كان إيفان يسبح هنا ذات يوم؛ ففي هذه البركة بالذات كان إيفان يخوض حتى العنق مع الأولاد سعياً وراء سرطانات الماء. وحين أخذت العربة ترتقي الجسر رأى إيفان فيودوروفيتش ذاك البيت الصغير القديم المسقوف بالقصب، وأشجار التفاح والكمثرى التي كان يتسلقها خفيةً. وما إن دخلت العربة حتى هرعتِ من كل الأنحاء كلابٌ من شتى الفصائل والأنواع: بنيّة داكنة وسود ورمادية ومنقّطة، وارتمى بعضها تحت حوافر الجياد وهي تنبح، وبعضها الآخر لاحظ أنّ محور العربة ملطّخ بالدهن فراح يجري خلفها، وأحد الكلاب، وكان يقف قرب المطبخ واضعاً قدمه على قطعة من العظم، راح ينبح من بعيد بكل قوته، وآخر كان ينبح في الخلف وهو يجري إلى الأمام والخلف ويهزّ ذيله كأنه يقول: "انظروا، أيها المسيحيون الصالحون، كم أنا إنسان رائع!" وتراكض صبية في قمصان قذرة ليروا من القادم، وخنزيرة كانت تتجول في الفناء مع خنانيصها الست عشرة رفعت خطمها إلى أعلى، كشخص اختبر الحياة جيداً، وقبعت بصوتٍ أعلى من المعتاد. وكان في الفناء على الأرض الكثير من أجولة القمح والذرة والشعير تُجفَّف في الشمس. وعلى السطح أيضاً كانت هناك أنواع كثيرة من الأعشاب تُركت

لتجفّ، كالشكوريا البرية وحشيشة الخنزير وغيرها.

كان إيفان فيودوروفيتش منهمكاً في تأمّل ذلك كله إلى درجة أنه لم يثب إلى رشده إلا عندما عضّ كلبٌ أرقط اليهوديَّ من بطّة ساقه وهو يترجّل من العربة. وهرعت الخادمات، المؤلفات من الطاهية وفلاحة وفتاتين ترتديان تنّورتين من الصوف، وهنّ يصحنَ: "وي، إنه سيدنا الصغير!"، ثم قلنَ إنّ خالته تنثر بذور الحنطة في الحقل مع الفتاة بالاشكا والحوذي أوميلكو الذي يقوم غالباً بعمل البستاني والحارس معاً. لكن الخالة، التي رأت العربة بسقفها المصنوع من الخيش من بعيد، كانت قد وصلت. وقد انتاب الذهول إيفان فيودوروفيتش حين رفعته خالته على ذراعيها تقريباً، غير مصدّق أنّ هذه هي الخالة التي كتبت له عن شيخوختها وأمراضها.

- ٣ -

الخالة

كانت الخالة فاسيليسا كاشبوروفنا قد بلغت في ذلك الوقت قرابة الخمسين من العمر. لم تتزوج قط وكانت تقول إن الحياة العذرية أغلى عندها من أي شيء آخر. لكنني أذكر أن أحداً لم يتقدّم لخطبتها، وذلك لأن الرجال جميعاً كانوا يشعرون بالحياء والوجل في حضورها ولم يكونوا يتجرؤون على طلب يدها أبداً. وكان الخُطّاب يقولون: "إن فاسيليسا كاشبوروفنا على خُلقٍ عظيم!"، وكانوا محقين تماماً، فقد كانت قادرة على جعل أيٍّ كانَ أشدّ صمتاً وهدوءاً من العشب. فالطحّان السكّير، الذين لم يكن ينفع لشيء مطلقاً، ظلّت تمسك به من ناصيته بيديها القويتين فقط، ودون أن تستخدم أي وسيلة أخرى، وتهزّه هزّاً إلى أن جعلت منه ذهباً، لا إنساناً فحسب. كانت فارعة الطول، ضخمة الجثة، وكانت بدانتها وقوتها تناسبان تماماً طولها الفارع. وبدا أن الطبيعة قد ارتكبت خطأً لا يغتفر، إذ قدّرت لها أن ترتدي معطفاً بنياً داكناً قصير

الأهداب في أيام العمل، وشالاً من الكشمير الأحمر في عيد الفصح وعيد شفيعها، في حين أنها كان يلائمها أكثر أن يكون لها شارب كشوارب الخيّالة وأن تنتعل جزمةً طويلة الساقين. ثم إن مشاغلها كانت تلائم مظهرها تماماً؛ فقد كانت تجذف القارب بنفسها، وكانت براعتها في التجذيف تفوق براعة أي صياد سمك؛ وتصطاد الطرائد؛ وتشرف بصرامة على الحصّادين؛ وتعرف بدقة عدد حبّات الشمّام والبطيخ في البستان؛ وتأخذ رسماً مقداره خمسة كوبيكات عن كل عربة تجتاز جسرها؛ وتتسلق الأشجار وتهزها لتسقط ثمار الكمثرى؛ وتضرب الأقنان الكسالى بيديها المخيفتين وتقدّم باليد المخيفة نفسها قدحاً من الفودكا لمن يستحق منهم. كانت في الوقت نفسه تقريباً توبّخ العمال وتصبغ النسيج المغزول وتهرع إلى المطبخ لصنع "الكفاس" ومربّى العسل، وتسعى جاهدةً النهار بطوله، وتلحق أن تقوم بالأعمال كلها. وكانت نتيجة ذلك أنّ مزرعة إيفان فيودوروفيتش الصغيرة، المؤلفة من ثماني عشرة نَفْساً حسب الإحصاء الأخير، ازدهرت بكل معنى الكلمة. فضلاً عن أن الخالة كانت تحب ابن أختها بحرارة وتحرص كثيراً على ماله.

بوصوله إلى دياره تغيّرت حياة إيفان فيودوروفيتش كلياً واتّخذت منحىً مغايراً تماماً، وبدا أنه قد خُلق بالذات لكي يشرف على مزرعة تضم ثماني عشرة نفْساً. بل حتى خالته لاحظت أنه سيغدو مزارعاً جيداً، رغم أنها لم تكن تسمح له بعد بالتدخل في كل مجالات إدارة المزرعة، وكانت تقول: "ما زال طفلاً، فأنّى له أن يعرف كل شيء"، رغم أن إيفان فيودوروفيتش كان قد بلغ الأربعين من العمر على أقل تقدير.

كان لا يفارق الحقول وكان يتواجد دائماً بين الحاصدات والحاصدين، وكان ذلك يغمر نفسه الوديعة بسعادة لا يعرف سببها. الحركة المتناغمة لأكثر من عشرة مناجل متألقة؛ خشخشة العشب المتساقط في حشّات متساوية؛ أغنيات الحاصدات المنسابة من حين إلى آخر، التي تكون مرحة تارةً، كاستقبال ضيف، وحزينة تارةً أخرى، كفراق الأحبة؛ المساء الهادئ الصافي، ويا له من مساء! ويا له من هواءٍ طلقٍ ومنعش! وكم يكون كل شيء حيوياً منتعشاً آنذاك: السهب يحمرّ ويزرقّ ويتوهّج بالألوان؛ طيور السُّماني والحبارى والنوارس والجنادب وآلاف الحشرات تصفر وتطنّ وتصرصر وتصيح، لتغدو فجأةً جوقة متناغمة، ولا يسكت أيٌّ منها لحظة واحدة. وتهبط الشمس ثم تغرب. ياه، ما ألطف هذا وأروعه! وفي الحقول، هنا وهناك، تُوقَد النيران وتوضَع عليها القدور الكبيرة، وحول القدور يجلس الحصّادون ذوو الشوارب، وينبعث البخار من لقيمات القاضي، ويحلّ الليل شيئاً فشيئاً... يتعذر القول ما كان يحدث في نفس إيفان فيودوروفيتش. كان ينضمّ إلى الحصّادين، ناسياً تناول لقيمات القاضي التي يحبها كثيراً، ويقف بلا حراك يراقب نورساً يغيب عن الأنظار في السماء، أو يعدّ حزم القمح المحصود المتناثرة في الحقل.

سرعان ما ذاع صيت إيفان فيودوروفيتش كمزارع عظيم. ولم تكن الخالة تشبع من إظهار فرحتها بابن أختها ولمّ تكن تفوّت فرصةً للتفاخر به. وذات يوم – وكان ذلك في آخر موسم الحصاد، وبالتحديد في أواخر شهر تموز – أمسكت فاسيليسا كاشبوروفنا بيد إيفان فيودوروفيتش، ووجهها ينمّ عن أنها تريد أن تبوح له بسرّ،

وقالت إنها تريد مفاتحته في أمر يشغل بالها منذ وقتٍ طويل، وشرعت تقول:

– إنك تعلم، يا عزيزي إيفان فيودوروفيتش، أنّ في مزرعتك ثماني عشرة نفْساً، وهذا بموجب إحصاء هيئة التفتيش، لكنها في الواقع أكثر من ذلك، ولعل عددها أربعة وعشرون نفْساً. لكن ليست هذه هي المسألة. إنك تعرف ذاك الدغل الصغير الواقع خلف مزرعتنا، ولا شك أنك تعرف المرج الفسيح الذي يلي الدغل؛ تبلغ مساحته ليس أقل من عشرة هكتارات، وهو كثيف العشب بحيث أن في الإمكان بيع ما قيمته أكثر من مئة روبل في السنة، لا سيما وأن فرقة خيّالة ستعسكر في غادياج كما يقال.

– طبعاً أعلم يا خالتي. العشب هناك جيد جداً.

– وأنا أيضاً أعلم أن العشب هناك جيد جداً، ولكن هل تعلم أن تلك الأرض كلها هي في الواقع ملكٌ لك؟ ما لك تحملق هكذا؟ اسمع يا إيفان فيودوروفيتش، هل تذكر ستيبان كوزميتش؟ ما هذا الذي أقوله! طبعاً لا تذكره، فقد كنت آنذاك أصغر من أن تنطق باسمه. أجل، فأنا أذكر أنني قَدِمت إليكم تماماً عشية رأس السنة، قبل عيد القديس فيليب[1]، وحملتك على ذراعي، وكدت أن تتلف ثوبي؛ لكنني – لحسن الحظ – لحقت أن أسلمك إلى المربية ماتريونا. إلى هذه الدرجة كنت طفلاً مشاكساً آنذاك!... لكن ليس هذا هو الموضوع. الموضوع أنّ الأراضي الواقعة خلف مزرعتنا بل وقرية خورطيش

١ يصادف رأس السنة السلافية ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر (٢٧ في التقويم القديم)، وهو مكرّس للقديس فيليب، ويسمّى "كوديليتسا" و"فيليبوفكا". وكان يوماً للصوم والدعاء للشفاء من الأمراض. (م)

نفسها كانت ملك ستيبان كوزميتش، ولا أخفيك أنه، قبل مجيئك إلى الدنيا، كان يتردد على والدتك، والحق أنه كان يفعل ذلك عندما يكون أبوك غائباً عن البيت. ولست أقول ذلك قدحاً فيها - رحمة الله عليها! - رغم أن المرحومة لم تكن منصفة في حقي دائماً. لكن ليس هذا هو الموضوع. الموضوع أنّ ستيبان كوزميتش قد وهبك تلك الأراضي التي حدثتك عنها بموجب عقد هِبة رسمي. لكن المرحومة والدتك - وليكن ما أقوله سرّاً بيننا - كانت امرأة عجيبة الطباع، لم يكن الشيطان نفسه - اغفر لي يا ربّ تفوّهي بهذه الكلمة الشنيعة - ليفهمها، ولا يعلم إلاّ الله أين أخفت ذلك العقد، وأظن أنه في حوزة ذلك الأعزب العجوز غريغوريِ غريغوريفيتش ستورجنكو. لقد آلت هذه الأملاك كلها إلى ذاك الكرِش الوغد، والله يعلم أنني مستعدة للمراهنة بكل شيء إن لم يكن هو من أخفى العقد.

- اسمحي لي أن أسأل يا خالتي: أليس ستورجنكو هذا هو نفسه الذي تعرّفت إليه في المحطة؟

وروى لها إيفان فيودوروفيتش عن اللقاء الذي جمع بينهما، ففكرت الخالة قليلاً ثم أجابت:

- من يدري! لعله ليس وغداً. والواقع أنه لم يمضِ على قدومه للإقامة عندنا إلا ستة أشهر، ويصعب معرفة الشخص في هذه المدة الوجيزة. وقد سمعت أن تلك العجوز، أمّه، امرأة راجحة العقل، ويُقال إنها بارعة جداً في تخليل الخيار. أما السجاجيد، فإنّ فتياتها يتقنَّ صنعها بصورة رائعة. ولكن بما أنك تقول إنه رحّب بك أجمل ترحيب، فاذهب إليه، فربما يستمع هذا الآثم العجوز إلى ضميره ويتنازل لك عمّا ليس ملكه. يمكنك الذهاب بالعربة إن شئت، ولو أنّ

الأولاد الملاعين قد نزعوا المسامير الخلفية كلها. يجب أن أطلب من الحوذي أوميلكو أن يستخدم نوعية أفضل من الجلد لتثبيت المسامير.

– لا داعي يا خالتي. سأستقلّ العربة الصغيرة التي تخرجين بها إلى الصيد أحياناً.

بهذا انتهى حديثهما.

- ٤ -

الغداء

وصل إيفان فيودوروفيتش قرية خورطيش وقت الغداء، وأحس بشيء من التهيّب وهو يقترب من بيت سيد الضيعة. وكان البيت مستطيلاً ولم يكن سقفه من القصب، كما هو حال بيوت الكثير من الملاّكين المجاورين، وإنما من الخشب، وكان سقف العنبرين القائمين في الفناء كذلك من الخشب؛ وكانت الأبواب من خشب السنديان. كانت حال إيفان فيودوروفيتش كحال الرجل المتأنّق الذي حين ذهب إلى حفلة رقص وجد أن الجميع هناك أكثر تأنقاً منه. لذا أوقف عربته بجوار أحد العنبرين احتراماً وتوجّه إلى الباب الأمامي سيراً على قدميه.

"آه! إيفان فيودوروفيتش!" صاح غريغوري غريغوريفيتش البدين، الذي كان يسير في الفناء مرتدياً سترة، لكن من دون ربطة عنق، وصديرية وحمّالة. بيد أن حتى ملابسه هذه كانت تُثقل على جسمه المكتنز، فقد كان يتصبّب عرقاً بغزارة. "كيف قلت لي إنك ستقوم

بزيارتي ما إن ترى خالتك، ولم تفعل؟" بعد هذه الكلمات التقت شفتا إيفان فيودوروفيتش مرة أخرى تلك الوسادتين المألوفتين لهما.

– كنت معظم الوقت مشغولاً بشؤون المزرعة... لن آخذ من وقتك إلا دقيقة... الحق أنني جئتك في عمل...

– دقيقة؟ مستحيل. هيه، يا فتى! – صاح السيد البدين، فهرع ذاك الصبيّ نفسه، ذو السترة القوزاقية، من المطبخ. – قل لكاسيان أن يغلق البوابة في الحال، أسمعتني، فليغلقها بإحكام. وحُلَّ عدّة جياد هذا السيد حالاً. أرجو أن تتفضّل إلى الغرفة؛ فالحرّ شديد هنا إلى درجة أن قميصي كله قد ابتلّ.

قرّر إيفان فيودورفيتش، وهو يدخل الغرفة، ألا يضيع الوقت سدى وأن يتصرّف بحزم بغضّ النظر عن وجله.

– لقد تفضّلتْ خالتي... وقالت إن وصية ستيبان كوزميتش...

يتعذر وصف التجهّم الذي شاب وجه غريغوري غريغوريفيتش العريض عند سماعه هذه الكلمات، وأجاب قائلاً:

– إنني، والله، لا أسمع شيئاً. لا بدّ أن أقول لك إن صرصوراً دخل أذني اليسرى. إن الروس الملاعين يربّون الصراصير في شتى أرجاء مزارعهم. إن القلم ليعجز عن وصف مدى شدة الألم، فقد ظل الصرصور يخزني ويخزني. وقد ساعدتني امرأة عجوز بأيسر السبل...

حين رأى إيفان فيودوروفيتش أن غريغوري غريغوريفيتش يتعمّد تغيير الموضوع تجرّأ وقاطعه قائلاً:

– أردت أن أقول إن المرحوم ستيبان كوزميتش ذكر في وصيته عقد هِبة يحقّ لي بمقتضاها أن...

- أعلم أنّ خالتك قد لحقت أن تخبرك بالقصة. لكنها كذبة، والله كذبة! لم يكتب خالي أي عقد هِبة. صحيح أن في الوصية يرد ذكر عقد كهذا، ولكن أين هو؟ لم يبرزه أحد. إنني أقول لك ذلك لأنني أتمنى لك الخير من كل قلبي. والله، إنها كذبة!

صمت إيفان فيودوروفيتش، فقد راح يفكّر أنّ خالته ربما بالفعل قد تهيّأ لها الأمر ليس إلاّ.

قال غريغوري غريغوريفيتش:

- ها هنّ أمّي وأختاي قادمات، وهذا يعني أنّ الغداء جاهز، فهيّا بنا!

وبقوله هذا تأبّط ذراع إيفان فيودوروفيتش وقاده إلى غرفة حيث وُضعت الفودكا والمقبلات على المائدة.

في هذه الأثناء دخلت الغرفة عجوز قصيرة القامة تعتمر قلنسوة، شبيهة تماماً بإبريق القهوة، برفقة آنستين، إحداهما شقراء والأخرى شعرها أسود. تقدّم إيفان فيودوروفيتش أولاً، كفارسٍ حسن التربية، من العجوز وقبّل يدها، ثم قبّل يدي الآنستين.

قال غريغوري غريغوريفيتش:

- هذا جارنا إيفان فيودوروفيتش شبونكا يا أمّي.

أنعمت العجوز النظر في إيفان فيودوروفيتش، أو ربما هذا ما بدا وحسب. بيد أنها كانت الطيبة مجسّدةً، وبدا أن لديها رغبة شديدة في أن تسأل إيفان: ما كمية الخيار التي خللتموها مونةً للشتاء؟ لكنها سألت:

- أتريد أن تشرب الفودكا؟

قال غريغوري غريغوريفيتش:

– لعلك، يا أمّي، لم تنامي كفاية، إذ من يسأل الضيف إن كان يريد أن يشرب أم لا؟ حسبك أن تقدّميها لنا، أما إن شربنا أم لا فهذا شأننا. إيفان فيودوروفيتش، أيهما تفضل أكثر، فودكا حشيشة القِنطاريين أم فودكا تروخيموف؟

ثم التفت إلى الخلف وقال:

– ما لك تقف هكذا يا إيفان إيفانوفيتش؟

رأى إيفان فيودوروفيتش إيفان إيفانوفيتش يقترب إلى حيث الفودكا، وكان يرتدي سترة رسمية طويلة الأذيال ياقتها عريضة جداً إلى درجة أنها كانت تغطي عنقه كلها، حتى بدا أن رأسه يجلس في الياقة كما يجلس المرء في عربة.

اقترب إيفان إيفانوفيتش من الفودكا، وفرك يديه، وتفرّس في القدح جيداً، ثم ملأه ورفعه إلى حيث الضوء وأفرغ القدح دفعةً واحدة في فمه، إلا أنه لم يجرع الفودكا في الحال وإنما تغرغر بها جيداً، وبعد ذلك فقط ابتلعها، ثم تمزمز بقطعة خبز مع فطر مملّح والتفت إلى إيفان فيودوروفيتش وسأله:

– أليس إيفان فيودوروفيتش، السيد شبونكا، هو من أتشرّف بالتحدث إليه؟

– بالضبط، أجاب إيفان فيودوروفيتش.

– لقد تغيّرت كثيراً منذ أن رأيتك آخر مرة.

ثم أردف:

– كيف لا، فأنا أذكرك منذ أن كنت بهذا الطول!

ورفع يده عن الأرض بمقدار أرشين[1].

– كان والدك المرحوم، أدخله الله ملكوت السماء، إنساناً نادراً. كان يوجد لديه دائماً بطيخ وشمّام لا تجد لهما مثيلاً الآن في أيّ مكان.

ثم تنحّى به جانباً وقال:

– وهنا أيضاً يقدّمون بطيخاً، ولكن يا له من بطيخ! لا يرغب المرء في النظر إليه!

ثم قال كمن يبوح بسرّ باسطاً ذراعيه كأنما يريد معانقة شجرة غليظة الجذع:

– أتصدّق، يا سيدي الكريم، أن البطيخ في بستانه، والله، كان بهذا الحجم.

قال غريغوري غريغوريفيتش وهو يمسك بيد إيفان فيودوروفيتش:

– فلنجلس إلى المائدة.

مضى الجميع إلى غرفة الطعام. جلس غريغوري غريغوريفيتش في مكانه المعتاد، في طرف المائدة، ووضع على صدره منديلاً هائل الحجم فبدا شبيهاً بأولئك الأبطال الذين يرسمهم الحلاّقون على آرمات صالوناتهم. وجلس إيفان فيودوروفيتش في المكان الذي أُشير له إليه قبالة الشابتين، محمرّاً من الخجل، ولم يلبث إيفان إيفانوفيتش أن اتّخذ له مكاناً بجواره مسروراً في قرارة نفسه بوجود من يطلعه على معارفه.

قالت العجوز موجهةً كلامها إلى إيفان فيودوروفيتش الذي كان

---

١ الأرشين= ٧١ سنتيمتراً. (م)

الخادم، الذي كان يرتدي بذلة سهرة رمادية مرقعة برقعة سوداء، يقدّم له في هذه اللحظة صحفة من الطعام:

– عبثاً أخذت مؤخرة الطائر يا إيفان فيودوروفيتش! إنه ديك رومي! خذ الظهر!

فقال غريغوري غريغوريفيتش:

– لم يطلب منكِ أحد أن تتدخلي يا أمّي، كوني على يقين بأن الضيف يعرف ماذا يريد أن يتناول! خذ الجناح يا إيفان فيودوروفيتش، ذاك الجناح، الذي مع الحوصلة! ما لك وضعت القليل في صحنك؟ خذ الفخذ! ما لك تقف هكذا فاغر الفم أيها الوغد؟ هيا اعزم عليه، اجثُ على ركبتيك وقل له: "تناول الفخذ يا إيفان فيودوروفيتش".

فجثا الخادم الذي يحمل الطبق على ركبتيه وصاح:

– تناول الفخذ يا إيفان فيودوروفيتش.

وغمغم إيفان إيفانوفيتش بصوتٍ خفيض في ازدراء ملتفتاً إلى جاره:

– همم، ما هذا الديك الرومي؟ أهكذا يكون الديك الرومي؟ آه لو رأيت الديكة الرومية التي لديّ! أؤكد لك أنّ الشحم في كلٍّ منها أكثر مما في عشرة ديكة كهذا. هل تصدق، يا سيدي، أن مجرد النظر إليها وهي تتجول في الفناء يثير الغثيان لشدة اكتنازها بالشحم!..

قال غريغوري غريغوريفيتش الذي كان ينصت إلى كلامه:

– إنك تكذب يا إيفان إيفانوفيتش!

رغم ذلك واصل إيفان إيفانوفيتش حديثه إلى جاره، متظاهراً أنه لم يسمع ما قاله غريغوري غريغوريفيتش:

– أقول لك إن الواحد منها، عندما بعثت بها إلى غادياج في العام

الماضي، دُفع فيه خمسون كوبيكاً، ورغم ذلك رفضت بيعها.

فقال غريغوري غريغوريفيتش بصوتٍ عالٍ مُقطِّعاً كلامه لمزيدٍ من الإيضاح:

– أقول لك إنك تكذب يا إيفان إيفانوفيتش.

لكن إيفان إيفانوفيتش تظاهر بأن هذا الكلام لا يخصّه وتابع على نفس المنوال وإن بصوتٍ أخفض من ذي قبل:

– بالضبط يا سيدي، رفضت بيعها. فما من ملاّك واحد في غادياج لديه...

فقال غريغوري غريغوريفيتش بصوتٍ أعلى:

– لعمري إنك لست أكثر من أحمقٍ يا إيفان إيفانوفيتش! فإيفان فيودوروفيتش أخبر منك في هذه المسائل كلها، ومن المؤكد أنه لا يصدّقك.

وهنا شعر إيفان إيفانوفيتش بالإساءة تماماً فصمت وانكبّ على الديك يزدرده على الرغم من أنه لم يكن شحيماً كديوكه التي ينفر المرء من النظر إليها.

حلت قرقعة السكاكين والملاعق والأطباق محلّ الحديث بعض الوقت؛ لكن الصوت الأعلى كان صوت مصمصة غريغوري غريغوريفيتش للنخاع من عظم الضأن.

بعد برهة من الصمت سأل إيفان إيفانوفيتش، وهو يبرز رأسه من ياقته الشبيهة بالعربة، إيفان فيودوروفيتش:

– هل قرأت كتاب **رحلات كوروبينيكوف إلى الأماكن المقدّسة**[1]. إنه

---

١ رحلات الراهب الموسكوفي تريفون كوروبينيكوف ورفاقه إلى القدس ومصر وسيناء في العام ١٥٨٣، صدرت طبعته الأولى سنة ١٧٨٣. (محرر النص الروسي)

متعة حقيقية للنفس والقلب! لم يعودوا ينشرون كتباً كهذه في أيامنا. من المؤسف جداً أنني لم أنظر إلى سنة صدوره.

ما إن سمع إيفان فيودوروفيتش أن الحديث يدور حول كتاب حتى أقبل على المرق المتبّل بهمة ونشاط.

- إنه أمر مذهل حقاً، يا سيدي، حين يفكّر المرء أن مواطناً بسيطاً قد زار هذه الأماكن كلها. إنها أكثر من ثلاثة آلاف فرسخ يا سيدي! أكثر من ثلاثة آلاف فرسخ! لا شك أن الله بجلال قدره هو من يسّر له سبيل بلوغ فلسطين وبيت المقدس.

قال إيفان فيودوروفيتش الذي سبق له أن سمع الكثير عن بيت المقدس من مُراسله في الخدمة العسكرية:

- إذن فأنت تقول إنه زار بيت المقدس أيضاً؟...

سأل غريغوري غريغوريفيتش من مكانه في طرف الطاولة:

- ماذا تقول يا إيفان فيودوروفيتش؟

- أقول إنني سنحت لي الفرصة لمعرفة ما في العالم من أماكن بعيدة. - قال إيفان فيودوروفيتش مسروراً من كل قلبه أنه أفلح في قول عبارة طويلة ومعقدة كهذه. فقال غريغوري غريغوريفيتش الذي لم يسمع جيداً ما قيل:

- لا تصدّقه يا إيفان فيودوروفيتش، إنه لا يكفّ عن الكذب.

أنهى الحضور غداءهم في هذه الأثناء، ومضى غريغوري غريغوريفيتش إلى غرفته ليأخذ قيلولة على جري عادته، وتبع الضيفان صاحبة البيت العجوز والشابتين إلى غرفة الاستقبال، حيث تلك الطاولة نفسها التي تركوا عليها الفودكا، حين مضوا لتناول الغداء، فوجدوها، كأنما بفعل السحر، عامرةً بأطباق صغيرة من شتى أصناف

المربّى وبصحاف الكرز والبطيخ والشمّام.

كان غياب غريغوري غريغوريفيتش ملحوظاً في كل شيء. فقد أصبحت صاحبة البيت أكثر ميلاً إلى الكلام وباحت، من تلقاء ذاتها ودونما سؤال، بالكثير من الأسرار المتعلقة بصنع المعجون وتجفيف الكمثرى. بل حتى الآنستان أخذتا تتكلمان، لكن الشقراء، التي كانت أصغر من أختها بستّ سنوات وبدا من مظهرها أنها في قرابة الخامسة والعشرين، كانت أميل إلى الصمت.

إلا أن أكثرهم كلاماً ونشاطاً كان إيفان إيفانوفيتش، وإذ كان واثقاً الآن أنّ أحداً لن يقاطعه أو يزعجه فقد أخذ يتحدث عن الخيار وعن زراعة البطاطا، وعن مدى حصافة الناس في غابر الأيام – أين منهم أناس زماننا! – وعن أن كل شيء يغدو أشد ذكاءً بمرور الزمن ويتم اختراع أشياء أكثر دقةً وتعقيداً. قصارى القول، كان الرجل من أولئك الذين يحبون، بسرورٍ بالغ، الخوض في الأحاديث التي تنعش القلب، ويتحدثون عن كلّ ما يمكن التحدث عنه. وحين يتعلق الحديث بموضوعات ذات شأن أو بمسألة من مسائل الدين، فإن إيفان إيفانوفيتش كان يتنهّد بعد كل كلمة وهو يهزّ رأسه هزاً خفيفاً. أما إذا كان يتعلق بالشؤون المنزلية فكان يمدّ رأسه من ياقته الشبيهة بالعربة ويرسم على وجهه ملامح يشعر المرء عند النظر إليها أنه يستطيع أن يقرأ فيها كيفية صنع شراب الكمثرى، ومدى كبر حجم البطيخ الذي كان يتحدث عنه، وكم هي مكتنزة طيور الإوز التي تجري في فنائه.

أخيراً، وبصعوبة كبيرة، تمكّن إيفان فيودوروفيتش من توديعهم عند حلول المساء. ورغم أنه شخص مطواع سهل الانقياد، ورغم إلحاحهم الشديد للمبيت عندهم، إلاّ أنه أصرّ على رأيه وغادر.

— ٥ —

خطّة الخالة الجديدة

– ماذا؟ هل انتزعت العقد من الشيخ النحس؟

بهذا السؤال استقبلت إيفان فيودوروفيتش الخالةُ التي كانت في انتظاره نافدة الصبر تحت سقيفة البوابة منذ بضع ساعات ولم تتمالك نفسها أخيراً فهرعت نحوه.

قال إيفان فيودوروفيتش وهو يترجل من العربة:

– كلا يا خالتي. لا يوجد عقد كهذا عند غريغوري غريغوريفيتش.

– وهل صدقته؟ إنه يكذب، الملعون! لا بدّ أن يقع في يدي يوماً، وحينها سأشبعه ضرباً بقبضتي هاتين. أوه، سأُخلّصه من بعض الدهن! بالمناسبة، يجب التحدث أولاً إلى معاون قاضي ناحيتنا لنرى إن كان في إمكاننا مقاضاته... لكن ليس هذا الموضوع الآن. وإذن، هل كان الغداء شهياً؟

– جداً، بل رائعاً، يا خالتي.

– ماذا تناولتم؟ هيّا أخبرني، فأنا أعلم أن العجوز فنانة في الطهي.

- كانت هناك رقائق الجبن بالقشدة المختثرة يا خالتي، وحمام محشو مع الصلصة...

- وهل قدّموا الديك الرومي بالخوخ؟ سألت الخالة لأنها هي نفسها كانت بارعة في إعداد هذا الطبق.

- وكان هناك ديك رومي أيضاً!... إن أختَي غريغوري غريغوريفيتش بالغتا الحسن، لا سيما الشقراء!

- آه! قالت الخالة وهي تتفرّس في إيفان فيودوروفيتش الذي أرخى بصره وقد احمرّ خجلاً. وهنا ومضت فكرة جديدة في رأس الخالة فسألت بحيوية وفضول: هيّا حدّثني، ما شكل حاجبيها؟

لا يمنع أن نقول إن الخالة كانت تضع جمال حاجبي المرأة في المرتبة الأولى.

- حاجباها، يا خالتي، تماماً كحاجبيك في شبابك حسبما وصفتِ لي، ويغشى وجهها كله نمشٌ صغير.

"آها!" قالت الخالة، وقد سرتها ملاحظة إيفان فيودوروفيتش الذي، بالمناسبة، لم يخطر بباله قط أن يجاملها.

- وأي ثوب كانت ترتدي؟ وإن كان من المتعذر اليوم العثور على أنواع متينة من الأقمشة، لنقل كالذي صُنع منه معطفي على الأقل. لكن ليس هذا هو موضوعنا. هل تحدثتما في شيء؟

- ماذا تقصدين؟... إنني يا خالتي... لعلك تظنين...

- وماذا في ذلك؟ أي غرابة في ذلك؟ هذه سنّة الحياة! وربما كُتب لكما منذ الولادة أن تكونا زوجين.

- أستغرب، يا خالتي، أن تقولي كلاماً كهذا. إن هذا يثبت لي أنك لا تعرفينني على الإطلاق...

– وي! لقد تضايق! قالت الخالة، وفكّرت: "ما زال طفلاً، ولا يفقه شيئاً. يجب الجمع بينهما، فليتعارفا!" ومضت الخالة تلقي نظرة على المطبخ تاركةً إيفان فيودوروفيتش بمفرده. لكنها منذ تلك اللحظة لم تعد تفكر إلا في أن ترى ابن أختها متزوجاً بأسرع ما يمكن، وأن تربّي أحفادها الصغار، فلم يعد يشغل بالها إلاّ الإعداد للزفاف، ولوحظ عليها أنها ازدادت انهماكاً في الأمور كلها أكثر بكثير من ذي قبل، ولو أن ذلك جعل الأمور تسير أسوأ من السابق، لا أفضل. فكانت كثيراً، وهي تعدّ فطيرة، أيّاً كان نوعها، وهو عمل لم تكن تثق قط بالطاهية أن تقوم به، تسهو عن نفسها وتتخيّل أن أحد أحفادها الصغار يقف إلى جوارها طالباً قطعة من الفطيرة، فتمدّ له يدها بألذّ قطعة منها شاردة اللب، فكان كلب الحوش ينتهز الفرصة ويختطف القطعة اللذيذة، فيوقظها من شرودها بطقطقة أسنانه، الأمر الذي كان دائماً يعرّضه للضرب بمسعر النار. بل إنها حتى تخلّت عن هوايتها المحببة وكفّت عن الذهاب إلى الصيد، لا سيما عندما أصابت غراباً ظانةً إياه حجلاً، وهو أمر لم يحدث لها من قبل قط.

أخيراً، بعد مرور أربعة أيام، رأى الجميع عربتها تخرج متهاديةً من الحظيرة إلى الفناء. وكان الحوذي أوميلكو، وهو نفسه البستاني والحارس أيضاً، منذ الصباح الباكر يطرق بالمطرقة مثبتاً قطع الجلد بالمسامير، وهو يطرد الكلاب التي لا تنفكّ عن لعق العجلات. وأرى أن من واجبي أن أوضح للقرّاء أن هذه العربة هي العربة نفسها التي كان يركبها أبونا آدم؛ لذا إن قدّم أحد عربةً أخرى زاعماً أنها عربة آدم، فإن هذا كذبٌ محض، والعربة مزيفة حتماً، وإننا نجهل تماماً كيف نجت من الطوفان، وليس أمامنا إلا أن نعتقد أنها كانت لها حظيرة

خاصة بها في سفينة نوح، وكم يؤسفني أنني عاجز عن رسم صورة حية لها للقرّاء. حسبنا أن نقول إن فاسيليسا كاشبوروفنا كانت راضية جداً عن شكل عربتها، وكانت تعرب دائماً عن أسفها لتحول العربات العتيقة إلى موضة قديمة. إن بناء العربة نفسه كان مائلاً بحيث يعلو الجانب الأيمن الجانب الأيسر بكثير، وكان هذا يعجبها كثيراً، لأن قصار القامة، حسب قولها، يستطيعون أن يركبوا من أحد الجانبين، فيما يركب طوال القامة من الجانب الآخر. وبالمناسبة، كانت العربة تتسع لخمسة أشخاص قصيري القامة أو ثلاثة في حجم الخالة.

عند الظهيرة تقريباً أخرج أوميلكو من الإسطبل ثلاثة جياد ليست أكثر شباباً من العربة بكثير وأخذ يشدّها إلى العربة الفخمة. ركب إيفان فيودوروفيتش وخالته العربة، هو من الجانب الأيمن وهي من الأيسر، وتحركت العربة. الفلاحون الذين كانوا يصادفون في الطريق هذا الموكب البهيّ (فالخالة كانت نادراً ما تتجول بالعربة) كانوا يتوقفون في إجلال ويخلعون قبعاتهم وينحنون حتى خصورهم. وبعد مسير ساعتين توقفت العربة أمام البوابة، وأعتقد أن لا حاجة للقول إنها كانت بوابة منزل ستورجينكو. ولم يكن غريغوري غريغوريفيتش في البيت، وخرجت السيدة العجوز والآنستان لاستقبال الضيوف في غرفة الطعام. دخلت الخالة في مهابة وأخذت تخطو ببراعة كبيرة وهي تقول بصوت عالٍ:

- يسعدني كثيراً، يا سيدتي، أن أتشرّف شخصياً بالإعراب عن احترامي لكِ، وأن أشكرك في الوقت نفسه على استضافتك الكريمة لابن أختي إيفان فيودوروفيتش الذي أثنى على كرمك كثيراً. إن حنطتكم السوداء رائعة يا سيدتي! لقد رأيتها في طريقي إلى القرية.

واسمحي لي أن أسألك، كم كيساً يعطي الهيكتار الواحد؟

أعقب ذلك تبادل القبلات بين الجميع، وما إن استقر الجميع في غرفة الاستقبال حتى شرعت ربة البيت العجوز تقول:

- فيما يتعلق بالحنطة السوداء، لا يمكنني أن أخبرك شيئاً؛ فهذا عمل غريغوري غريغوريفيتش، فقد توقفت عن الانشغال بهذه الأمور منذ وقت طويل، بل ولم أعد قادرة على ذلك، فقد تقدّمت بي السنّ! أذكر أن سنابل القمح عندنا فيما مضى كانت تبلغ خصر الإنسان، أما الآن فالله أعلم. رغم أنهم يقولون أن كل شيء أفضل مما في السابق...

وتنهدّت العجوز، ويمكن لأيٍّ كان أن يقرأ في هذه التنهيدة الأسى على القرن الثامن عشر الغابر.

قالت فاسيليسا كاشبوروفنا: "سمعت، يا سيدتي، أن فتياتك يتقنَّ صنع السجاجيد!" وقد لامست بذلك الوتر الحساس للعجوز. لذا، عند سماعها هذا الكلام، دبّت فيها الحياة وانطلقت في الحديث عن كيفية صباغة النسيج وكيفية غزل الخيوط لأجل ذلك. وسرعان ما انتقل الحديث من السجاجيد إلى الخيار والكمثرى المجففة. قصارى القول، لم تمضِ ساعة حتى كانت السيدتان تتحدثان كأنما تعرفان بعضهما بعضاً منذ الأزل. وقد بدأت فاسيليسا كاشبوروفنا تحدّثها بصوتٍ خافت بحيث تعذّر على إيفان فيودوروفيتش سماع ما تقول.

قالتِ العجوز وهي تنهض واقفةً:

- هل تودين أن تلقي نظرة؟

ونهضت في إثرها الآنستان وفاسيليسا كاشبوروفنا، وتوجّهنَ جميعاً إلى حيث الفتيات يصنعنَ السجاجيد. غير أن الخالة أشارت إلى

إيفان فيودوروفيتش أن يبقى، وقالت شيئاً ما للعجوز بصوتٍ خافت، فقالت العجوز موجّهةً كلامها إلى الفتاة الشقراء:

– ابقي مع الضيف يا ماشنكا وحدّثيه حتى لا يشعر بالملل!

ظلّت الآنسة الشقراء في غرفة الاستقبال وجلست على الأريكة، وجلس إيفان فيودوروفيتش في كرسيه كمن يجلس على الإبر، وقد احمرّ خجلاً وأرخى بصره. لكن لم يبدُ على الفتاة أنها قد لاحظت ذلك مطلقاً وجلست على الأريكة من غير تكلّف وراحت تتفرّس في النوافذ والجدران، أو ترقب القطة التي كان تقفز تحت المقاعد في جبن.

تشجّع إيفان فيودوروفيتش قليلاً وأراد أن يبدأ الحديث، لكن بدا أنه فقد كلماته في الطريق، ولم ترد في باله أيّ فكرة.

طال الصمت أكثر من ربع ساعة، وظلت الفتاة جالسةً في مكانها لا تنبس بكلمة، وفي نهاية المطاف استجمع إيفان فيودوروفيتش شجاعته وقال بصوتٍ تخالطه رجفة:

– كم يكثر الذبابُ في الصيف يا سيدتي!

أجابت الفتاة:

– يكثر جداً! وقد صنع أخي خصيصاً لذلك مذبّة من خف أمّي القديم؛ ومع ذلك ما زال هناك الكثير منها.

وهنا انقطع الحديث تماماً، ولم يستطع إيفان فيودوروفيتش، بأي شكل كان، أن يجد ما يقوله.

أخيراً عادت العجوز والعمة والآنسة ذات الشعر الأسود. وبعد أن تحدثوا قليلاً أيضاً ودّعت فاسيليسا كاشبوروفنا السيدة العجوز والآنستين، على الرغم من كل دعواتهن إلى البقاء والمبيت. شيّعت

العجوز والآنستان الضيوف إلى البوابة، وظللنَ ينحنينَ طويلاً كلّما أطلّت الخالة وابن أختها من العربة.

سألت الخالة في الطريق:

– وإذن يا إيفان فيودوروفيتش، عمّ تحدثتما أنت والآنسة؟

فقال إيفان فيودوروفيتش:

– إن ماريّا غريغوريفنا فتاة وقورة وخلوقة جداً.

– اسمع يا إيفان فيودوروفيتش، أريد أن أحدثك حديثاً جادّاً. فقد بلغت السابعة والثلاثين، وحصلت على رتبة جيدة في الجيش، وقد حان الوقت للتفكير في الأبناء! لا بدّ لك من زوجة...

صاح إيفان فيودوروفيتش في فزع:

– ماذا يا خالتي! زوجة تقولين! كلا يا خالتي بالله عليكِ... إنك تُخجلينني تماماً... لم يسبق لي أن تزوجت... إنني أجهل تماماً كيفية التصرف معها!

غمغمت الخالة وهي تبتسم: "ستتعلم يا إيفان فيودوروفيتش، ستتعلم" وهي تقول بينها وبين نفسها: "يا له من طفل! إنه يجهل كل شيء!" ثم أردفت تقول:

– نعم يا إيفان فيودوروفيتش، لن نجد لك زوجة أفضل من ماريا غريغوريفنا، لا سيما أنها أعجبتك. وقد تحدثت أنا والعجوز في هذا الموضوع كثيراً، وهي سعيدة جداً بأن تراك صهراً لها؛ رغم أننا لا نعلم بعد ماذا سيقول ذلك العاصي غرغيغوري غريغوريفيتش. لكننا سنجرجره إلى المحكمة حالاً رغماً عنه إذا ما فكّر في عدم تزويجك إيّاها...

في هذه الأثناء كانت العربة تقترب من البوابة، وانتعشت الجياد

المنهكة إذ أحست باقتراب حظيرتها.

– اسمع يا أوميلكو! دع الجياد ترتاح أولاً، ولا تأخذها لتشرب ما إن تنزع عنها أعنتها، فهي لا تزال محمومة!

ثم أردفت الخالة وهي تترجل مَن العربة:

– أما أنت يا إيفان فيدوروفيتش، فإني أنصحك أن تفكّر في الأمر جيداً. وما زال عليّ أن أهرع إلى المطبخ، فقد نسيت أن أطلب من سولوخا أن تعدّ العشاء، وهي، التي لا تنفع لشيء، أعتقد أنها قد سهت عن ذلك.

لكن إيفان فيودوروفيتش كان يقف كمن أصمّه الرعد. صحيح أن ماريا غريغوريفنا فتاة بالغة الحسن، لكن هذا شيء والزواج شيء آخر!... فقد بدا له الأمر غريباً جداً، وعجيباً جداً، بحيث أنه لم يستطع التفكير في ذلك من دون خوف. أن يعيش مع زوجة!... هذا غير مفهوم! فهو لن يكون بمفرده في غرفته، وعليهما أن يكونا معاً في كل مكان!... وكان كلما استغرق أكثر في التفكير يتصبب وجهه بالعرق أكثر.

أوى إلى فراشه أبكر من المعتاد، لكنه رغم محاولاته كلها لم يستطع أن يغفو. وأخيراً زاره النوم، هذا المهدِّئ العام؛ ولكن يا له من نوم! فهو لم يرَ في حياته أحلاماً مبلبلة كهذه. تارةً يحلم بحفلة رقص وكل ما حوله يصخب وأنه يركض ويركض ولا يشعر بقدميه... وها هي قواه تخور، ويمسكه أحدهم من أذنه. "آي، من هذا؟!" فقال له صوتٌ هادر: "إنها أنا، زوجتك!"، فاستيقظ من النوم، وخيّل إليه أنه متزوج فعلاً، وأن كل شيء في بيته غريب وعجيب؛ ففي مخدعه، في مكان السرير المنفرد كان ثمة سرير مزدوج، وعلى الكرسي

تجلس زوجته، وكان الأمر غريباً بالنسبة إليه؛ فهو لا يدري كيف يتوجه نحوها، ماذا يقول لها، ولاحظ أن وجهها كوجه الإوز. يلتفت لاإرادياً إلى الجهة الأخرى فيرى زوجةً أخرى، أيضاً بوجه إوزّة! ثم يلتفت إلى جهة أخرى فيرى زوجه ثالثة، وفي الخلف، أيضاً ثمة زوجة. فامتلأ قلبه رعباً وهرع إلى الحديقة، لكن الجو كان حاراً، فخلع قبعته فرأى أن ثمة زوجة تجلس في القبعة أيضاً. تصبب وجهه بالعرق، فأدخل يده في جيبه ليخرج منديله، وإذا بزوجة في جيبه، ثم أخرج من أذنه قطعة من القطن، وهناك كانت تجلس زوجة أيضاً... فراح يقفز على قدم واحدة فجأةً، فقالت خالته، وهي ترمقه، بوجهٍ مهموم: "أجل، يجب أن تقفز على قدم واحدة لأنك رجل متزوج الآن"، فتوجه نحوها، لكنها لم تعد خالَته وإنما برج ناقوس، وشعر أن أحدهم يجرّه بحبل إلى برج الناقوس. قال إيفان فيودوروفيتش شاكياً: "من هذا الذي يجرّني بحبل إلى برج الناقوس؟". "إنها أنا، زوجتك، من يجرّك، لأنك جرس". فصاح قائلاً: "لا، لستُ جرساً، أنا إيفان فيودوروفيتش!"، فقال قائد فرقة المشاة (ب) وهو يمر في الجوار: "بلى، أنت جرس". ثم تراءى له أن زوجته ليست من جنس البشر مطلقاً، وإنما نسيجٌ من الصوف، ورأى أنه في موغليوف وأنه يدخل حانوتاً، فيقول له صاحب الحانوت: "أي نوع من الأقمشة تريد؟ خذ زوجة، إنها موضة هذه الأيام، إنها متينة جداً! إنهم يخيطون منها المعاطف في هذه الأيام"، ثم قاسَ البائع القماشَ وقصَّ له زوجةً، فتأبطها إيفان فيودوروفيتش وذهب بها إلى خياط يهودي، فقال اليهودي: "لا، إنه قماش رديء ولن يعمد أحد إلى صنع معطف منه...".

أفاق إيفان فيودوروفيتش من حلمه فزعاً مبلبلاً وهو يتصبب عرقاً بارداً بغزارة.

وما إن استيقظ في الصباح حتى توجّه إلى كتاب التنجيم الذي ذيّل أحد باعة الكتب الأفاضل، انطلاقاً من طيبته واستقامته النادرتين، خاتمته بموجز لتفسير الأحلام. لكنه لم يجد في تلك الحاشية أي شيء، حتى ولو كان يمتّ بأي شبه لحلمه المشوّش.

غير أن عقل الخالة، في هذه الأثناء، كان يتفتّق عن خطة جديدة ستتعرفون إليها في الفصل القادم.

المكان المسحور

(قصة حقيقية رواها قندلفت كنيسة...)

أقسم أنني سئمت سرد الحكايات! ماذا تظنون؟ إنه أمر مملّ حقاً: هيا احكي، واحكي، والرفض ممنوع. لذا أستميحكم العذر، فهذه ستكون المرة الأخيرة التي أحكي لكم فيها حكاية. آه نعم، كنتم تقولون إن الإنسان يستطيع التغلّب على الروح الشريرة كما يقال. ربما يكون ذلك صحيحاً، لأننا إن فكّرنا جيداً سندرك أن كل شيء ممكن في الدنيا... ولكن لا تقولوا ذلك. فالقوى الشيطانية إن أرادت أن تمكر بكم وتذهب بعقولكم، فستفعل! وإذن أرجو أن تلاحظوا أن أبي رزق بأربعة أبناء فقط، وكنت ولداً أحمق آنذاك، فقد كنت في الحادية عشرة، بل لم أكن قد أكملت الحادية عشرة. وأذكر، كأن الأمر يحدث الآن، أنني ذات مرة رح أجري على أربع وأنبح كالكلاب، فصاح بي أبي وهو يهز رأسه: "ايه، فوما، فوما، لقد بلغت سنّ الزواج ومازلت تتحامق كمهرٍ صغير!" وكان جدّي آنذاك – يسّر الله قيامته في الآخرة – لا يزال على قيد الحياة وبالكاد يقف على قدميه، وكان يحدث أن يخطر له...

ولكن هل هكذا تُقَصّ القصص! أحدكم يحرّك نار الموقد ساعةً كاملة ملتمساً جمرةً يشعل بها غليونه، وهرع آخر إلى خلف مخزن الحبوب لأمر ما. ما هذا بالله عليكم!... لا بأس لو أنكم كنتم مرغمين على ذلك، ولٰكنكم طلبتم ذلك بأنفسكم. لذا أنصتوا كما ينبغي!

نقل أبي بالعربات في أول الربيع تبغاً إلى القرم لبيعه، ولكنني لا أذكر هل كانت عربتين أم ثلاث. وكان التبغ مرتفع الثمن في تلك الأيام. وأخذ معه أخي الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات، كي يعلّمه التجارة. وبقي في البيت: جدي وأمي وأنا وأخي، نعم وأخي الآخر. وكان جدّي قد زرع بستاناً بجانب الطريق تماماً ومضى يعيش في كوخ هناك، وأخذنا معه لنطرد العصافير والغربان من البستان. ولست أزعم أن ذلك كان أمراً سيئاً، فقد كنا في بعض الأحيان نأكل من الخيار والبطيخ واللفت والبصل والبازلاء حتى نشعر، والله، أن الديكة تصيح في بطوننا. فضلاً عن أن ذلك كان مربحاً لنا. فقد كان مسافرون كثر يجتازون الطريق وكل منهم يريد الحصول على بطيخة أو شمّامة. كما أن الناس من القرى المجاورة كانوا يحملون إلينا الدجاج والديكة الرومية والبيض لمقايضتها. كنا نعيش عيشة طيبة.

ولكن أكثر ما يطيب لجدّي هو أن قرابة خمسين حوذياً كانوا يمرّون بنا كل يوم وهم ينقلون غلال المزارع إلى السوق. وهؤلاء أناسٌ خبروا الدنيا وعركتهم الحياة: يكفي أن يرهف المرء أذنيه حتى يبدأ واحدهم بسرد القصص. وكان فرح جدّي بهذه القصص كفرح الجائع بلقيمة من لقيمات القاضي. وكان يحدث في بعض الأحيان أن يلقى جدّي أصدقاءه القدماء - والجميع يعرفون جدّي - ولكم أن تحكموا بأنفسكم كيف تكون الحال حين يلتقي الأصدقاء القدماء:

يتحدثون عن هذا وذاك، وما جرى آنئذ وحينذاك، كذا وكيت... ويَدلقون الكلام، فيذكرون أموراً لا يعلم إلا الله متى وقعت؟...

وذات يوم - والحق أنني أذكر ذلك كأنه حدث اليوم - وكانت الشمس قد أخذت في الغروب، وراح جدّي يجول في الحديقة ينزع أوراق الشجر التي كان قد غطّى بها البطيخ أثناء النهار حتى لا تلفحه حرارة الشمس.

قلت لأخي: "انظر يا أوستاب، هاهم بعض الحوذية قادمون".

- أين الحوذية؟ سأل جدّي وهو يضع علامة على بطيخة كبيرة حتى لا يأكلها الغلمان عَرَضاً.

كانت ست عربات بالضبط قادمة في الطريق، وكان في المقدمة حوذي كلّل الشيب شاربه، ولمّا بلغ مسافة خطوات - كيف أشرح ذلك، بل أقل من عشر خطوات - منا، توقف.

- مرحباً يا مكسيم. ها قد قدّر الله لنا مكاناً نلتقي فيه!

زرّ جدّي عينيه.

- آه، أهلاً وسهلاً، من أين أنت قادم؟ وبولياشكا أيضاً هنا! أهلاً وسهلاً يا أخي! يا للشيطان! إنهم جميعاً هنا: كروتوتريشنكو وبيشيريتسيا وكوفيليك وستيتسكو! مرحباً! آها، آها... اوهو، اوهو... - وراحوا يقبّل بعضهم بعضاً.

ثم حلّوا سروج الثيران وأطلقوها ترعى. تركوا العربات في الطريق، أما هم فجلسوا في حلقة أمام الكوخ وأخذوا يدخنون غلايينهم. ولكم أين منهم الغلايين الآن؟ فقد استغرقوا في رواية القصص وفضول الحديث، ذاهلين عن غلايينهم.

وبعد أن تناول الضيوف وجبةً خفيفة، أتحفهم جدّي بالبطيخ،

فأخذ كل منهم بطيخة وشرع يقشرها بسكينه ببراعة (كانوا جميعاً رجالاً محنكين، خبروا العالم، ويعرفون كيف يتناولون الطعام، بل هم مستعدون حتى للجلوس إلى مائدة سيد من النبلاء)، وعند انتهاء كل منهم من تقشير بطيخته جيداً أحدث فيها ثقباً بإصبعه وشرب ماءها، وأخذ يقطعها قطعاً ويضعها في فمه.

قال جدّي: "ما بالكما، أيها الصبيان، تقفان هكذا فاغري الفم؟ هيا ارقصا أيها الجروان! أين مزمارك يا أوستاب؟ هيا ارقصا رقصة "كازاجكا"! هيا يا فوما، ضع ذراعيك في خاصرتك! أحسنت! هيلا هوب!"

كنت في تلك الأيام صغيراً خفيف الحركة. الشيخوخة الملعونة! لم يعد خطوي اليوم كما كان في السابق؛ فبدلاً من الالتفافات والدورانات كلها لا تعرف قدماي الآن إلا الزلل والعثار. ظلّ جدّي يرنو إلينا طويلاً وهو جالس مع الحوذية، ولاحظت أن ساقيه لا تثبتان في مكانهما، كأنما ثمة ما يجذبهما.

قال أوستاب: "سترى يا فوما أن الشيخ النحس لن يلبث أن يرقص"، فما قولكم؟ لم يلحق أوستاب أن ينهي كلامه حتى عيل صبر الشيخ. أراد أن يتباهى بنفسه أمام أصدقائه كما تعلمون.

قال وهو ينهض واقفاً ويبسط ذراعيه وينقر بكعبيه:

– ايه أيها الولدان الملعونان! أهكذا يكون الرقص؟ انظرا كيف يكون الرقص!

ولم يكن هناك غبار على رقصه، فقد رقص كما لو أنه يراقص زوجة زعيم القوزاق. أفسحنا له المجال، وانطلق الشيخ يدور بساقيه في البقعة الملساء كلها التي تجاور مساكب الخيار، وما إن بلغ وسط

البقعة وأراد أن يقفز ويفتل ساقيه في الهواء ليقوم بواحدة من حركاته، حتى أبت ساقاه أن ترتفعا عن الأرض مهما حاول. يا للسخف! حاول مرة أخرى، وبلغ وسط البقعة، لكن قدماه لم تطاوعاه! مهما حاول: لم تطاوعاه، أجل، لم تطاوعاه! وبدتا كأنما من الخشب: "أترون، إنه مكان شيطاني! إنها مكيدة من مكائد الشيطان! إن هيرودتس، عدو الجنس البشري، له يد في هذا الأمر!".

لكن كيف له أن يرضى لنفسه العار أمام الحوذية؟ لذا بدأ من جديد، وراح يقفز قفزات دقيقة، صغيرة، متعة للناظرين؛ ثم إلى الوسط من جديد: كلا، عجز عن الرقص، وكفى!

– آه، أيها الشيطان الملعون! ألا فلتختنق ببطيخة فاسدة، ليتك هلكت وأنت بعد صغير يا ابن الكلب! انظروا كيف جللني بالعار في شيخوختي!

والواقع أنّ ثمة من ضحك في الخلف. تلفّت جدي حوله فلم يرَ البستان ولا الحوذية. لم يكن هناك أي شيء؛ نظر إلى الأمام، إلى الخلف، إلى اليمين واليسار – لا شيء سوى السهل المنبسط.

– وي! سسسسس... مستحيل!

بدأ يزرّ عينيه فتراءى له أن المكان ليس غريباً عليه كل الغرابة، فثمة غابة من الجانب، وخلف الأجمة عمود يرتفع عالياً في السماء. ما هذا الهراء! إنه برج الحمام الذي في حاكورة القس! وعلى الجانب الآخر أيضاً ثمة شيء ضارب إلى السمرة؛ أنعم النظر: إنه بيدر كاتب الناحية. هاكم إلى أين جرجرته القوى الشريرة! أخذ يدور ويدور في المكان إلى أن وقع على طريق ضيقة. لم يكن القمر موجوداً، بل كانت تومض بقعة بيضاء مكانه خلل الغيوم. قال الجد في نفسه: "ستهب

ريح شديدة غداً". نظر حوله فإذا بشمعة تومض فوق قبرٍ بعيد قليلاً عن الطريق. "ما هذا؟" وقف جدّي لا يبدي حراكاً، واضعاً ذراعيه في خاصرته، وأخذ يحدّق: انطفأت الشمعة، وفي البعيد، أبعد من مكان الشمعة الأولى بقليل، اشتعلت شمعة أخرى. هتف جدّي: "إنه كنز! أراهن بأي شيء على أنه كنز!"، بل وبصق في يديه ليبدأ الحفر، ثم تذكر أنْ ليس في حوزته مجرفة ولا معول. "آه! يا للأسف! إذ من يدري، ربما يكفي أن أزيل العشب فأعثر عليه! ما باليد حيلة، لكن فلأُعلِّم موضعه بعلامة، على الأقل، حتى لا أنسى مكانه".

ثم جذب غصنَ شجرة مكسوراً، بفعل الريح كما يبدو، ووضعه على القبر، حيث ومضت الشمعة، ومضى في الطريق. أخذت كثافة أجمة السنديان الفتية تخفّ، ولمح سياجاً، فقال في نفسه: "ألم أقل إنها حديقة القس؟ وها هو السياج! الآن يفصلني عن البستان أقل من فرسخ".

على أنه وصل بيته في وقت متأخر، وأبى أن يتناول شيئاً من لقيمات القاضي، وأيقظ أخي أوستاب وسأله إن كان الحوذية قد غادروا منذ وقت طويل، ثم التفّ بغطائه المصنوع من صوف الغنم. وحين سأله أوستاب: "إلى أين أخذتك الشياطين اليوم يا جدّي؟" أجابه وهو يحكم الغطاء حوله أكثر: "لا تسأل، لا تسأل يا أوستاب، وإلا شاب شعرك!" وأخذ يشخر بصوتٍ عالٍ بحيث أفزع العصافير التي كانت قد حطت في البستان فطارتْ عالياً في السماء لشدة ذعرها. ولكن أنّى له أن يغفو؟ ولا أخفيكم أن الشيخ الماكر – أدخله الله ملكوت السماء – كان داهية يستطيع دائماً أن يجد مخرجاً من أي مأزق، وكان يلفّق في بعض الأحيان قصةً تجعل المرء يعضّ شفتيه.

وفي اليوم التالي، فور حلول الظلام ارتدى جدّي سترته، وتمنطق بحزامه، وتأبط مجرفةً ومعولاً، ووضع قبّعته على رأسه، وشرب إبريقاً من الجعة، ومسح شفتيه بنفسه، ومضى رأساً إلى حاكورة القس. وها هو يمرّ بالسياج وبأجمة السنديان الفتية، وكانت ثمة طريق تمتد بين الأشجار تفضي إلى السهل، فظنّ أنها الطريق نفسها. خرج إلى السهل فرأى أن المكان هو مكان الأمس نفسه تماماً بكل تفاصيله: ها هو برج الحمام، ولكن البيدر غير موجود. "كلا، ليس هذا هو المكان. لعله أبعد قليلاً؛ يبدو أنّ عليّ أن أنعطف ناحية البيدر"، وقفل راجعاً ومضى في طريق آخر، فاستطاع أن يرى البيدر، ولكنه لم يرَ برج الحمام، فانعطف مرةً أخرى في مكانٍ أقرب إلى برج الحمام، فلم يعد يرى البيدر. وأخذ المطر يهطل رذاذاً، كأنما عمداً، في السهل. جرى ثانيةً صوب البيدر فاختفى برج الحمام، وجرى شطر برج الحمام فاختفى البيدر!

صاح جدي: "أيها الشيطان الملعون، أتمنى ألا تعيش حتى ترى أولادك!".

ثم انهمر المطر فخلع حذاءه الجديد ولفّه في منديل يقيه المطر، وجرى كحصانٍ رهوان من أحصنة النبلاء، ثم دلف إلى الكوخ وقد بلّله المطر كله، وتغطّى بفروته الصوف وراح يتمتم بصوت خفيض ويسب الشيطان سباباً لم أسمع له مثيلاً في حياتي قط، وأقرّ بأنّ لو أنّ هذا حدث في وضح النهار لاحمرّ وجهي خجلاً بلا شك.

استيقظت في صباح اليوم التالي فرأيت جدّي يجول في بستان البطيخ كأنّ شيئاً لم يحدث، وراح يغطّي البطيخ بنبات راعي الحمام. وأثناء الغداء عاد الشيخ يتحدث ويخيف أخي الأصغر قائلاً إنه سيقايضة

بدجاجة بدلاً من البطيخة. وبعد الانتهاء من الغداء صنع مزماراً من قطعة من الخشب وأخذ ينفخ فيه، ثم أراد أن يروّح عنّا فأعطانا بطيخة التفّت ثلاث لفّات، كأنها أفعى، كان يسمّيها البطيخة التركية. ولست أرى الآن لها مثيلاً في أيّ مكان، والحق أنه حصل على بذور هذا النوع من بلاد بعيدة.

وفي المساء خرج جدّي بعد تناول العشاء، وحمل معه مجرفة يحفر بها حوضاً جديداً لليقطين المتأخّر، ومرّ بذلك المكان المسحور فلم يتمالك نفسه من القول مغمغماً: "يا له من مكان ملعون!" ومضى إلى وسطه، حيث لم يستطع أن يتم رقصته أول أمس، وضرب المكان بالمجرفة بكل قوته، فلم يلبث أن رأى الحقل المعهود يحيط به مرةً أخرى: في أحد الجوانب يبرز برج الحمام، وفي الجانب الآخر البيدر. "مرحى، أحسنت إذ فكرت في جلب المجرفة، فها هي ذي الطريق، وها هو ذا القبر! وها هو ذا الغصن الملقى عليه، وها هي ذي الشمعة مشتعلة! أرجو ألا أكون أخطأت هذه المرة!".

وجرى بخفة رافعاً المجرفة في الهواء كأنه يهمّ بضرب خنزير اكتسح بستانه، ووقف أمام القبر. انطفأت الشمعة، وكان ثمة حجر تغطّيه الأعشاب فوق القبر. قال جدي لنفسه: "يجب رفع هذا الحجر"، وأخذ يحفر حوله من كل الجهات، لكن الحجر الملعون كان ضخماً، فثبت قدميه في الأرض ودحرجه عن القبر. "دوووو!" تردّد في الوادي. "إن هذا هو الطريق الصحيح الذي يجب أن تسلكه! ولسوف تسير الأمور من بعد في سهولة ويسر!".

هنا توقّف جدّي وأخرج صندوق سعوطه ونثر قليلاً من السعوط في يده، وهمّ بأن يرفعه إلى أنفه، وإذا بشيء "هاتشو!" يعطس فوق

رأسه عطسةً اهتزّت لها الأشجار وتلطّخ وجه جدّي كله.

قال جدّي وهو يمسح عينيه: "أدِر وجهك على الأقل إن شئت أن تعطس"، والتفتّ حوله ولكنه لم يرَ أحداً، فقال وهو يضع صندوق السعوط في عبّه ويتناول مجرفه: "يبدو أن الشيطان لا يحب السعوط. يا له من أحمق! فلم يتنشّق سعوطاً كهذا لا جده ولا أبوه!".

بدأ يحفر، وكانت الأرض رخوة تغوص فيها المجرفة بسهولة، ثم قعقع شيء، فأزاح التراب فرأى قدراً كبيرة، فصاح جدّي وهو يدفع المجرف تحتها:

- آها يا عزيزي! أنت هنا إذن!

وصاح منقار عصفور كان ينقر القدر: آها يا عزيزي! أنت هنا إذن!

تنحى جدّي وسقطت المجرفة من يده.

وثغى رأس شاة من أعلى شجرة: آها يا عزيزي! أنت هنا إذن!

وجأر دب وهو يطلّ بأنفه من خلف شجرة: آها يا عزيزي! أنت هنا إذن!

سرت الشعريرة في أوصال جدّي، وغمغم يقول بينه وبين نفسه: "إنه لأمر مخيف أن ينطق المرء بكلمة هنا!"

فصاح منقار العصفور: مخيف أن ينطق المرء بكلمة هنا!

وثغى رأس الشاة: مخيف أن ينطق المرء بكلمة!

وجأر الدب: ينطق بكلمة!

وقال جدّي: "همم!"، وأحس هو نفسه بالفزع.

وصاح المنقار: همم!

وثغت الشاة: همم!

وجأر الدب: همم!

تلفّت جدّي حوله في فزع: يا إلهي، يا لها من ليلة! لا نجوم ولا قمر، ومن حوله أخاديد عميقة وتحت قدميه هاوية سحيقة الغور؛ وفوق رأسه صخرة شامخة تكاد أن تهوي عليه! وتراءى لجدّي أن رأساً بشعاً يطلّ من ورائها: "أوه! أوه! الأنف مثل كور الحداد؛ والمنخران يتّسع واحدهما لسطل من الماء! أما شفتاه، فوالله كأنهما كتلتان من الخشب! وعينان حمراوان ناتئتان، فضلاً عن أنه يمدّ له لسانه ساخراً!

رمى جدي القِدر من يده وقال: "فليأخذك الشيطان! ألا لعنة الله عليك وعلى كنزك! يا لها من سحنة كريهة!" وهمّ الشيخ بالهرب لكنه حين تلفّت حوله توقّف، فقد عاد كل شيء إلى سابق عهده: إنها القوى الشريرة تحاول أن تخيفني وحسب!

وهمّ برفع القِدر مرة أخرى، فوجدها ثقيلة! فماذا يصنع؟ لن يتركها هنا طبعاً! لذا حشد قواه كلها وأمسك بالقدر بكلتا يديه.

"هيا، هيلاهوب! هيلاهوب، أيضاً، أيضاً!" فرفعها، "اوخ، فلأتنشق شيئاً من السعوط!"،

أخرج صندوق سعوطه، وقبل أن ينثر السعوط على يده تلفت حوله ليستوثق من عدم وجود لأحد: يبدو أن ما من أحد؛ ولكن إذا بجذع شجرة يبدو كأنه يلهث وينفخ ثم برزت منه أذنان ثم عينان حمراوان ومنخران ينفثان، وأنف مجعد تراءى له أنه على وشك أن يعطس. فقال جدّي بينه وبين نفسه، وهو يخفي علبة سعوطه: "كلا، لن أتنشّق السعوط، فالشيطان سيبصق في عيني مرة أخرى"، ورفع القدر وانطلق يسابق الريح، إلا أنه شعر بشيء من خلفه يخدش ساقيه... فصاح جدّي: "آي! آي، آي!" وهو منطلق بأقصى سرعته، ولم يتنفس

الصعداء إلا بعد أن بلغ حاكورة القس.

بعد أن انتظرناه ثلاث ساعات رحنا نتساءل: "ترى أين ذهب جدّي؟"، وكانت أمي قد قدمت من المزرعة منذ وقتٍ طويل وجاءت بقدر من لقيمات القاضي الساخنة. لكن الجد لم يظهر! وتناولنا العشاء مرة أخرى من دونه. وبعد العشاء غسلت أمي القدر وراحت تبحث بعينيها عن مكان تسكب فيه الغُسالة، لكنها وجدت أن مساكب البطيخ تحيط بها من كل جانب، وإذا بها ترى برميلاً يندفع نحوها رأساً! وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله. لا شكّ أن غلاماً يعبث مختفياً وراءه ويدفع به، فقالت: "حسنٌ، سألقي الغُسالة فيه" وقذفت بما في يدها من الماء الساخن.

"آي!" صرخ صوت غليظ.

نظروا فإذا البرميل لم يكن إلا جدّي، وي! من كان يتصوّر هذا! والله لقد ظنناه برميلاً مندفعاً نحونا. ولست أنكر، على ما في قولي هذا من إثم، إن منظر جدّي وقد غرق رأسه الأشيب في الغُسالة وغطّاه قشر البطيخ بدا مضحكاً.

قال جدّي وهو يمسح رأسه بهدب سترته: "أيتها المرأة الملعونة! يا للحمام الساخن! كأنني خنزير قبل عيد الميلاد! أما أنتما أيها الصبيان فسوف تنالان شيئاً آخر غير حلقات الخبز، وسترفلان، أيها الجروان، في ملابس من الذهب"، ثم قال: "انظروا، انظروا ما جلبته لكم!" وفتح القِدر.

فماذا تظنون كان في القِدر؟ هيا، فكّروا جيداً على الأقل، هه؟ ذهب؟ كلا، لم يكن فيها ذهب: وسخ، قذارة... يخجلني أن أقول ماذا كان. بصق جدّي وطوح بالقدر ثم غسل يديه.

من يومها حملنا جدّي على القسم بألا نثق بالشيطان أبداً.

كان كثيراً ما يقول لنا: "إياكم أن يخطر لكم مجرد خاطر بأنه صادق! فإن كل ما يقوله عدو المسيح كذب محض، ابن الكلب! فليس في ما يقول من الصدق ولو بكوبيك واحد!".

وكان الشيخ، ما إن يسمع أن الأوضاع مضطربة في مكانٍ ما، يهتف بنا:

– هيا، يا ولدي، لنرسم إشارة الصليب. ناولاه، هكذا، لا تشفقا عليه! أحسنتما!

ويبدأ في رسم إشارات الصليب فوق بعضها بعضاً. أما ذلك المكان الملعونة الذي عجز فيه عن الرقص فقد سوّره وأمرنا أن نلقي فيه بكل الفضلات والأعشاب والقمامة التي كان يجمعها من البستان.

أرأيتم كيف تُضلّ القوى الشريرة الإنسان؟ إنني أعرف تلك القطعة من الأرض جيداً، وقد استأجرها بعض الجيران من القوزاق من بعد ليزرعوها بطيخاً. إنها أرض عظيمة! ومحصولها كان دائماً وفيراً! أما المكان المسحور فلم ينبت فيه قط نباتٌ طيب. ورغم أنهم يبذورنها كما ينبغي، ثم لا يعلم أحد كيف يكون نبتها، بطيخها ليس بطيخاً ويقطينها ليس يقطيناً وخيارها ليس خياراً... لا يعلم إلا الشيطان ماذا يكون.

'ضحك غوغول وأضحكنا طول حياته،
وأطلنا الضحك حتى بدأنا نبكي في النهاية.'

دوستويفسكي

يسرق الشيطان القمر ليمنع زواج الحدادِ فاكولا من حبيبته أكسانا... يسود الهرج والمرج في السوق جرّاء الهلع الذي أحدثته 'السترة الحمراء'... يختبئ أعيان القرية في أكياس الفحم في كوخ سولوخا الساحرة...

في قالب من الكوميديا السوداء، يصوّر غوغول حياة القرويين البسطاء في الريف الأوكراني، من خلال الحكايات التي يرويها مربّي النحل بانكو وضيوفه.

تمّ تحويل 'الأمسيات' إلى فيلم سينمائي، ومسلسل تلفزيوني، وعروض مسرحية مازالت تُعرض حتى اليوم. كما أنها ألهمت كبار الفنانين والموسيقيين الروس.

نيكولاي فاسيليفيتش غوغول (١٨٠٩-١٨٥٢) من أعظم الكتّاب الروس وأشهرهم، ويُعدّ أبا الأدب النثري الروسي. قال عنه غوركي: 'كلنا خرجنا من معطف غوغول' في إشارة إلى قصته 'المعطف'. ذاع صيته مع صدور 'الأمسيات...'، ومن أشهر أعماله 'تاراس بولبا' و'المفتّش' و'النفوس الميتة'.

ISBN 978-6-14425-846-0
DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com
9 786144 258460 >